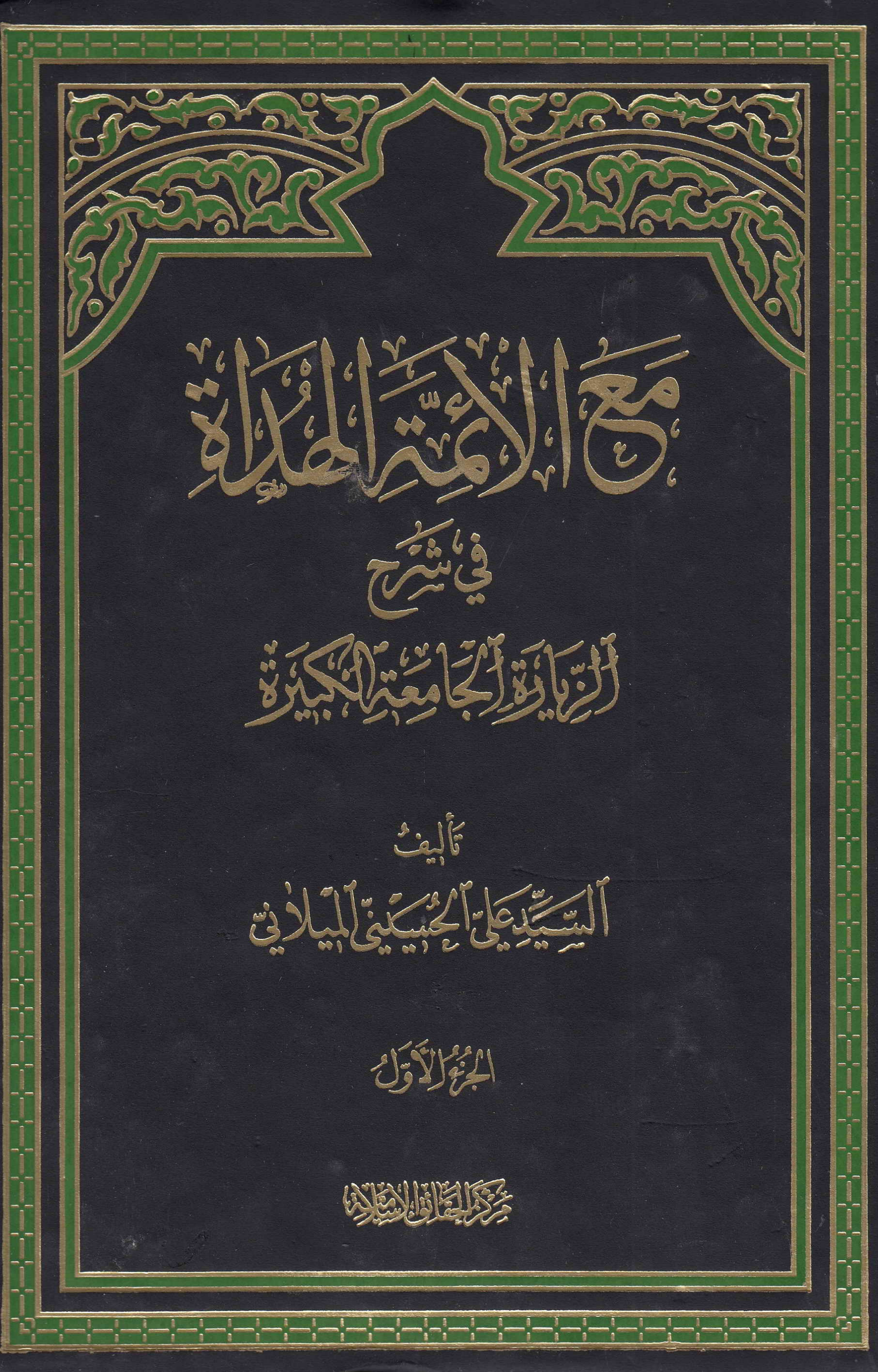
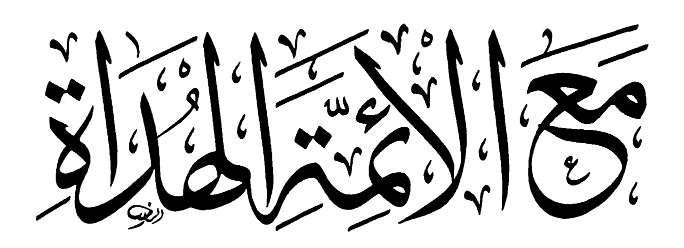

مع الأئمة الهداة
في شرح
الزيارة الجامعة الكبيرة
تأليف
السيد علي الحسيني الميلاني
الجزء الأول
مركز الحقائق الإسلامية



في شرح

الزيارة الجامعة الكبيرة

تأليف

السيد علي الحسيني الميلاني

الجزء الأول

مركز الحقائق الإسلامية

سرشناسه: حسینی میلانی، سید علی، ۱۳۲۷ -
عنوان قراردادی: زیارتنامه جامعه کبیره. شرح
عنوان و نام پدیدآور: مع الائمة الهداة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة / تاليف السيد على الحسينى الميلانى.
مشخصات نشر: قم: نشر الحقایق، ۱۴۳۵ق. = ۱۳۹۲ -
مشخصات ظاهری: ۴۰۰ ص.
شابک: دوره 978-600-5348-46-0
ج. ۱: 978-600-5348-47-7؛
يادداشت: عربی.
يادداشت: کتابنامه.
موضوع: زیارتنامه جامعه کبیره -- نقد و تفسیر
شناسه افزوده: نشر الحقایق
رده بندی کنگره: ۱۳۹۰ ۵۶ ح/ ۲۰۲/ ۲۷۱ BP
رده بندی دیویی: ۲۹۷/۷۷۷
شماره کتابشناسی ملی: ۲۵۹۳۷۲۹



اسم الكتاب: مع الأئمّة الهداة عليهم السّلام (في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة)، ج ۱
المؤلف: السيد علي الحسيني الميلاني
نشر: الحقايق
الطبعة: الثانية، ۱٤٤۱
المطبعة: وفا
الكميّة: ۲۰۰
السعر: ٤۰۰۰۰۰ ريال
ردمك الدورة: ۹۷۸_٦۰۰_٥٣٤٨_٤٦_۰ 978 - 600 - 5348 - 46 - 0
ردمك: ۹۷۸_٦۰۰_٥٣٤٨_٤٧_٧ 978 - 600 - 5348 - 47 - 7

عنوان مركز النشر: قم المقدسه، هاتف: ۰۲٥-۳۷۸۳۷۳۲۰ و ۰۲٥_۳۷۸٤۲٦۸۲

عنوان مركز التوزيع في طهران: شارع «پاسداران»، شارع «شهيد گلنبى»، زاوية شارع ناطق نورى، بناية زمرد «ساختمان زمرد»، الطابق الثاني، رقم ٤٣، منشورات آفاق، هاتف: ۰۲۱-۲۲۸٤۷۰۳٥

عنوان مركز التوزيع في مشهد: شارع الشهداء، خلف حديقة نادري «باغ نادرى»، زقاق الشهيد خوراكيان، بناية «گنجينه كتاب»، دار نشر نور الكتاب، هاتف: ۰٥۱-۳۲۲٤۲۲٦۲ ۰۹۱٥۱۱۹۹٤٨٦

عنوان مركز التوزيع في اصفهان: شارع «چهارباغ پائين»، مقابل ملعب «تختي» الرياضي، مركز الحوزة العلمية التخصصي للحوزة العلمية في اصفهان، هاتف: ۰۳۱-۳۲۲٤۰٦۰۸

الموقع: www.al-milani.com - **البريد الالكتروني:** info@al-milani.com - **الرسائل النصية:** ۹۸۱۰۰۰۱٤۱٤+



كلمة المؤلّف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمدٍ وآله الطّاهرين المعصومين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الأوّلين والآخرين.

وبعد:

فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله ـ في الحديث المتّفق عليه ـ: من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهليّة....

وإنّ أفضل الطّرق لمعرفة أحوال الشّخص هو دراسة سلوكه وأقواله إنْ كان صادقاً فيما يفعل ويقول....

وإنّ الأئمّة الطّاهرين المعصومين صلوات الله عليهم أخبر من غيرهم بأنفسهم، وهم أصدق من حدّث عن خصائصهم ومنازلهم ومعالم شخصيّاتهم.

وإن التأمّل والتدبّر في زياراتهم الواردة عنهم صلوات الله عليهم معين غنيّ يوفّر لنا الفهم الأوسع لمقاماتهم وصفاتهم.

ولعلّ الزيارة الجامعة الكبيرة التي علّمها الإمام علي الهادي صلوات الله عليه للشيعة، أجمع ما ورد عنهم في بيان مقاماتهم السّامية ومنازلهم الرفيعة، ولذلك، اهتمّ بها علماؤنا الكبار قدّس الله أنفسهم عبر العصور تلاوةً وتدريساً وشرحاً.

وقد طلب منّي ثلّة من الفضلاء الأعزاء شرح هذه الزيارة المباركة المرويّة بإسنادٍ موثوق به، لكثرة فوائدها في باب معرفة الإمامة والإمام، وحاجة الناس إليها في عصر ظهر فيه أفراد يشكّكون في مراتب الأئمّة الطّاهرين وعلوّ مقامهم، عن قصورٍ منهم لإدراكها أو تقصير وتعمّد.

فانتهزت فرص العطلة في الحوزة العلميّة، وشرحت تلك الزيارة الشريفة بالاستعانة بآيات الكتاب الكريم، وبما روي عنهم صلوات الله عليهم في كتب التفسير والحديث والفقه، كما أوردت بالمناسبة كثيراً من أحاديث الجمهور المتعلّقة بالموضوع.

ووضعت للبحث مدخلاً تعرّضت فيه لجملةٍ من المسائل الضروريّة، ثم قسّمت الزيارة إلى أقسام حسب المحاور الواردة فيه.

وبهذه المناسبة، ندعوا الباحثين عن مثل هذه الأُمور الجليلة، في حوزاتنا العلميّة وخارجها، إلى اعتماد منهج فهم المعصومين وما يتعلّق بهم صلوات الله عليهم من خلال كلماتهم النورانيّة ومراجعة سلوكهم الربّاني، والابتعاد عن التفسير بالرأي والترجيح بالظنون.

والله أسأل أن يعرّفنا نفسه عزّوجلّ ويعرّفنا نبيّه صلّى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين من بعده، وأن يجعل هذا الكتاب وسيلةً لثبات أقدام المؤمنين ولهداية من كان أهلاً لها إلى الحق المبين، والحمد لله ربّ العالمين.

عليّ الحسينيّ الميلانيّ

١٤٣٢

المدخل

* الزيارة لغةً وعرفاً
* الأئمّة أحياء
* زيارة النبي والأئمّة زيارة الله
* شبهة واهية
* ما هو الغرض من الزيارة؟
* لماذا التأكيد على الزيارات؟
* معرفة الأئمّة روائيّاً
* مقام الصالحين
* من آداب الزيارة
* أبرز الزيارات المأثورة
* متن الزيارة الجامعة.

معنى الزيارة لغةً وعرفاً

الظاهر أن «الزيارة» مصدر «الزوْر» بمعنى الميل والرغبة إلى طرف والعدول عن غيره، فقد ذكر ابن فارس في كتابه (معجم مقاييس اللغة) ما نصّه:

«**الزاء والواو والراء، أصل واحد يدل على الميل والعدول**»[1].

ومن هنا جاءت كلمة «الزائر»، لأنّ من زار أحداً فقد مال إليه وعدل عن غيره. فإنّ من يقصد زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا ـ عليه السّلام ـ فهو في الواقع بمجرد قصده وخاصّةً في حين تشرّفه بالحضور في حرمه الشريف، قد مال إلى الإمام وعدل عمّن سواه وأعرض.

«وفي الدعاء: اللهم اجعلني من زوّارك»[2].

توضيحه: إنه لما كان الله تعالى ليس بجسمٍ، ولا يحويه مكان أو جهة خاصّة، فإن معنى هذا الدعاء هو: اللهم اجعلني ممّن يميل ويرغب بالتوجه إليك فقط.

وعندما يصبح العبد كذلك، يكون قد أعرض وعدل عمّا سوى الله تعالى، ومن اللّاجئين إلى ساحة قدسه العظيمة والطالبين عونه دون غيره.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٦.

(٢) مجمع البحرين ٣/ ٣٢٠.

ويضيف الشيخ الطريحي صاحب (مجمع البحرين) بعد ذلك وحسبما جاء في المأثور:

«من فعل كذا فقد زار الله في عرشه»[١].

فما معنى «زار الله في عرشه»؟

لعلّه: أن من فعل ذاك الفعل المعيَّن، يكون قد وُفّق لأن يقصد الله ويتوجّه إليه ويعرض عن غيره، فيختصّه الله جلّ وعلا لنفسه، ويجعل رغبته وميله إليه دائماً ويحول بينه وبين الميل إلى من سواه.

وفي بعض الكلمات: أن الزيارة حضور الزائر عند المزور.

والحضور عند المزور تارة يكون بالقلب واخرى بالجسم وثالثة بالقلب والجسم، ومن الواضح أنّ الحضور بالقلب والجسم مَعاً هو الحضور المفيد المؤثّر وبه تتحقق الزيارة الواقعيّة، بل المهمّ في تحقّقها ـ بمعنى التوجّه والميل والرغبة والعدول عن الغير ـ هو الحضور القلبي، وإنْ صدق عند العرف العام عنوان الزيارة على مجرّد الحضور بالبدن، سواء كان هناك توجّه بالقلب أوْلا، لا سيّما في زيارة سائر الناس.

وممّا يؤكّد ما ذكرناه، الروايات الواردة بزيارة الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار من بُعد، فلولا كون الملاك هو الحضور القلبي بالتوجّه التام والعدول والإعراض عن غير المزور عليه السّلام، لما صَدَق عنوان الزيارة على ما يقوله في خطاب المزور عن بعد، ولما ترتّبت الآثار المطلوبة من الأجر والحالات المعنويّة على تلك الزيارة، التي لا تحصل في كثير من الأحيان لكثير من

(١) مجمع البحرين ٣ / ٣٢٠.

الأشخاص الذين يحضرون عند المزور بالأبدان.

وعلى الجملة، فإن المقصود من «الحضور» أوّلاً وبالذات هو الحضور القلبي عند المزور عليه السّلام، وكأنّ الحضور البدني مقدّمة محصّلة لذلك، وإنْ كان للحضور البدني الصِّرف أثرٌ بقدره بفضل الله ورحمته وكرمه.

كما أنّ هذا التوجّه والحضور القلبي سيكون مقدّمةً لحصول الارتباط المعنوي بالله وأوليائه والقرب منهم، بحيث إذا استمرّت حركته وتقدّم في مراتب القرب، أصبح ولا ميل له إلّا إلى الله سبحانه، ولا توجّه عنده إلّا لساحته المقدّسة، فيكون معرضاً عن كلّ ما سِواه وتنقطع علقته عن كلّ شيء غيره، حتى يكون خالصاً في الله ليبلغ درجة «المخلصين»، وهذا هو المقام الذي يسعى له الموحّدون والهدف الذي ينشدون.

الأئمّة أحياء

ولابدّ هنا من الإشارة إلى ما نعتقده كما تدلّ عليه الآيات والروايات وغيرها من الأدلّة، من حياة الأنبياء والأوصياء والشهداء عند الله، وأنّهم يعرفون زوّارهم ويعلمون بأُمورهم، وينظرون إليهم....

روى الشيخ ابن قولويه في كتاب كامل الزيارات عن الصّادق عليه السّلام في حديثٍ له حول سيدنا أبي عبدالله الحسين عليه السّلام قال:

وإنه لينظر إلى زوّاره، فهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما في رحالهم، من أحدهم بولده. وإنه لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ويسأل أباه الاستغفار له ويقول له: أيها الباكي، لو علمت ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر مما

حزنت. وإنه ليستغفر له من كلّ ذنبٍ وخطيئة[١].

وهذه عقيدة سائر الفرق من المسلمين أيضاً، ولذا يزورون قبور الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله، وقد أفرد بعض علماء الجمهور كالحافظ جلال الدين السيوطي هذه المسألة بالتأليف، ورووا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله فيها أحاديث صريحة:

كقوله صلّى الله عليه وآله: من زارني بعد وفاتي...[٢].

وقوله صلّى الله عليه وآله: من سلّم عليّ من عند قبري سمعته...[٣].

فهي عقيدة جميع الفرق إلّا شرذمة عرفت بخروجها عن عقائد المسلمين واتّبعت ابن تيمية الحراني وابن عبدالوهّاب النجدي.

ولعلّ أفضل كلام في الباب هو ما أفاده الشيخ المفيد البغدادي رحمه الله حيث قال:

وإنّ رسول الله والأئمّة من عترته خاصّةً، لا يخفى عليهم بعد الوفاة أحوال شيعتهم في دار الدنيا بإعلام الله تعالى لهم ذلك، حالاً بعد حال، ويسمعون كلام المناجي لهم في مشاهدهم المكرّمة العظام، بلطيفةٍ من لطائف الله تعالى يبينهم بها من جمهور العباد، وتبلغهم المناجاة من بُعدٍ، كما جاءت به الرواية[٤].

---

(١) كامل الزيارات: ٢٠٦، أمالي الطوسي: ٥٥.

(٢) كامل الزيارات: ١٣.

(٣) بحار الأنوار ١٠ / ٤٤١.

(٤) أوائل المقالات: ٧٢.

زيارة الأنبياء والأئمّة زيارة الله جلّ جلاله

وأورد شيخنا الصّدوق ـ رحمه الله ـ في كتاب مَن لا يحضره الفقيه حديثاً عن المعصوم ـ عليه السّلام ـ يوثق ما أثبتناه آنفاً وهو قوله:

«زيارة الله تعالى زيارة أنبياءه وحُججِهِ، مَن زارهم فقد زار الله ـ عزّ وجلّ ـ»[١].

ذلك، لأن «من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصىٰ الله، ومن تابعهم فقد تابع الله ـ عزّ وجلّ ـ» كما في الحديث[٢].

إنّه ارتباط وثيق بين الله تعالى من جانب، وبين النبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأهل بيته من جانب آخر. وإن العبد الذي يريد زيارة الله تعالى ـ كما تقدّم في معنى الزيارة ـ يتحتّم عليه زيارة النبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ والأئمّة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ وهذا يلزمه أن من يتوجه إليهم ويعدل عن غيرهم، فقد توجّه إلى الله تعالى وأعرض عمّن سواه.

شبهة واهية

وبناءً على ما تمّ بيانه، فإن زيارة الأئمّة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ هي زيارة «حقيقيّة» لله تعالى، ولا مجال لإعتبارها زيارة مجازية البتة. لكن أحد المعاصرين ادّعىٰ ـ في كلامٍ له نُشِرَ في إحدى المجلّات ـ: «إن زيارة الأئمّة ومحبتهم أو عشقهم ـ حسب تعبيره ـ هو عشق مجازي وليس حقيقياً، لأنّ العشق الحقيقي لله

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢ / ٩٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢ / ٩٣.

تعالى ولا غير».

وهو ادّعاءٌ يخالف كلّ ما بين أيدينا من الروايات والأدلّة الواضحة الدّلالة والمنادية بأعلى صوتها بأن زيارة الإمام الحسين، والإمام عليّ بن موسى الرّضا وغيرهما عليهم الصّلاة والسّلام زيارة الله حقيقة، لا يوجد فيها مجاز، ولا تحتمل ذلك، لأن الرابطة بين الله ـ عزّ وجلّ ـ وبين الأئمّة الطّاهرين مبنيّة علىٰ أساس حقيقي ينعدم فيها المجاز، وقد عرفنا أنّ الزيارة هي الميل والتوجّه والرغبة والإعراض والعدول عن الغير.

وهل حبّ آل محمّد عليهم السّلام غير حبّ الله تعالى؟

وهل طاعتهم غير طاعته سبحانه؟

وهل عصيانهم والتمرّد على أوامرهم لا يعني عصيان الله تعالى والتمرّد عليه؟

وهل أن إتباعهم وإلتزامهم لا يؤديان إلى إتباع والتزام الله تعالى؟

كيف يكون ذلك والرواية التي أوردها الصّدوق صريحة: «زيارة الله تعالى زيارة أنبياءه وحُجَجِهِ، مَن زارهم فقد زار الله ـ عزّ وجلّ ـ»[1].

وهذه قضيّة واقعيّة وحقيقيّة ليس فيها مجاز، فطاعتهم طاعة الله وعصيانهم عصيانه، وهي عقيدة وقاعدة.

وخلاصة الكلام أن المراد من الزيارة هو التوجّه والميل، وهذا الميل ملازم للعدول والإعراض عن غير الله.

وعلى هذا الأساس، فزيارة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله والأئمّة

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢ / ٩٣.

الأطهار، والميل إلى الإمام صاحب الزمان عليه الصّلاة والسّلام، هو ميل إلى الله تعالى حتماً وزيارة لله جزماً.

وعلى ما تقدّم، فإن معنى الزيارة لغويّاً، يتطابق مع معناها قرآنياً[١] وروائياً. وليس هناك تباين بين ما أراده الشارع المقدس من مفهوم الزيارة وتعلّق به غرضه من تشريعها، وما يعنيه المعنى اللّغوي.

ما هو الغرض من الزيارة؟

من خلال معنى الزيارة الذي أوضحناه آنفاً، يتوضح الغرض الديني والحكمة من تشريع من زيارة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السّلام، وما تستلزمه من مشقة السفر إليهم، وبذل الأموال وصرف الأوقات. ويتبين أيضاً السرّ من كلّ هذا التأكيد على زيارتهم، خاصّة زيارة سيدالشهداء أبي عبدالله الحسين في كربلاء، والإمام عليّ بن موسى الرضا في ايران.

إننا لا نولي اهتماماً لتخرصات وترّهات الوهابيّة في مسألة زيارة القبور والتوسّل بالنّبي وآله والأولياء الأبرار، رغم أننا ـ ومن خلال عرضنا للبحوث القادمة ـ سنردّ عليها، إلّا أن بحوثنا ستتركز حول ما جاء عن أئمتنا عليهم السّلام في هذا المجال.

فالهدف من هذه الزيارات هو التوجّه إلى الرسول وآل بيته ـ عليهم السّلام ـ والحضور في ساحاتهم المقدّسة حضوراً قلبياً، والإقرار لهم بالسّير على نهجهم

(١) للاطلاع، يراجع كتاب المفردات في غريب القرآن، مادّة «زَوَرَ».

وإلتزام خطّهم، والعدول والإعراض عن سبل ومناهج غيرهم. وهذا في حدّ ذاته زيارة لله تعالى ووقف النفس لخدمته سبحانه والقصد إليه وحده لا شريك له، وهو ما يستبطن العدول عن غيره. وهذا المعنى جليٌّ جدّاً في أدبيات آداب الزيارة للمراقد الطاهرة لأهل البيت ـ عليهم السّلام ـ والواردة في كتب الأدعية والزيارات كقول الزائر مخاطباً ربّه جلّ وعلا:

«اللهم إنك أكرم مقصود، وأكرم مأتيٍّ، وقد أتيتك متقرّباً إليك بابن بنتِ نبيّك»(١).

ويؤيد ما قلناه بشكل أوضح، العبارة التالية التي وردت في طلب إذن الدخول للمراقد الطاهرة:

«الحمد لله الذي منَّ علينا بحكّام يقومون مقامه لو كان حاضراً في المكان»(٢).

وهذا هو الهدف المرجو.

لماذا كلّ هذا التأكيد على الزيارات؟

وبما ذكرنا يظهر الجواب عمّا لو طرح السؤال فيما يخصّ زيارة النبي والأئمّة الأطهار، وخاصّة الإمام الحسين عليه السّلام، بأنه لماذا هذا التأكيد على زيارته عليه السّلام في المراسم والمناسبات المختلفة وفي كلّ ليلة جمعة؟

وما هو السرّ في الحثّ على تكرار ذلك؟

وما الهدف من الذهاب إلى كربلاء؟

---

(١) بحار الأنوار ٩٩ / ١٤.

(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١١٥.

لأنّه إذا زار الإمام مرّة حصل له التوجه والارتباط بـه والعـدول عـن غـيره بقدرها، فإذا ما تكررت الزيارة فستنشأ في الزائر ملكة نفسانية وتتأصّل في قرارة نفسه حقيقة واقعية ـشاء أم أبىٰ ـ تجعله مريداً لله ولحججه الأئمّة الأطهار معرضاً عن غيرهم بالكليّة.

بعبارة أخرى، تنمو في الزائر ـبفعل الزيارةـ سلوكية الإنـقطاع عـن الغـير، وتتكرّس هذه السلوكيّة بتكرار الزيارة حتىٰ يتمحّض محضاً، ليـصل إلى درجـةٍ لا يلهيه فيها أي مالٍ ولا يشغله أي جاهٍ ولا تخيفه أيّة قوة مهما بلغت.

أجل، فالإنسان بحاجةٍ إلى هذه الدرجة من الإيمان؛ نظراً لما يحيط به مـن مخاطر تهدّده بالعدول ـ ولو عدول وقتي ـ قد يعتريه حيال أدنى خوفٍ من أحدٍ، أو طمع بمغريات الحياة أو تبهره هيبة الوجاهات فتقلّل من ارتباطه وميله لإمامه ووليّه.

إذن، فـتكرار الزيـارة والمـداومـة عـليها والحـضور عـند النـبيّ والأئـمّة المعصومين ـعليهم السّلامـ سيوجد في الزائر حـالة مـن الإنـقطاع إلى المـولىٰ المعصوم، والإنقطاع عن غيره، وقد عرفنا أن هذه الحالة مع الإمام هي في الحقيقة مع الله ورسوله، وإذا ما صار هذا الإنقطاع مستقرّاً في نفسه، فستحلّ فـيه حـالة الإطمئنان وما أعظمها من درجة! حيث سيكون من شأن هذا الإطمئنان أن يمنحه مناعة قويّة تحول بينه وبين العدول عن الله ورسوله وأئمّته الطاهرين والإنحراف عن ولايتهم.

معرفة الأئمّة روائياً

ورغم معرفتنا للأئمة الأطهار عليهم السّلام ـ كلٌّ مِنّا بمقدار وسعه الفكري وفهمه وإدراكه ـ إلّا أن هذا الأمر قد حاز على أهميّة وتأكيدات خاصّة، فيما ورد من روايات في معرفة الأئمّة. ففي الكافي:

قال زرارة: «قلت لأبي جعفر عليه السّلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟

فقال عليه السّلام:

إنّ الله عزّوجلّ بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله إلى الناس أجمعين رسولاً وحجةً لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمّد رسول الله واتَّبَعَهُ وصدَّقه، فإنّ معرفة الإمام منّا واجبة عليه»(١).

فلمّا كان هذا التأكيد على أن معرفة الإمام واجبة على كلّ واحدٍ منّا، تعيّن علينا طلبها، وإذا كانت لدينا تلك المعرفة وجب علينا إستزادتها. ولمّا كانت الزيارة تستتبع المعرفة، فلابُد ـ حينئذٍ ـ من الالتزام بهذه الزيارات وخاصّة المأثورة منها عنهم، لأنها بمثابة المقدّمة لهذا الأمر الواجب.

وعن جابر، قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول:

«إنما يعرف الله عزّوجلّ ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منّا أهل البيت. ومن لا يعرف الله عزّوجلّ ولا يعرف الإمام منّا أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله»(٢).

---

(١) الكافي ١ / ١٨١.

(٢) الكافي ١ / ١٨١.

وحسب هذه الرواية اللّطيفة، إنْ لم تكن هناك معرفة بالأئمّة، فستكون العبادة لغير الله. من هنا تجب معرفة الأئمّة لكي تتحقق عبادة الله تعالى. ولما كانت الزيارة مقدّمة للمعرفة وتكرارها زيادة في هذه المعرفة، وجب علينا زيارة الأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

ولعلّه على هذا الأساس، أفتى فقهاؤنا أن زيارة سيدالشهداء الحسين عليه السّلام واجبة للمستطيع ولو مرّة واحدة في العمر. ولذلك نجدهم لم يمنعوا من زيارة الأئمّة والذهاب إلى كربلاء في الأزمنة السّابقة، رغم مشقة المسير وخطورة الطريق، بل شجّعوا على هذا الأمر ودعوا إليه، لأن في ذلك زيادة في معرفة الإمام التي هي عين عبادة الله تعالى. وقد أورد الشيخ الجليل إبن قولويه في كتاب كامل الزيارات روايات كثيرة في هذا الباب.

وفيما يخصّ هذه المعرفة، نقرأ رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السّلام يقول فيها: «إنكم لا تكونوا صالحين حتىٰ تعرفوا، ولا تعرفوا حتى تصدّقوا، ولا تصدّقوا حتى تسلّموا»[١].

ومن الجدير بالذكر: ورود هذا المعنى في كتب أهل السنّة بطرقهم، فقد روى الحافظ الطبراني بسنده عن الإمام الحسن السبط عليه السّلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال: والذي نفسي بيده لا ينفع عبد عمله إلّا بمعرفة حقّنا[٢].

(١) الكافي ١ / ١٨٢.

(٢) المعجم الأوسط ٣ / ١٢٢.

مقام الصالحين

واستناداً للرواية المذكورة عن الإمام الباقر إذْ قال: «لا تكونوا صالحين حتى تعرفوا»، يمكننا أن نعرف مقام الصالحين الذي يطمع الأنبياء ويتضرّعون إلى ربّهم ويدعونه لأن يرفعهم إليه ويوصلهم إلى مصافّ الصالحين، فيقول سيّدنا إبراهيم عليه السّلام:

﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْمًا وَأَلْحِقْني بِالصّالِحينَ﴾[1].

ويقول يوسف عليه السّلام:

﴿تَوَفَّني مُسْلِمًا وَأَلْحِقْني بِالصّالِحينَ﴾[2]؟

إنّ هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات والرّوايات تدلّ على عظمة مقام الصّالحين وجلالته، بحيث يدعو الأنبياء والأولياء ويطلبون الوصول إليه، والرواية أفادت أنّه لا يكون أحدٌ من الصّالحين إلّا بالمعرفة، فكانت المعرفة شرطاً لبلوغ هذا المقام.

ولكنّا قد علمنا ـ ممّا تقدّم على ضوء الروايات المعتبرة ـ أن لزيارة النّبي وآله المعصومين دخلاً في حصول المعرفة، وأنها تتدرج من زيارتهم والخضوع لهم والتوسّل بهم.

فظهر أنّ لزيارة أهل العصمة دوراً في الوصول إلى مقام الصّالحين.

ولعلّه يشهد بذلك، ما ورد في زيارة الأنبياء للحسين عليه السّلام، كما في الخبر عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول: ليس نبيّ في

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

السماوات إلّا ويسأل الله تعالى أنْ يأذن لهم في زيارة الحسين، ففوج ينزل وفوج يصعد»[١].

بل إنّ للنبيّ والأئمّة عليهم السّلام دخلاً في كلّ شيء، ولنقرأ هذه الرواية التي رواها الشيخ الكليني في الكافي في أبواب معرفة الإمام عليه السّلام عن الإمام الصادق عليه السّلام قال:

«أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بأسباب، فجعل لكلّ شيءٍ سبباً، وجعل لكلّ سببٍ شرحاً، وجعل لكلّ شرح علماً، وجعل لكلّ علمٍ باباً ناطقاً، عرفه مَن عرفه، وجهله مَن جهله، ذاك رسول الله صلّى الله عليه وآله ونحن»[٢].

الخلاصة

أنّ الزائر المؤمن عندما يحضر لزيارة الأئمّة عليهم السّلام ـ سواء كان هذا الحضور بالجسم والروح أو حضوراً روحيّاً من خلال الزيارة عن بعد ـ فإن من آثار هذا الحضور الوصول إلى مقام التسليم لله تعالى وللرسول وأهل بيته عليهم السّلام، وينقطع إليهم ويعدل عن سواهم.

وهذا المقام يتحقق بتكرار الزيارة بالمعنى الصحيح، وإنْ كان البعض من المؤمنين يصلون إليه ببركة زيارة واحدة.

وإن زيارة المعصومين عليهم السّلام زيارة لله عزّوجلّ، كما في الرواية، وهي ـ كما تقدّم ـ عبارة عن الميل والتوجّه والرغبة، والعدول والإعراض عن الغير، فمن توجّه إليهم ورغب فيهم فقد توجّه إلى الله وعدل عن غيره.

(١) كامل الزيارات: ٢٢٠ / الباب ٣٨.

(٢) الكافي ١ / ١٨٣.

وقد تقدّم أيضاً أن الزيارة تتحقّق بالحضور البدني وحده كما تتحقق بالحضور القلبي كذلك، وبالحضور القلبي والبدني معاً، ولا ريب في أن المهمّ هو الحضور القلبي، فإن كان مع البدن كان أفضل.

آداب الزيارة في مدرسة أهل البيت

ولم تقتصر روايات مدرسة أهل البيت ـعليهم السّلام ـ على الحثّ الأكيد على الزيارات، خاصّة تلك التي لا شك في صدورها عنهم، بل ذهبت أعمق من ذلك لتربية أتباعهم بالالتزام بذلك، فرسمت لهم مساراً خاصاً وآداباً ينبغي مراعاتها، وأعطوها صفة آداب الزيارة، حيث يتعيّن على الزائر المؤمن الذي يروم زيارة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله والزهراء والأئمّة الأطهار عليهم السّلام طلباً للزّلفة والكرامة لديهم، أن يهيأ نفسه ظاهرياً وباطنياً للحضور عندهم وتأدية التحية والسّلام عليهم، وهم قد وضعوا هذه الآداب لطفاً منهم بنا، لمزيد الاستفادة من آثار الزيارة وبركاتها الماديّة والمعنوية.

فمن هذه الآداب:

١ ـ الغسل قبل السفر.

٢ ـ ترك الكلام بالباطل والجدال والخصام في مدّة السفر للزيارة.

٣ ـ غسل آخر قبل الدخول في الروضة المطهّرة للزيارة.

٤ ـ إرتداء الملابس النظيفة والطاهرة.

٥ ـ قصر الخطى في المسير للزيارة.

أبرز الزيارات المنقولة

ولا يخفى أن هناك زيارات كثيرة لأئمتنا الطاهرين ذات مضامين عالية قد صدرت عنهم عليهم السّلام، إلّا أن من بينها عدّة زيارات قد حازت في الأوساط الدينيّة على اهتمام أكثر، وتناولتها أقلام علمائنا الأعلام بالشرح والتحقيق منذ قديم الأيام، وهي الزيارات التالية:

١ ـ زيارة أمير المؤمنين عليٍّ ـ عليه السّلام ـ في يوم غدير خم.

حيث احتوت هذه الزيارة على سلسلة من المعارف الرفيعة، والحقائق الاعتقادية الثرّة، والمستمدّة من آيات الكتاب العزيز وما قاله الرسول الأعظم بحقّ مولانا أمير المؤمنين، ممّا يدلّ على أفضليته نقلاً وعقلاً من سائر الخلائق أجمعين بعد النبيّ الأمين صلّى الله عليه وآله.

٢ ـ زيارة عاشوراء

وهي التي يُزار بها الإمام الحسين ـ عليه السّلام ـ في يوم عاشوراء ثم في سائر الأيام، ولها آثار وبركات عظيمة، وقد جزم عظماؤنا بقطعية سندها، حتىٰ أن الفقيه الورع الشيخ خضر بن شلّال قال: أنه قد يكون المنكر لها خارجاً عن المذهب[١]. لذلك كانت هذه الزيارة محطّ اهتمام علماءنا العظام والمؤمنين بمختلف طبقاتهم، ولا تزال، وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ وهي التي تمنح مَن يواظب على قراءتها معرفة بالإمام الحسين والأئمّة المعصومين ـ عليهم السّلام ـ وتزيده ولاءً لهم، وانزجاراً من أعدائهم، إذ لا معنىٰ للولاء من دون البراءة من الأعداء كما سيظهر إنْ شاء الله.

---

(١) أبواب الجنان: ٤٠٥ للفقيه الورع الشيخ خضر بن شلّال المتوفى سنة ١٢٥٥.

٣ ـ زيارة آل ياسين

وهذه الزيارة خاصّة للتوجّه والتوسّل والإرتباط بصاحب السّاحة المقدّسة وليّ العصر والزمان ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ ولها في هذا المجال بالغ الأثر.

٤ ـ الزيارة الجامعة لأئمّة المؤمنين ـ عليهم السّلام ـ وهي المعروفة بالزيارة الجامعة الكبيرة.

وإنّ كلّ واحدة من هذه الزيارات بحاجة إلى شرحٍ وافٍ، بتبيين دقائقها وكشف اللّثام عن حقائقها.

والكتاب الذي بين أيدينا هو رؤية جديدة لشرح وتوضيح الزيارة الجامعة، نابعة عن تحقيق ودراسة متبصرة في مضامينها المتعالية ومفاهيمها الرفيعة، تفتح طريقاً وضّاءً لمعرفة مقام وعظمة أهل البيت عليهم السّلام، ليتسنّىٰ للمحققين وسائر طلّاب الحقيقة التزام صراطهم المستقيم، وسلوك نهجهم الواضح.

الزيارة الجامعة

السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَوْضِعَ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفَ الْمَلاَئِكَةِ وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ وَخُزَّانَ الْعِلْمِ وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ وَأُصُولَ الْكَرَمِ وَقَادَةَ الْأُمَمِ وَأَوْلِيَاءَ النِّعَمِ وَعَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ وَدَعَائِمَ الْأَخْيَارِ وَسَاسَةَ الْعِبَادِ وَأَرْكَانَ الْبِلاَدِ وَأَبْوَابَ الْإِيمَانِ وَأُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ وَسُلاَلَةَ النَّبِيِّينَ وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى وَأَعْلاَمِ التُّقَى وَذَوِي النُّهَى وَأُولِي الْحِجَى وَكَهْفِ الْوَرَى وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنَى وَحُجَجِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأُولَى وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَسَاكِنِ بَرَكَةِ اللَّهِ وَمَعَادِنِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَحَفَظَةِ سِرِّ اللَّهِ وَحَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَأَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وَالْأَدِلاَّءِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَالْمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَالْمُخْلِصِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْمُظْهِرِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَعِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ الَّذِينَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَى الأَئِمَّةِ الدُّعَاةِ وَالْقَادَةِ الْهُدَاةِ
وَالسَّادَةِ الْوُلاَةِ وَالذَّادَةِ الْحُمَاةِ وَأَهْلِ الذِّكْرِ وَأُولِي الأَمْرِ وَبَقِيَّةِ اللَّهِ
وَخِيَرَتِهِ وَحِزْبِهِ وَعَيْبَةِ عِلْمِهِ وَحُجَّتِهِ وَصِرَاطِهِ وَنُورِهِ وَبُرْهَانِهِ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ كَمَا
شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَشَهِدَتْ لَهُ مَلاَئِكَتُهُ وَأُولُو الْعِلْمِ مِنْ خَلْقِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمُنْتَجَبُ وَرَسُولُهُ
الْمُرْتَضَى أَرْسَلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ وَأَشْهَدُ أَنَّكُمُ الأَئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الْمَعْصُومُونَ
الْمُكَرَّمُونَ الْمُقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصَّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ
الْقَوَّامُونَ بِأَمْرِهِ الْعَامِلُونَ بِإِرَادَتِهِ الْفَائِزُونَ بِكَرَامَتِهِ اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ
وَارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ وَاخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ وَاجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ وَأَعَزَّكُمْ بِهُدَاهُ
وَخَصَّكُمْ بِبُرْهَانِهِ وَانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ وَأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ وَرَضِيَكُمْ خُلَفَاءَ
فِي أَرْضِهِ وَحُجَجاً عَلَى بَرِيَّتِهِ وَأَنْصَاراً لِدِينِهِ وَحَفَظَةً لِسِرِّهِ وَخَزَنَةً
لِعِلْمِهِ وَمُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ وَتَرَاجِمَةً لِوَحْيِهِ وَأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِهِ
وَشُهَدَاءَ عَلَى خَلْقِهِ وَأَعْلاَماً لِعِبَادِهِ وَمَنَاراً فِي بِلاَدِهِ وَأَدِلاَّءَ عَلَى
صِرَاطِهِ عَصَمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّلَلِ وَآمَنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ وَطَهَّرَكُمْ مِنَ
الدَّنَسِ وَأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً فَعَظَّمْتُمْ جَلاَلَهُ

وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وَأَدَمْتُمْ ذِكْرَهُ وَوَكَّدْتُمْ مِيثَاقَهُ وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ وَنَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ وَصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ وَأَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ وَبَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ وَأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ وَنَشَرْتُمْ شَرَائِعَ أَحْكَامِهِ وَسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ وَصِرْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضَا وَسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضَاءَ وَصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضَى فَالرَّاغِبُ عَنْكُمْ مَارِقٌ وَاللاَّزِمُ لَكُمْ لاَحِقٌ وَالْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زَاهِقٌ وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ وَمِيرَاثُ النُّبُوَّةِ عِنْدَكُمْ وَإِيَابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ وَحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ وَفَصْلُ الْخِطَابِ عِنْدَكُمْ وَآيَاتُ اللَّهِ لَدَيْكُمْ وَعَزَائِمُهُ فِيكُمْ وَنُورُهُ وَبُرْهَانُهُ عِنْدَكُمْ وَأَمْرُهُ إِلَيْكُمْ مَنْ وَالاكُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهَ وَمَنْ عَادَاكُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَمَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ فَقَدِ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ أَنْتُمُ السَّبِيلُ الْأَعْظَمُ وَالصِّرَاطُ الْأَقْوَمُ وَشُهَدَاءُ دَارِ الْفَنَاءِ وَشُفَعَاءُ دَارِ الْبَقَاءِ وَالرَّحْمَةُ الْمَوْصُولَةُ وَالْآيَةُ الْمَخْزُونَةُ وَالْأَمَانَةُ الْمَحْفُوظَةُ وَالْبَابُ الْمُبْتَلَى بِهِ النَّاسُ مَنْ أَتَاكُمْ فَقَدْ نَجَا وَمَنْ لَمْ يَأْتِكُمْ فَقَدْ هَلَكَ

إِلَى اللَّهِ تَدْعُونَ وَعَلَيْهِ تَدُلُّونَ وَبِهِ تُؤْمِنُونَ وَلَهُ تُسَلِّمُونَ وَبِأَمْرِهِ تَعْمَلُونَ وَإِلَى سَبِيلِهِ تُرْشِدُونَ وَبِقَوْلِهِ تَحْكُمُونَ سَعِدَ وَاللَّهِ مَنْ وَالاكُمْ وَهَلَكَ مَنْ عَادَاكُمْ وَخَابَ مَنْ جَحَدَكُمْ وَذَلَّ مَنْ فَارَقَكُمْ وَفَازَ مَنْ تَمَسَّكَ بِكُمْ وَأَمِنَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْكُمْ وَسَلِمَ مَنْ صَدَّقَكُمْ وَهُدِيَ مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ مَنِ اتَّبَعَكُمْ فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ وَمَنْ خَالَفَكُمْ فَالنَّارُ مَثْوَاهُ وَمَنْ جَحَدَكُمْ كَافِرٌ وَمَنْ حَارَبَكُمْ مُشْرِكٌ وَمَنْ رَدَّ عَلَيْكُمْ فِي أَسْفَلِ دَرْكٍ مِنَ الْجَحِيمِ أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا سَابِقٌ لَكُمْ فِيمَا مَضَى وَجَارٍ لَكُمْ فِيمَا بَقِيَ وَأَنَّ أَرْوَاحَكُمْ وَنُورَكُمْ وَطِينَتَكُمْ وَاحِدَةٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْوَاراً فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ حَتَّى مَنَّ عَلَيْنَا بِكُمْ فَجَعَلَكُمْ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَجَعَلَ صَلَوَاتِنَا عَلَيْكُمْ وَمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ وَلاَيَتِكُمْ طِيباً لِخَلْقِنَا وَطَهَارَةً لِأَنْفُسِنَا وَتَزْكِيَةً لَنَا وَكَفَّارَةً لِذُنُوبِنَا فَكُنَّا عِنْدَهُ مُسَلِّمِينَ بِفَضْلِكُمْ وَمَعْرُوفِينَ بِتَصْدِيقِنَا إِيَّاكُمْ فَبَلَغَ اللَّهُ بِكُمْ أَشْرَفَ مَحَلِّ الْمُكَرَّمِينَ وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْمُرْسَلِينَ حَيْثُ لاَ يَلْحَقُهُ لاَحِقٌ وَلاَ يَفُوقُهُ فَائِقٌ وَلاَ يَسْبِقُهُ سَابِقٌ وَلاَ يَطْمَعُ فِي إِدْرَاكِهِ طَامِعٌ حَتَّى لاَ يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلاَ صِدِّيقٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَلاَ عَالِمٌ وَلاَ جَاهِلٌ وَلاَ دَنِيٌّ وَلاَ فَاضِلٌ وَلاَ مُؤْمِنٌ

صَالِحٌ وَلاَ فَاجِرٌ طَالِحٌ وَلاَ جَبَّارٌ عَنِيدٌ وَلاَ شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَلاَ خَلْقٌ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ شَهِيدٌ إِلاَّ عَرَّفَهُمْ جَلاَلَةَ أَمْرِكُمْ وَعِظَمَ خَطَرِكُمْ وَكِبَرَ شَأْنِكُمْ وَتَمَامَ نُورِكُمْ وَصِدْقَ مَقَاعِدِكُمْ وَثَبَاتَ مَقَامِكُمْ وَشَرَفَ مَحَلِّكُمْ وَمَنْزِلَتِكُمْ عِنْدَهُ وَكَرَامَتَكُمْ عَلَيْهِ وَخَاصَّتَكُمْ لَدَيْهِ وَقُرْبَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْهُ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بِعَدُوِّكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مُسْتَبْصِرٌ بِشَأْنِكُمْ وَبِضَلاَلَةِ مَنْ خَالَفَكُمْ مُوَالٍ لَكُمْ وَلِأَوْلِيَائِكُمْ مُبْغِضٌ لِأَعْدَائِكُمْ وَمُعَادٍ لَهُمْ سِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَكُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ مُحَقِّقٌ لِمَا حَقَّقْتُمْ مُبْطِلٌ لِمَا أَبْطَلْتُمْ مُطِيعٌ لَكُمْ عَارِفٌ بِحَقِّكُمْ مُقِرٌّ بِفَضْلِكُمْ مُحْتَمِلٌ لِعِلْمِكُمْ مُحْتَجِبٌ بِذِمَّتِكُمْ مُعْتَرِفٌ بِكُمْ مُؤْمِنٌ بِإِيَابِكُمْ مُصَدِّقٌ بِرَجْعَتِكُمْ مُنْتَظِرٌ لِأَمْرِكُمْ مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ آخِذٌ بِقَوْلِكُمْ عَامِلٌ بِأَمْرِكُمْ مُسْتَجِيرٌ بِكُمْ زَائِرٌ لَكُمْ عَائِذٌ بِكُمْ لاَئِذٌ بِقُبُورِكُمْ مُسْتَشْفِعٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ وَمُتَقَرِّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ وَمُقَدِّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتِي وَحَوَائِجِي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالِي وَأُمُورِي مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلاَنِيَتِكُمْ وَشَاهِدِكُمْ وَغَائِبِكُمْ وَأَوَّلِكُمْ وَآخِرِكُمْ وَمُفَوِّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ وَمُسَلِّمٌ فِيهِ مَعَكُمْ وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ وَرَأْيِي لَكُمْ تَبَعٌ وَنُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ حَتَّى يُحْيِيَ اللَّهُ تَعَالَى دِينَهُ بِكُمْ وَيَرُدَّكُمْ فِي

أَيَّامِهِ وَيُظْهِرَكُمْ لِعَدْلِهِ وَيُمَكِّنَكُمْ فِي أَرْضِهِ فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لاَ مَعَ عَدُوِّكُمْ آمَنْتُ بِكُمْ وَتَوَلَّيْتُ آخِرَكُمْ بِمَا تَوَلَّيْتُ بِهِ أَوَّلَكُمْ وَبَرِئْتُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَعْدَائِكُمْ وَمِنَ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَالشَّيَاطِينِ وَحِزْبِهِمُ الظَّالِمِينَ لَكُمْ وَالْجَاحِدِينَ لِحَقِّكُمْ وَالْمَارِقِينَ مِنْ وَلاَيَتِكُمْ وَالْغَاصِبِينَ لِإِرْثِكُمْ وَالشَّاكِّينَ فِيكُمْ وَالْمُنْحَرِفِينَ عَنْكُمْ وَمِنْ كُلِّ وَلِيجَةٍ دُونَكُمْ وَكُلِّ مُطَاعٍ سِوَاكُمْ وَمِنَ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ فَثَبَّتَنِيَ اللَّهُ أَبَداً مَا حَيِيتُ عَلَى مُوَالاَتِكُمْ وَمَحَبَّتِكُمْ وَدِينِكُمْ وَوَفَّقَنِي لِطَاعَتِكُمْ وَرَزَقَنِي شَفَاعَتَكُمْ وَجَعَلَنِي مِنْ خِيَارِ مَوَالِيكُمُ التَّابِعِينَ لِمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يَقْتَصُّ آثَارَكُمْ وَيَسْلُكُ سَبِيلَكُمْ وَيَهْتَدِي بِهُدَاكُمْ وَيُحْشَرُ فِي زُمْرَتِكُمْ وَيَكُرُّ فِي رَجْعَتِكُمْ وَيُمَلَّكُ فِي دَوْلَتِكُمْ وَيُشَرَّفُ فِي عَافِيَتِكُمْ وَيُمَكَّنُ فِي أَيَّامِكُمْ وَتَقَرُّ عَيْنُهُ غَداً بِرُؤْيَتِكُمْ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي مَنْ أَرَادَ اللَّهَ بَدَأَ بِكُمْ وَمَنْ وَحَّدَهُ قَبِلَ عَنْكُمْ وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ مَوَالِيَّ لاَ أُحْصِي ثَنَاءَكُمْ وَلاَ أَبْلُغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنَ الْوَصْفِ قَدْرَكُمْ وَأَنْتُمْ نُورُ الْأَخْيَارِ وَهُدَاةُ الْأَبْرَارِ وَحُجَجُ الْجَبَّارِ بِكُمْ فَتَحَ اللَّهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ وَبِكُمْ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَبِكُمْ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ وَبِكُمْ يُنَفِّسُ الْهَمَّ وَبِكُمْ يَكْشِفُ الضُّرَّ وَعِنْدَكُمْ مَا نَزَلَتْ بِهِ

رُسُلُهُ وَهَبَطَتْ بِهِ مَلائِكَتُهُ وَإِلَى جَدِّكُمْ بُعِثَ الرُّوحُ الأَمِينُ وَإِنْ كَانَتِ الزِّيَارَةُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْ وَإِلَى أَخِيكَ بُعِثَ الرُّوحُ الأَمِينُ آتَاكُمُ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ طَأْطَأَ كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ وَبَخَعَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لِطَاعَتِكُمْ وَخَضَعَ كُلُّ جَبَّارٍ لِفَضْلِكُمْ وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِكُمْ وَفَازَ الْفَائِزُونَ بِوِلاَيَتِكُمْ بِكُمْ يُسْلَكُ إِلَى الرِّضْوَانِ وَعَلَى مَنْ جَحَدَ وِلاَيَتَكُمْ غَضَبُ الرَّحْمَنِ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي ذِكْرُكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ وَأَسْمَاؤُكُمْ فِي الأَسْمَاءِ وَأَجْسَادُكُمْ فِي الأَجْسَادِ وَأَرْوَاحُكُمْ فِي الأَرْوَاحِ وَأَنْفُسُكُمْ فِي النُّفُوسِ وَآثَارُكُمْ فِي الآثَارِ وَقُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ فَمَا أَحْلَى أَسْمَاءَكُمْ وَأَكْرَمَ أَنْفُسَكُمْ وَأَعْظَمَ شَأْنَكُمْ وَأَجَلَّ خَطَرَكُمْ وَأَوْفَى عَهْدَكُمْ وَأَصْدَقَ وَعْدَكُمْ كَلاَمُكُمْ نُورٌ وَأَمْرُكُمْ رُشْدٌ وَوَصِيَّتُكُمُ التَّقْوَى وَفِعْلُكُمُ الْخَيْرُ وَعَادَتُكُمُ الإِحْسَانُ وَسَجِيَّتُكُمُ الْكَرَمُ وَشَأْنُكُمُ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ وَالرِّفْقُ وَقَوْلُكُمْ حُكْمٌ وَحَتْمٌ وَرَأْيُكُمْ عِلْمٌ وَحِلْمٌ وَحَزْمٌ إِنْ ذُكِرَ الْخَيْرُ كُنْتُمْ أَوَّلَهُ وَأَصْلَهُ وَفَرْعَهُ وَمَعْدِنَهُ وَمَأْوَاهُ وَمُنْتَهَاهُ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي كَيْفَ أَصِفُ حُسْنَ ثَنَائِكُمْ وَأُحْصِي جَمِيلَ بَلاَئِكُمْ وَبِكُمْ أَخْرَجَنَا اللَّهُ مِنَ الذُّلِّ وَفَرَّجَ عَنَّا غَمَرَاتِ الْكُرُوبِ وَأَنْقَذَنَا بِكُمْ مِنْ شَفَا جُرُفِ الْهَلَكَاتِ وَمِنَ النَّارِ بِأَبِي أَنْتُمْ

وَ أُمِّي وَ نَفْسِي بِمُوَالاَتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا وَ أَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا وَ بِمُوَالاَتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ وَ عَظُمَتِ النِّعْمَةُ وَ ائْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ وَ بِمُوَالاَتِكُمْ تُقْبَلُ الطَّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ وَ لَكُمُ الْمَوَدَّةُ الْوَاجِبَةُ وَ الدَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ وَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ وَ الْمَكَانُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ الْجَاهُ الْعَظِيمُ وَ الشَّأْنُ الْكَبِيرُ وَ الشَّفَاعَةُ الْمَقْبُولَةُ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً يَا وَلِيَّ اللَّهِ إِنَّ بَيْنِي وَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ ذُنُوباً لاَ يَأْتِي عَلَيْهَا إِلاَّ رِضَاكُمْ فَبِحَقِّ مَنِ ائْتَمَنَكُمْ عَلَى سِرِّهِ وَ اسْتَرْعَاكُمْ أَمْرَ خَلْقِهِ وَ قَرَنَ طَاعَتَكُمْ بِطَاعَتِهِ لَمَّا اسْتَوْهَبْتُمْ ذُنُوبِي وَ كُنْتُمْ شُفَعَائِي فَإِنِّي لَكُمْ مُطِيعٌ مَنْ أَطَاعَكُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ مَنْ عَصَاكُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَ مَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَ مَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ اللَّهُمَّ إِنِّي لَوْ وَجَدْتُ شُفَعَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَ أَهْلِ بَيْتِهِ الْأَخْيَارِ الْأَئِمَّةِ الْأَبْرَارِ لَجَعَلْتُهُمْ شُفَعَائِي فَبِحَقِّهِمُ الَّذِي أَوْجَبْتَ لَهُمْ عَلَيْكَ أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي جُمْلَةِ الْعَارِفِينَ بِهِمْ وَ بِحَقِّهِمْ وَ فِي زُمْرَةِ الْمَرْحُومِينَ بِشَفَاعَتِهِمْ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِينَ وَ سَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً وَ حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ.

دراسة حُول

الزِّيٰارَة الجٰامِعَة الكبيرة

❊ سندها

❊ استشهاد العلماء بها

❊ شروحها

❊ إنها غنيّة عن السند

❊ من كلمات الأكابر بشأنها

قد نصّ غير واحد من أكابر علمائنا على أن الزيارة الجامعة من الزيارات التي لا شك في صدورها عن المعصوم عليه الصّلاة والسّلام، وهو الإمام علي بن محمّد الهادي.

وأما السّبب في تسميتها بالزيارة الجامعة، فهو أنّ الراوي قد طلب من الإمام أن يعلّمه قولاً إذا زار واحداً منهم عليهم السّلام، وأن المضامين المشتملة عليها صادقة على كلّ واحدٍ من الأئمّة الطاهرين، وأن بالإمكان زيارة جميع الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بها، بأنْ يخاطب بها كلّهم معاً.

ويبقى الكلام في زيارة مولانا الإمام المهدي عليه السّلام بها، فقد يمنع من ذلك، لبعض ما جاء في الزيارة من قبيل «لائذ عائذ بقبوركم».

وأمّا زيارة النبي الأكرم والصدّيقة الطاهرة فوجه المنع أقوى.

نعم، الظاهر أنه لا مانع من زيارة النبيّ وأهل بيته مجتمعين، لجواز تصحيح ذلك من باب التغليب، والله العالم.

سند الزيارة الجامعة

وعلى الرغم من وثوقنا وإطمئناننا بصدور هذه الزيارة عن الإمام الهادي ـ عليه السّلام ـ إلا أنّه لابدّ من إستيفاء البحث في صحة سندها وإثبات ذلك.

وقد رواها شيخ المحدّثين ابن بابويه الصّدوق رحمه الله في كتابه (عيون أخبار الرضا عليه السّلام) قائلاً:

حدثنا عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقّاق رضي الله عنه، ومحمّد ابن أحمد السناني، وعليّ بن عبدالله الورّاق، والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتِّب، قالوا: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، وأبو الحسين الأسدي قالوا: حدّثنا محمّد بن إسماعيل المكي البرمكي قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي قال: قلت لعلي بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السّلام ـ علّمني يابن رسول الله...(١).

أمّا في كتاب (من لا يحضره الفقيه) فقد قال:

روى محمّد بن إسماعيل البرمكي، قال: حدّثنا موسى بن عبدالله النخعي، قال قلت لعلي بن محمّد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام: علّمني يا ابن رسول الله قولاً أقوله بليغاً كاملاً إذا زرت واحداً منكم...(٢).

هذا سند الزيارة الجامعة الكبيرة.

---

(١) عيون أخبار الرضا ١ / ٣٠٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢ / ٦٠٩.

المشايخ الأربعة

أمّا المشايخ الأربعة في أوّل السند، فيتم الاعتماد عليهم بذكر مطالب:

حكم الصدوق بصحة أخبار كتابه

لقد صرّح الشيخ الصّدوق في مقدمة كتابه (الفقيه) ونصّ على وثوقه بما أخرجه فيه، وأنه يفتي بما جاءت به تلك الروايات، وهذه عبارته:

ولم أقصد فيه قصد المصنّفين في إيراد جميع ما رووه، بل قصدت إيراد ما أفتي به وأحكم بصحّته وأعتقد فيه أنه حجّة فيما بيني وبين ربّي ـ تقدّس ذكره وتعالت قدرته ـ وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورةٍ عليها المعوّل وإليها المرجع...[١].

وقد وقع الكلام في ذلك بين الأعلام، لا سيّما وقد وجدوا التنافي بين بعض فتاواه في كتبه الفقهية كالمقنع والهداية، والأخبار المرويّة في كتابه المزبور، والمهمّ هنا ما حكاه السيد الحكيم عن الشيخ المجلسي، من أنّ الشيخ الصّدوق قد عدل عمّا نصّ عليه في أوّل كتابه، ثم أشكل على هذا الكلام بأنه يستلزم نسبة التدليس إلى الصّدوق، لأنه لم ينبّه على هذا العدول في موضعه، وشأن الصّدوق أجلّ من ذلك، وهذا نصّ كلام الفقيه الحكيم:

وإيراد الصّدوق للمرسل في كتابه لا يدلّ على اعتقاده بمضمونه، لأنه عدل عمّا ذكر في صدر كتابه كما عن المجلسي.

وإنْ كان يشكل ذلك: بأن الواجب التنبيه منه على ذلك، لئلّا يكون تدليساً،

(١) من لا يحضره الفقيه ١ / ٢ ـ ٣.

وهو بعيد عن مقامه الأقدس.

مع أن حصول البداء له في ذلك مستبعد جدّاً[١].

وعلى الجملة، فإنه ـ بالإضافة إلى عدم الدليل على ما ذكره المجلسي ـ لا يمكن الاعتماد على التوجيه المزبور، وعليه، فإن أخبار كتاب (من لا يحضره الفقيه) باقية على الاعتبار عند الصّدوق، إلّا ما ثبت عدوله عنه منها، والرواة المرويّ عنهم في الكتاب موثوق بهم عنده، إلّا من قام الدليل على خلاف ذلك.

«الصحيح» في الاصطلاح

إن «الصحيح» في مصطلح قدماء الأصحاب وإنْ كان يختلف عنه في مصطلح المتأخّرين، إلّا أن المقصود عند الجميع واحد، وتوضيح ذلك:

إنّ «الصحيح» عند القدماء هو كلّ خبرٍ حصل الوثوق بصدوره، أمّا عند المتأخّرين ـ القائلين بتنويع الخبر إلى الصّحيح والموثّق والضعيف وغير ذلك ـ فهو خبر الثقة عن مثله، وهكذا، عن المعصوم، فهم وضعوا هذا الشرط كي يحصل الوثوق بصدوره.

وعلى الجملة، فالكلّ يريدون تفريق الحجّة عن اللّاحجة من الأخبار، ومن المعلوم، أنّ الخبر الحجة هو الموثوق بصدوره، وقد أوضح هذا المطلب صاحب كتاب مقباس الهداية في علم الدراية إذ قال:

«وقد زعم القاصرون من الأخباريين اختصاص هذا الإصطلاح بالمتأخّرين الذين أوّلهم العلّامة رحمه الله ـ على ما حكاه جمع منهم الشيخ البهائي رحمه الله في مشرق الشمسين ـ أو ابن طاووس ـ كما حكاه بعضهم ـ فأطالوا التشنيع عليهم

(١) مستمسك العروة الوثقى ١ / ٣٠٣.

بأنّه اجتهاد منهم وبدعة.

ولكنّ الخبير المتدبّر يرى أنّ ذلك جهل منهم وعناد، لوجود أصل الإصطلاح عند القدماء، ألا ترى إلى قولهم: لفلان كتاب صحيح، وقولهم: أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عن فلان، وقول الصّدوق رحمه الله: كلّ ما صحّحه شيخي فهو عندي صحيح، وقولهم: فلان ضعيف الحديث، ونحو ذلك.

فالصّادر من المتأخّرين تغيير الإصطلاح إلى ما هو أضبط وأنفع، تسهيلاً للضبط وتمييزاً لما هو المعتبر منها عن غيره»[١].

ترضّي الصدوق على مشايخه

يمتاز الشيخ الصّدوق عن ساير المحدّثين الإمامية القدامى بكثرة أسفاره إلى مختلف البلاد واجتماعه بكبار المحدّثين من أصحاب المذاهب وروايته عنهم وروايتهم عنه، فلذا كثر في مشايخه العلماء من الفرق الاخرى، فقرّر أصحابنا أنه إذا روى الصّدوق عن رجلٍ وأكثر عنه مع الترضّي والترحّم عليه، كان ذلك أمارة على كونه من الإمامية، قال الشيخ المامقاني:

وقد قالوا: إنّ ذكر الثقات مشايخهم مقروناً بِالرَّضْيَلَة والرَّحْمَلَة قرين للمدح، بل هو عديل للتوثيق. قال المحقق الداماد رحمه الله: إنّ لمشايخنا الكبار كالصّدوق رضي الله عنه مشيخةً يلتزمون إرداف تسميتهم بِالرَّضْيَلَة أو الرَّحْمَلَة لهم، فأُولئك أثبات أجلّاء، والحديث من جهتهم صحيح معتمد عليه، نصّ بالتوثيق أو لم ينصّ[٢].

---

(١) مقباس الهداية في علم الدراية: ٣٢.

(٢) تنقيح المقال في علم الرجال ١ / ٢٦٧.

وعلى هذا الأساس نقول: بأنّ المشايخ الذين روى عنهم الصّدوق الزيارة الجامعة كلّهم من الإماميّة، وينبغي الاعتماد عليهم، لترضّيه وترحّمه عليهم مع كثرة روايته عنهم في مواضع كثيرة من كتبه، وإليك بعض ذلك:

علي بن أحمد الدقّاق، روى عنه في:

الأمالي: ٣٠٩، ٣٣٤، ٤٥١، ٧٦٨.

التوحيد: ٤٨، ٥٦، ٥٧، ٦٠.

الخصال: ٥٤٣.

علل الشرايع ١ / ١٣١، ١٧٥، ١٧٦.

عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٢ / ٣١٥.

كمال الدين: ٥٢٠.

من لا يحضره الفقيه ٤ / ٤٤٥ و ٤٧٦.

محمّد بن أحمد السناني، روى عنه في:

الأمالي: ٤١٠، ٧٧٥.

الخصال: ٤٥٣.

علل الشرائع: ١ / ١٣١، ١٧٥، ١٧٦.

من لا يحضره الفقيه ٤ / ٤٧٦.

علي بن عبدالله الوراق، روى عنه في:

علل الشرائع: ١ / ١٣٢، ١٧٥، ١٧٦، ٢٤٠.

كمال الدين: ٥٢٠.

حسين بن إبراهيم المكتّب، روى عنه في:

علل الشرائع ١ / ٦٧.

الخصال: ٥٤٣.

لا جرح للمشايخ الأربعة

إنّ هؤلاء المشايخ الذين أكثر عنهم وترضّى عليهم، لم يرد في حقّ أحدٍ منهم جرح أو قدح من قبل كبار علماء الرجال، فلو ورد فيهم أو في بعض طعن من الشيخ الطوسي أو الشيخ النجاشي ـ مثلاً ـ لتقدّم الجرح بلا ريب وسقط الرجل عن الاعتبار.

ولكنّ إكثار الصّدوق مترحّماً مترضيّاً، وروايته عنهم في كتابه الذي التزم بالفتيا بما روى فيه، مع عدم وجود أيّ جرح من أحدٍ فيهم، يوجب الوثوق بهم والاعتماد عليهم.

تعدّد الرواة يوجب الوثوق

إنّ تعدّد الرواة مع تلك الخصوصيّات في كلّ واحدٍ منهم وجهٌ آخر للاعتماد والوثوق بالخبر المرويّ بواسطتهم، وقد روى الشيخ الصّدوق الزيارة الجامعة عن أربعةٍ من مشايخه، وهم:

١ ـ علي بن أحمد بن محمّد الدقّاق

قال الشيخ المامقاني بترجمته:

وقد قالوا: إنّ ذكر الثقات مشايخهم مقروناً بِالرَّضْيَلَة وَالرَّحْمَلَة قرين للمدح، بل هو عديل للتوثيق. قال المحقق الداماد رحمه الله: إنّ لمشايخنا الكبار الصدوق رضي الله عنه مشيخةً يلتزمون إرداف تسميتهم بِالرَّضْيَلَة أو الرَّحْمَلَة لهم، فأُولئك أثبات أجلّاء، والحديث من جهتهم صحيح معتمد عليه، نصّ بالتوثيق أو لم ينصّ[١].

---

(١) تنقيح المقال ١ / ٢٦٧.

٢ ـ محمّد بن أحمد السناني

وهو حفيد «محمّد بن سنان» ولذا لقّب بالسناني، قال المامقاني:

يمكن عدّ الرجل في الحسان، نظراً إلى استفادة كونه إماميّاً من عدم غمز الشيخ رحمه الله في مذهبه، واستفادة المدح المعتدّ به فيه من إكثار الصّدوق رحمه الله الرواية عنه مترحّماً[١].

٣ ـ علي بن عبدالله الوراق. قال المامقاني:

روى عنه الصّدوق رحمه الله مترحّماً عليه[٢].

٤ ـ حسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتّب. قال المامقاني:

قال في التعليقة: إنه يروي الصّدوق رحمه الله عنه مترضياً مترحّماً، وأقلّ ما يستفاد منه حسن حاله[٣].

استفادة الوثاقة من الترحّم

وجاء في تنقيح المقال ما نصّه:

إنّه لا يخفى عليك إمكان استفادة وثاقة الرجل، نصّوا على توثيقه أم لا، من أُمور... منها: ترحّم الإمام عليه السّلام على رجل أو ترضّيه عنه أو نحو ذلك، فإنّه لا يعقل صدور ذلك منه إلّا بالنسبة إلى ثقةٍ عدل. بل الترحّم والترضّي ونحوهما من المشايخ يفيد ذلك، كما لا يخفى على الفطن اللبيب[٤].

---

(١) تنقيح المقال ١ / ٢١٠.

(٢) المصدر ٢ / ٢٩٧.

(٣) المصدر ١ / ٣١٥.

(٤) المصدر ١ / ٢١٠.

أقول:

ويشهد بذلك ما جاء في كلام السيّد الخوئي ـ وهو من المتشدّدين في التوثيق، وكان بعض مشايخنا من تلامذته يتبعه في ذلك ـ من الاستدلال برواية «حسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتب» ـ وهو أحد المشايخ الأربعة الرواة للزيارة كما عرفت ـ إذ قال بترجمة «محمّد بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين الملقب بـ«ديباجة» ما نصّه:

«ويدلّ على ذمّه أيضاً عدّة من الروايات:

منها: ما رواه الصّدوق عن أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني....

ومنها: ما رواه عن الحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدب رضي الله عنه قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هشام...»[١].

فلولا وثاقة «الحسين بن إبراهيم» عند السيد الخوئي لما قال: «ويدلُّ...»، ولمّا كان المفروض عدم وجود التوثيق الصريح لهذا الرجل في الكتب الرجاليّة، فإنّ كونه من مشايخ الحديث والإكثار من الرواية عنه والترضّي عليه هو الدليل على وثاقته.

بعض الروايات المروية عنهم

والآن، نذكر نصوص بعض الروايات التي رواها الشيخ الصّدوق في كتبه عن المشايخ المذكورين، ولا يخفى جلالة مضامين هذه الروايات، وذلك مما يمكن أن يكون وجهاً آخر للاعتماد عليهم:

---

(١) معجم رجال الحديث ١٦ / ١٧٥.

١

حدّثنا محمّد بن أحمد السناني رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد، عن عليّ بن سالم، عن أبيه، عن أبان بن عثمان، عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

قال الله جلّ جلاله: لو اجتمع الناس كلّهم على ولاية عليّ ما خلقت النار[١].

٢

وحدّثنا الحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدّب رحمه الله، قال: حدّثنا محمّد بن جعفر الأسدي الكوفي، قال: حدّثني موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد النوفلي، عن عليّ بن أبي حمزة، عن أبيه، عن الصّادق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن آبائه، عن علي عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إذا كان يوم القيامة يؤتى بك يا عليّ على ناقة من نور، وعلى رأسك تاج له أربعة أركان، على كلّ ركن ثلاثة أسطر: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، عليّ وليّ الله، وتعطى مفاتيح الجنّة، ثمّ يوضع لك كرسي يعرف بكرسي الكرامة فتقعد عليه، ثمّ يجمع لك الأوّلون والآخرون في صعيد واحد، فتأمر بشيعتك إلى الجنّة، وبأعدائك إلى النار، فأنت قسيم الجنّة، وأنت قسيم النار، ولقد فاز من تولّاك، وخسر من عاداك، فأنت في ذلك اليوم أمين الله، وحجّة الله الواضحة[٢].

(١) أمالي الصّدوق: ٧٥٥.

(٢) معاني الأخبار: ١٣١ ـ ١٣٢.

٣

وروى محمّد بن أبي عبدالله الأسدي الكوفي، عن موسى بن عمران، عن عمّه الحسين بن يزيد النوفلي، عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة حديث تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[١] بالإمامة، جعلها الله عزّ وجلّ في عقب الحسين عليه السّلام باقية إلى يوم القيامة[٢].

٤

وروى محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد، عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة، عن أبيه، عن يحيى بن أبي القاسم، عن الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السّلام، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

الأئمّة بعدي اثنا عشر، أوّلهم عليّ بن أبي طالب وآخرهم القائم، فهم خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج الله على أُمّتي بعدي، المقرُّ بهم مؤمن، والمنكر لهم كافر[٣].

٥

وعن محمّد بن أحمد السناني رضي الله عنه، عن محمّد بن أبي عبدالله الأسدي الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٢) معاني الأخبار: ١٣١ و ١٣٢.

(٣) كمال الدين: ٢٥٩، من لا يحضره الفقيه ٤ / ١٧٩.

النوفلي، عن عليّ بن سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله الصادق عليه السّلام، قال:

إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان، ولا مكان، ولا حركة، ولا انتقال، ولا سكون، بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسّكون والانتقال، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً[١].

٦

وحدّثنا محمّد بن أحمد السناني رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الأسدي الكوفي، قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد، عن عليّ بن سالم، عن أبيه، عن سعد بن طريف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السّلام:

يا عليّ، أنت إمام المسلمين، وأمير المؤمنين، وقائد الغرّ المحجّلين، وحجّة الله بعدي على الخلق أجمعين، وسيّد الوصيّين، ووصيّ سيّد النبيّين.

يا علي، إنّه لمّا عرج بي إلى السماء السابعة، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وأكرمني ربّي جلّ جلاله بمناجاته، قال لي: يا محمّد؟

قلت: لبّيك ربّي وسعديك، تباركت وتعاليت.

قال: إنّ عليّاً إمام أوليائي، ونور لمن أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتّقين، من أطاعه أطاعني، ومن عصاه عصاني، فبشّره بذلك.

فقال علي عليه السّلام: يا رسول الله، بلغ من قدري حتّى إنّي أُذكر هناك؟

فقال: نعم يا عليّ! فاشكر ربّك.

---

(١) أمالي الصّدوق: ٣٥٣.

فخرّ عليّ عليه السّلام ساجداً شكراً لله على ما أنعم به عليه، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: إرفع رأسك يا عليّ، فإنّ الله قد باهى بك ملائكته(١).

٧

وحدّثنا محمّد بن موسى بن المتوكّل رحمه الله، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد النوفلي، عن عليّ بن سالم، عن أبيه، عن ثابت بن أبي صفيّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

من سرّه أن يجمع الله له الخير كلّه فليوال عليّاً بعدي، وليوال أولياءه، وليعاد أعداءه(٢).

٨

وحدّثنا عليّ بن أحمد بن موسى الدقّاق رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد النوفلي، عن عليّ بن أبي حمزة، عن يحيى بن أبي إسحاق، عن الصّادق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، عن أبيه عليهم السّلام، قال: سئل النبيّ صلّى الله عليه وآله: أين كنت وآدم في الجنّة؟

قال: كنت في صلبه، وهبط بي إلى الأرض في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق لي أبوان على

(١) أمالي الصّدوق: ٣٧٥.

(٢) المصدر: ٥٦٠.

سفاح قطّ، ولم يزل الله عزّوجلّ ينقلني من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة هادياً مهديّاً، حتّى أخذ الله بالنبوّة عهدي، وبالإسلام ميثاقي، وبيّن كلّ شيء من صفتي، وأثبت في التوراة والإنجيل ذكري، ورقى بي إلى سمائه، وشقّ لي اسماً من أسمائه الحسنى، أُمّتي الحمّادون، فذو العرش محمود وأنا محمّد[1].

٩

وحدّثنا محمّد بن موسى بن المتوكّل رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد النوفلي، عن عليّ بن سالم، عن أبيه، عن أبي حمزة الثمالي، عن سعد الخفّاف، عن الأصبغ بن نباتة، عن عبدالله بن عبّاس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

لمّا عرج بي إلى السماء السابعة، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومن السّدرة إلى حجب النور، ناداني ربّي جلّ جلاله:

يا محمّد! أنت عبدي وأنا ربّك، فلي فاخضع، وإيّاي فاعبد، وعلَيَّ فتوكّل، وبي فثق، فإنّي قد رضيت بك عبداً وحبيباً ورسولاً ونبيّاً.

وبأخيك عليّ خليفة وباباً، فهو حجّتي على عبادي، وإمام لخلقي، به يعرف أوليائي من أعدائي، وبه يميّز حزب الشيطان من حزبي، وبه يقام ديني، وتحفظ حدودي، وتنفذ أحكامي، وبك وبه وبالأئمّة من ولده أرحم عبادي وإمائي.

وبالقائم منكم أُعمر أرضي بتسبيحي وتهليلي وتقديسي وتكبيري وتمجيدي، وبه أُطهّر الأرض من أعدائي، وأُورثها أوليائي، وبه أجعل كلمة الذين كفروا بي السّفلى، وكلمتي العليا، وبه أُحيي عبادي وبلادي بعلمي، وله أُظهر

---

(١) أمالي الصّدوق: ٧٢٣، معاني الأخبار: ٥٥.

الكنوز والذخائر بمشيئتي، وإيّاه أظهر على الأسرار والضمائر بإرادتي، وأمدّه بملائكتي لتؤيّده على إنفاذ أمري، وإعلان ديني، ذلك وليّي حقّاً، ومهدي عبادي صدقاً[١].

١٠

وحدّثنا عليّ بن أحمد بن محمّد رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمّه الحسين بن يزيد، عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة، عن أبيه، قال: سألت أباعبدالله عليه السّلام: لأيّ علّة دفنت فاطمة عليها السّلام بالليل ولم تدفن بالنهار؟

قال: لأنّها أوصت أن لا يصلّي عليها الرجلان[٢].

أبو الحسين الأسدي

قال الشيخ الصدوق: قالوا: حدّثنا

محمّد بن أبي عبدالله وأبو الحسين الأسدي

أقول:

ظاهر العبارة هو التعدّد، بأنْ يكون الراوي في هذه الطبقة رجلان، هما: «محمّد بن أبي عبدالله» و«أبو الحسين الأسدي».

فإنْ كان كذلك، كفى وثاقة أحد الرجلين.

وإنْ كان سهواً أو غلطاً من النساخ، وأنهما رجل واحد هو: أبو الحسين

(١) أمالي الصّدوق: ٧٣١.

(٢) علل الشرائع ١ / ١٨٥.

محمّد بن جعفر بن عون الأسدي الكوفي»، فإن «أبا الحسين الأسدي» ثقة بلا كلام.

وقد ذهب السيد الخوئي ـ تبعاً للنجاشي ـ إلى الاتحاد، فذكر بترجمة «محمّد بن جعفر بن عون» ما نصّه:

قال النجاشي: محمّد بن جعفر بن محمّد بن عون الأسدي، أبو الحسين الكوفي، ساكن الريّ، يقال له: محمّد بن أبي عبدالله، كان ثقة، صحيح الحديث، إلّا أنّه روى عن الضعفاء، وكان يقول بالجبر والتشبيه، وكان أبوه وجهاً. روى عنه أحمد بن محمّد بن عيسى. له كتاب الجبر والاستطاعة.

أخبرنا أبو العبّاس بن نوح، قال: حدّثنا الحسن بن حمزة، قال: حدّثنا محمّد بن جعفر الأسدي بجميع كتبه. قال: ومات أبو الحسين محمّد بن جعفر ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. وقال ابن نوح: حدّثنا أبو الحسن بن داود، قال: حدّثنا أحمد بن حمدان القزويني، عنه بجميع كتبه.

وقال الشيخ: محمّد بن جعفر الأسدي، يكنّى أبا الحسين، له كتاب الردّ على أهل الاستطاعة، أخبرنا به جماعة عن التلّعكبري، عن محمّد بن جعفر الأسدي.

وقال في رجاله، في باب من لم يرو عنهم عليهم السّلام: محمّد بن جعفر الأسدي، يكنّى أبا الحسين الرازي، كان أحد الأبواب.

وقال في كتاب الغيبة: وقد كان في زمان السّفراء المحمودين أقوام ثقات، ترد عليهم التوقيعات من قبل المنصوبين للسّفارة من الأصل، منهم أبو الحسين محمّد بن جعفر الأسدي رحمهم الله.

أخبرنا أبو الحسين بن أبي جيد القمّي، عن محمّد بن الوليد، عن محمّد بن يحيى العطّار، عن محمّد بن أحمد بن يحيى، عن صالح بن أبي صالح، قال: سألني

بعض الناس في سنة تسعين ومائتين قبض شيء فامتنعت من ذلك، وكتبت أستطلع الرأي فأتاني الجواب: بالريّ محمّدبن جعفر العربي فليدفع إليه، فإنه من ثقاتنا.

الغيبة: في ذكر السفراء المحمودين الثقات الّذين ترد عليهم التوقيعات. الحديث ١، ثمّ ذكر الشيخ عدّة روايات متعلّقة بذلك، ثمّ قال: «ومات الأسدي على ظاهر العدالة ولم يطعن عليه، في شهر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة».

أقول: الروايات الدالة على وكالة محمّد بن جعفر الأسدي كثيرة»[١].

محمّد بن إسماعيل البرمكي

وعنه رواها الشيخ الصّدوق في «من لا يحضره الفقيه» فينطبق عليه ما تقدّم.

والنجاشيّ أيضاً نصّ على وثاقته إذ قال:

«كان ثقة مستقيماً»[٢].

وقال العلّامة الحلّي بترجمته:

«اختلف علماؤنا في شأنه، فقال النجاشي: إنه ثقة مستقيم. وقال ابن الغضائري: إنه ضعيف. وقول النجاشي عندي أرجح»[٣].

موسى النخعي

في رواية الصدوق في (العيون): «موسى بن عمران النخعي».

وفي روايته في (الفقيه): «محمّد بن عبدالله النخعي».

---

(١) معجم رجال الحديث ١٦ / ١٧٦ و ١٧٧.

(٢) رجال النجاشي: ٣٤١.

(٣) خلاصة الأقوال: ١٥٤ ـ ١٥٥.

إنّه لمّا كانت الرواية واحدة، والسند من قبل وبعد واحداً، فالرجل واحدٌ ولا تعدّد.

فيحتمل وقوع التصحيف من النسّاخ بأن كتبوا «عمران» بدلاً عن «عبدالله» ويشهد بذلك رواية الشيخ الطّوسي الزيارة الجامعة عن الصّدوق وفيها: «موسى ابن عبدالله»، حيث قال:

روى محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه قال: حدثنا علي بن أحمد بن موسى والحسين بن إبراهيم بن أحمد الكاتب قالا: حدثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي عن محمّد بن إسماعيل البرمكي قال: حدثنا موسى بن عبدالله النخعي قال قلت لعلي بن محمّد: علّمني يا ابن رسول الله قولاً أقوله بليغاً كاملاً...[1].

ويحتمل أنْ يكون «موسى» في نسخة «الفقيه» منسوباً إلى جدّه «عبدالله» فتكون النسختان صحيحتين، والرجل واحد.

وللنسبة إلى الجدّ في الكتب الروائيّة نظائر كثيرة، بل قد نجد الرجل الواحد يذكر تارةً باسمه واسم أبيه، واخرى باسمه ولقبه، وثالثةً باسمه وكنية أبيه، ورابعة باسمه واسم جدّه....

وثاقة موسى النخعي

ثم إنّ هذا الرجل من مشاهير رجال الحديث، فقد وردت الرواية عنه في مختلف كتب أصحابنا في التفسير والفقه والحديث، أمثال:

تفسير علي بن إبراهيم القمي

ومن لا يحضره الفقيه.

---

(١) تهذيب الأحكام ٦ / ٩٥.

وتهذيب الأحكام

والاستبصار

وكتاب التوحيد

وعلل الشرائع

ومعاني الأخبار

وكمال الدين

وغيرها من الكتب المعتمدة لدى الطائفة....

فهذا أمر.

الأمر الثاني:

إنّه من رجال كتاب (كامل الزيارات) وقد قال الشيخ ابن قولويه في ديباجته:

وجمعته عن الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين من أحاديثهم... ما وقع لنا من جهة الثقات من أصحابنا رحمهم الله برحمته، ولا أخرجت فيه حديثاً روي عن الشذاذ من الرجال، يؤثر ذلك عنهم عند المذكورين غير المعروفين بالرواية المشهورين بالحديث والعلم، وسمّيته كتاب كامل الزيارات...[1].

ولهذا، فقد قال السيد الخوئي بوثاقة جميع رواة الكتاب، وعلى هذا الأساس حكم بصحّة كثير من الأخبار وأفتى على طبقها في الفقه. لكنّه عدل عن ذلك أخيراً وخصّ التوثيق بالمشايخ الذين يروي عنهم ابن قولويه مباشرةً.

فبناءً على عموم التوثيق، يكون «موسى النخعي» من الثقات، لكونه من رجال كتاب كامل الزيارات.

(١) كامل الزيارات: ٣٧.

الأمر الثالث:

اعتماد الشيخ الصّدوق عليه في كتاب من لا يحضره الفقيه على ما ذكرناه سابقاً.

مضافاً إلى قوله في كتاب الوصيّة من الفقيه بعد نقل بعض الأخبار:

«وقد أخرجت الأخبار المسندة الصحيحة في هذا المعنى في كتاب (كمال الدين وتمام النعمة)»[١].

ومن جملة رواة تلك الأخبار هو «موسى بن عمران النخعي».

الأمر الرابع:

اعتماد الشيخ عماد الدين الطبري[٢] عليه، فإنه قال في مقدمة كتاب (بشارة المصطفى):

«ولا أذكر فيه إلّا المسند من الأخبار عن المشايخ الكبار وثقات الأخيار...»[٣].

ومن رواته هو «موسى بن عمران النخعي».

الأمر الخامس:

قال الشيخ ابن المشهدي[٤] في مقدمة كتابه (المزار):

«فإني قد جمعت في كتابي هذا من فنون زيارات للمشاهد المشرفات... وما

(١) من لا يحضره الفقيه ٤ / ١٨٠.

(٢) هو: من علماء الإمامية في القرن السادس.

(٣) بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ١٨.

(٤) هو: الشيخ أبو عبدالله محمّد بن جعفر بن علي المشهدي الحائري.

يلجأ إليه من الأدعية عند المهمّات، ممّا اتّصلت به من ثقات الرواة إلى السادات[١].

و«موسى النخعي» من جملة الرواة فيه.

الأمر السادس:

إن هذا الرجل من رجال تفسير علي بن إبراهيم القمي[٢]، وقد نصّ على وثاقة رجاله في أول الكتاب.

الأمر السابع:

جاء في تنقيح المقال، بعد أن ذكر أنه الراوي للزيارة الجامعة:

«وفي روايته لها دلالة واضحة على كونه إماميّاً صحيح الاعتقاد، بل في تلقين مولانا الهادي عليه السّلام شهادة على كون الرجل من الحسان مقبول الرواية لهم، وعدم ذكره في كتب الرجال غير قادح فيه[٣].

الأمر الثامن:

قال السيد الخوئي في رجاله ما نصّه:

١٢٨٤٧ ـ موسى بن عمران:

روى عن الحسين بن يزيد، وروى عنه موسى بن عمران. تفسير القمّي: سورة النحل، في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

وروى عن الحسين بن يزيد النوفلي، وروى عنه محمّد بن أبي عبدالله. الكافي: الجزء ٤، كتاب الحجّ ٣، باب استطاعة الحجّ ٣٠، الحديث ٥.

---

(١) كتاب المزار: ٢٧.

(٢) تفسير القمي ٢ / ٣٤٢.

(٣) تنقيح المقال ٣ / ٢٥٧.

ثمّ إنّه روى الكليني، عن محمّد بن أبي عبدالله، عن موسى بن عمران، عن عمّه الحسين بن عيسى بن عبدالله، عن علي بن جعفر. الروضة: الحديث ١٤١.

كذا في المرآة أيضاً، والظاهر أنّ فيه تحريفاً، فإنّ الحسين بن عيسى بن عبدالله لا يكون عمّاً لموسى بن عمران، بل عمّه الحسين بن يزيد بقرينة سائر الروايات، والصحيح: موسى بن عمران، عن عمّه الحسين، عن عيسى بن عبدالله، والله العالم.

أقول: هذا متحد مع من بعده.

١٢٨٤٨ ـ موسى بن عمران النخعي:

روى عن الحسين بن يزيد، وروى عنه محمّد بن أبي عبدالله الكوفي. كامل الزيارات: الباب (٩)، في الدلالة على قبر أمير المؤمنين عليه السّلام، الحديث ٧.

وروى عن الحسين بن يزيد عمّه، وروى عنه محمّد بن أبي عبدالله الأسدي. مشيخة الفقيه: في طريقه إلى يحيى بن عبّاد المكّي.

وروى عنه محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، الفقيه: الجزء ٤، باب الوصيّة من لدن آدم عليه السّلام، الحديث ٤٥٧، وباب نوادر المواريث، الحديث ٨١٧.

وروى عن الحسين بن يزيد النوفلي عمّه، وروى عنه محمّد بن جعفر الأسدي أبو الحسين. الفقيه: الجزء ٣، باب الرهن، الحديث ٩٠٩.

وروى عنه محمّد بن أبي عبدالله الكوفي. مشيخة الفقيه: في طريقه إلى ما كان فيه من حديث سليمان بن داود عليهما السّلام...»[١].

---

(١) معجم رجال الحديث ٢٠ / ٦٦ و ٦٧.

إستشهاد العلماء بالزيارة الجامعة

ومما يدلُّ على جلالة الزيارة الجامعة ومكانتها الكبيرة لدى كبار علماء الطائفة: استشهادهم بها في تفسير الآيات القرآنية، وبيان الأحكام الشرعية، وشرح الأخبار، ولنذكر نماذج من ذلك:

* ففي (نور الثقلين) بذيل الآية المباركة:

﴿**بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[١].

«وفي عيون الأخبار في الزيارة الجامعة للأئمة عليهم السّلام المنقولة عن الجواد عليه السّلام:

السّلام على الدعاة إلى الله... وعباده المكرمين الّذين لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[٢].

ويروي الفيض الكاشاني رحمه الله روايةً عن الإمام عليه السّلام قال:

نحن كلمة التقوى وسبل الهدى والمثل الأعلى[٣].

ثم يأتي بعبارةٍ من الزيارة الجامعة قائلاً:

وفي الزيارة الجامعة الجوادية عليه السّلام: السّلام على أئمّة الهدى... وورثة الأنبياء والمثل الأعلى[٤].

ويقول الشيخ الحويزي في (تفسيره) بذيل الآية المباركة ﴿**يَخْلُقُ ما يَشاءُ**﴾:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦ و ٢٧.

(٢) تفسير نور الثقلين ٣ / ٤٢١ وقوله: المنقولة عن الجواد. سهو.

(٣) تفسير الصافي ٤ / ١٣٠.

(٤) المصدر ٤ / ١٣٠.

وفي عيون الأخبار في الزيارة الجامعة للأئمّة عليهم السّلام: السّلام على الدعاة إلى الله...[١].

* و يقول في موضع آخر:

في عيون الأخبار في الزيارة الجامعة: خلقكم الله أنواراً وجعلكم بعرشه محدقين...[٢].

* و يقول أيضاً:

وفي الزيارة الجامعة: السّلام على أئمّة الهدى...[٣].

* و يقول بتفسير آية التطهير في أثناء ما يستدلّ به لفهم مدلولها:

وفي الزيارة الجامعة: عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن...[٤].

* ويقول في موضعٍ آخر:

فهل فصل الخطاب إلّا معرفة اللغات؟

وفيه في الزيارة الجامعة: «وفصل الخطاب عندكم»[٥].

* ويقول في موضعٍ آخر:

وفي من لا يحضره الفقيه: في الزيارة الجامعة...: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»[٦].

---

(١) تفسير نور الثقلين ٣/ ٤٢١.

(٢) المصدر ٣/ ٦٠٨.

(٣) المصدر ٤/ ١٨٠.

(٤) المصدر ٤/ ٢٧١.

(٥) المصدر ٤/ ٤٤٤.

(٦) المصدر ٥/ ٥٦٩.

* ويقول الفقيه المحدّث الشيخ الحرّ العاملي في كتاب وسائل الشيعة بعد خبرٍ رواه:

فيه دلالة على رجعة النبي صلّى الله عليه وآله والأئمّه عليهم السّلام وفي الزيارة الجامعة ما هو أوضح من ذلك...[١].

* ويروي الشيخ حسن بن سليمان الحلّي في كتاب المحتضر، عن الإمام الهادي عليه الصّلاة والسّلام:

آتاكم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين[٢].

* ويستدلّ الشيخ المجلسي في بحار الأنوار بالزيارة الجامعة، وعلى ضوئها يرجّح نسخةً على اخرى، إذ يقول:

الأصوب أن يكون «معروفين» بدل «معترفين» كما سيأتى في الزيارة الجامعة[٣].

* والشيخ الوحيد البهبهاني رحمه الله أرسل الزيارة الجامعة إرسال المسلّم، وقال عن الأئمّة الأطهار عليهم السّلام:

مع أنّهم عليهم السّلام كما ذكروا في زيارة الجامعة الكبيرة: «فجاهدتم في الله حق جهاده حتّى أعلنتم دعوته»[٤].

* ويقول الميرزا القمّي في كتابه في الفقه غنائم الأيام:

وما ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة يشملهم جميعاً[٥].

---

(١) وسائل الشيعه ١٤ / ٥٧٩.

(٢) المحتضر: ٢٦ و ٢١٩.

(٣) بحار الأنوار ٩٧ / ٢٠٤.

(٤) الرسائل الفقهيّه: ١٧٩.

(٥) غنائم الأيام ١ / ٢٦٥.

* وفي كتاب الطهارة للشيخ الأعظم قدس سرّه:

ويؤيّد العموم الرواية المشهورة الواردة في الزيارة الجامعة، لكنّها مختصة بزيارة خاصّة[١].

* ويقول الفقيه الهمداني رحمه الله في مصباح الفقيه في مبحث الأغسال المسنونة:

... أو ورد في خصوص زيارة مثل الرواية المشهورة الواردة في زيارة الجامعة الّتي يزار بها كلّ إمام، الآمرة بالغسل[٢].

* وفي الميزان في تفسير القرآن في موضع:

وفي «الفقيه» عن الهادي عليه السّلام في الزيارة الجامعة[٣].

* وفي مصباح الفقاهة في مسألة حكم من ناصب الأئمّة وأنكر إمامتهم أو حاربهم:

ويدلّ عليه أيضاً قوله عليه السّلام في الزيارة الجامعة: «ومن جحدكم كافر...»[٤].

* ويقول في موضع آخر:

... كما ورد في وجوب إطاعتهم وفي عدّة موارد من الزيارة الجامعة ذكر ذلك[٥].

---

(١) كتاب الطهارة ٢ / ٣٢٩.

(٢) مصباح الفقيه ١ ق ٢ / ٤٣٨.

(٣) تفسير الميزان ٢٠ / ٢٧٧.

(٤) مصباح الفقاهه ١ / ٥٠٤.

(٥) المصدر ٣ / ٢٨١.

* ويقول السيد الخوئي في كتاب الطهارة:

إنّ المخالف لهم كافر، وقد ورد في الزيارة الجامعة[١].

* ويستدلّ سيدنا الاستاذ الگلپايگاني قدس سرّه في مقام الاستدلال لنجاسة الكفار:

وفي الزيارة الجامعة: «من حاربكم مشرك»[٢].

* وفي كتاب صراط النجاة في موضع:

ولذا ورد في الزيارة الجامعة أنّهم الباب المبتلى به الناس[٣].

فهذا قسمٌ من استشهادات واستدلالات أكابر علمائنا في مختلف المسائل في كتبهم في الفقه والتفسير والحديث وغيرها، ولولا ثبوت الزيارة الجامعة عندهم لما كانت هذه الكثرة من الاستدلالات والاستشهادات، حتى أنّ الواحد منهم قد استشهد مراراً في كتابه بتفسير الآيات أو في بيان الأحكام، ومن البعيد جدّاً أنْ لا يقول بصحّة سند الزيارة ويكرّر الاستدلال أو الاستشهاد بشيء منها.

شروح الزيارة الجامعة

ومن ناحية أخرى، فقد لاقت هذه الزيارة إهتماماً فائقاً من قبل العلماء، فانبروا لشرحها وتوضيح معانيها، وشمّروا عن سواعدهم وبذلوا جهودهم وأوقفوا شطراً من حياتهم لتبيين مفاهيمها العالية ومعانيها الرفيعة. كلّ ذلك يعتبر قرينة قوية لإعتقادهم الراسخ ويقينهم الثابت بصحة صدور الزيارة الجامعة.

---

(١) كتاب الطهارة ٢ / ٨٤.

(٢) نتائج الأفكار في نجاسة الكفّار: ١٩٠.

(٣) صراط النجاة ٣ / ٤١٩.

وبنظرة عابرة إلى كتاب (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) القيّم، لشيخنا الجليل آقابزرگ الطهراني رحمه الله، نعلم مقدار الشروح التي دُوّنت لهذه الزيارة، حيث أحصى هذا الكتاب أكثر من عشرين شرحاً.

ومن ضمن من انبرى لهذه المهمّة علماء أعلام ذووا شأن رفيع لدى الطائفة الشيعية:

كالمجلسي الأول،

والمجلسي الثاني،

والسيد الجزائري،

والشيخ البحراني مؤلف كتاب الحدائق،

والسيّد الشبّر،

والشيخ البهائي رحمهم الله

وقد اهتم هؤلاء العظماء وغيرهم من العلماء بشرحها إما ضمن شرحهم لكتابي تهذيب الأحكام ومن لا يحضره الفقيه، أو بتخصيص شروح مستقلّة لها.

الزيارة الجامعة غنيّة عن السند

وعلى الرغم من كلّ الأدلة التي أوردناها آنفاً بخصوص صحّة سند الزيارة الجامعة، فإننا نودّ أن نثبت ذلك من جهة أخرى، فنقول:

إننا نجد أنفسنا أحياناً في غنىً عن إثبات نسبة كلامٍ من نثرٍ أو شعرٍ إلى قائله، لمعرفتنا بطريقة كلام القائل، وأُسلوبه الرفيع، ومستواه الفكري والعلمي، وأدبه وفصاحته وبلاغته.

فكذلك الكلمات المرويّة عن أحد الأئمّة من أهل العصمة والطهارة، من

الأخبار والأدعية والزيارات، فإنّ العلماء بأساليب الأئمّة، العارفين بمنازلهم في العلم والفصاحة والبلاغة، يدركون أن كلماتهم تفصح عن معينٍ ثرٍّ لا يتأتى من غيرهم من البشر البتة. عندئذٍ تراهم في غنىً عن الخوض في سند الكلام، ليقينهم بصدوره عن الإمام المعصوم عليه السّلام.

نأخذ نماذج على ما قلناه، دعاء كميل، ودعاء الصباح، للإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، ودعاء عرفة للإمام الحسين عليه السّلام، فإن من له أدنى أنس بكلماتهم يعلم يقيناً بصدور هذه الأدعية عن مقام العصمة، سواء كان لها سند أوْلا.

وهذا ما حصل لبعض أكابر علماءنا الأعلام حينما سئل عن سند بعض الروايات أو الأدعية أو الزيارات. فالشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء رحمه الله صرّح بخصوص دعاء الصّباح ـ وهو أحد الأدعية المروية عن أمير المؤمنين ـ بقوله: قوة متنه يكشف عن قطعيّة صدوره عن المعصوم[١].

وإنّ هذه الكبرى لتنطبق على الزيارة الجامعة. وعلى هذا الأصل بنى الفقيه المحدّث السيد عبدالله شبّر رحمه الله الخبير بكلام أهل البيت عليهم السّلام حينما يتحدّث عن الزيارة الجامعة فيقول:

«إن فصاحة ألفاظها وفقراتها، وبلاغة مضامينها وعباراتها، تنادي بصدورها عن عين صافية نبعت عن ينابيع الوحي والإلهام...»[٢].

هذا كلّه، مضافاً إلى أن أكثر مضامينها ومفاهيمها قد ورد في روايات معتبرةٍ عن أهل البيت الأطهار، بل إن كثيراً منها وارد في كتب العامّة بأسانيدهم عن

(١) الفردوس الأعلى: ٧٦.

(٢) الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة: ١٨.

النبي صلّى الله عليه وآله أو عن بعض صحابته، فإن ذلك أيضاً ممّا يورث اليقين بصدور هذه الزيارة عن مقام العصمة.

الزيارة الجامعة في كلمات الأكابر

ولا بأس بإيراد بعض الكلمات بشأن الزيارة الجامعة:

فمن ذلك كلام المولى محمّد تقي المجلسي رحمه الله، فإنه قال:

«ولمّا وفّقني الله تعالى لزيارة أمير المؤمنين عليه السّلام شرعت في حوالي الروضة المقدّسة في المجاهدات، وفَتَحَ الله عليَّ ببركة مولانا صلوات الله عليه أبواب المكاشفات التي لا تحتملها العقول الضعيفة، رأيت في ذلك العالم -وإن شئت قلت: بين النوم واليقظة- عند ما كنت في رواق عمران جالساً، أنّي بِسُرَّ من رأىٰ، ورأيت مشهدها في نهاية الإرتفاع والزينة ورأيت على قبريهما لباساً أخضر من لباس الجنّة، لأنه لم أر مثله في الدنيا، ورأيت مولانا مولى الأنام صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه جالساً ظهره على القبر ووجهه إلى الباب، فلمّا رأيته شرعت في الزيارة الجامعة بالصّوت المرتفع كالمدّاحين، فلمّا أتممتها قال عليه السّلام: نعمت الزيارة.

قلت: مولاي، روحي فداك، زيارة جدّك، وقد أشرت إلى نحو القبر.

قال: نعم، أدخل...[1].

وقال رحمه الله بشرح الزيارة من كتابه (روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه):

---

(١) لوامع صاحبقراني ٨ / ٦٦٤.

والحاصل: إنه لا شك لي أن هذه الزيارة من أبي الحسن الهادي سلام الله عليه بتقرير الصّاحب عليه السّلام، وأنها أكمل الزيارات وأحسنها، بل بعد تلك الرؤيا، أكثر الأوقات أزور الأئمّة عليهم السّلام بهذه الزيارة، وفي العتبات العاليات ما زرتهم إلّا بهذه الزيارة»[١].

وهذه حكاية فريدة من نوعها ومكاشفة جليلة قد حصلت لهذا العالم الجليل، ولا ينالها إلّا ذو حظ عظيم.

وهذا كلام صادر عن عَلَمٍ من الأعلام ألا وهو المجلسي الأول رحمه الله وله شأن عظيم في الطائفة. وحسبما أفصح عنه، فالزيارة الجامعة أكمل الزيارات وأحسنها، وهي ليست من اختلاق البعض أو قد لفّقها أحد ثم نسبها إلى الإمام الهادي عليه السّلام.

ومن ذلك: كلام المولى محمّد باقر المجلسي الثاني رحمه الله، فيقول في نفس الصدد:

«وإنما بسطت الكلام في شرح تلك الزيارة قليلاً وإن لم أستوفِ حقّها حذراً من الإطالة، لأنها أصحّ الزيارات سنداً وأعمّها مورداً وأفصحها لفظاً وأبلغها معنىً وأعلاها شأناً»[٢].

وهي شهادة أخرى من عَلَمٍ خبير في معرفة الروايات والأدعية والزيارات، وليس لمنصفٍ فيه ملمز ولا مهمز، وهو حجة عندنا وليس لنا من محيص في الإذعان بإخلاصه وخدماته والأخذ عنه في هذه الموارد.

---

(١) روضة المتّقين ٥ / ٤٥٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١٤٤.

ومن العلماء الذين أدلوا بدلوهم في هذه القضية وهو أهل لذلك: السيد عبدالله شبر الآنف الذكر، وكان معاصراً للعلامة المجلسي رحمه الله والسيد نعمة الله الجزائري رحمه الله، وهؤلاء في طبقة واحدة من الشأنية والمكانة. يقول رحمه الله في هذا المجال:

«إن زيارة الجامعة الكبيرة من أعظم الزيارات شأناً وأعلاها مكانة ومكاناً، وإنّ فصاحة ألفاظها وفقراتها وبلاغة مضامينها وعباراتها تنادي بصدورها من عين صافية نبعت عن ينابيع الوحي والإلهام، وتدعو إلى أنها خرجت من ألسنة نواميس الدين ومعاقل الأنام، فإنها فوق كلام المخلوق وتحت كلام الخالق الملكِ العلّام، قد اشتملت على الإشارة إلى جملةٍ من الأدلة والبراهين المتعلقة بمعارف أصول الدين وأسرار الأئمّة الطاهرين ومظاهر صفات رب العالمين، وقد احتوت على رياض نضرة وحدائق خضرة، مزينة بأزهار المعارف والحكمة، محفوفة بثمار أسرار أهل بيت العصمة، وقد تضمّنت شطراً وافراً من حقوق أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم وأهل البيت الذين حثّ الله على متابعتهم، وذوي القربى الذين أمر الله بمودّتهم، وأهل الذكر الذين أمر الله بمسألتهم، مع الإشارة إلى آيات فرقانيّة وروايات نبويّة وأسرار إلهيّة وعلوم غيبيّة ومكاشفاتٍ حقيّة وحكم ربانيّة...»[1].

وهكذا هو شأن علمائنا الأعلام في كلّ ما يقولونه في الموارد المختلفة، فإن كلامهم يخرج موزوناً ودقيقاً، سواء كان مدحاً أو ذمّاً، نهياً أو أمراً، كتاباً أو رواية وحديثاً، فهم عرفاء حكماء يعون ما يقولون. ومن هذا المنطلق يأتي كلام السيّد عبدالله شبّر في وصف الزيارة: «فإنها فوق كلام المخلوق وتحت كلام الخالق».

---

(١) الأنوار اللّامعة في شرح الزيارة الجامعة: ١٨.

ثم يعطف على ذلك بقوله:

«إشتملت على الإشارة إلى جملة من الأدلّة والبراهين المتعلّقة بمعارف أصول الدين».

محصّل هذه الكلمات

مثل هذه التفريظات الصّادرة في حق الزيارة الجامعة تكشف عن نهجين:

١ ـ إثبات هذه الزيارة وتأصيلها بما يكشف عن حقائق مضامينها، وقد بذلنا الجهد مع ما نحن عليه من فهم قاصر لتوضيح وتبيان جوانب من هذه الحقائق.

٢ ـ دفع أوهام البعض ودحض ما قد يثار عن جهلٍ من أنّ الزيارة الجامعة تحتوي على مضامين تغالي في شأن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

ولذلك انبرى المحدّث القمي بإيراد قول المعصوم بما يلزم على الزائر تلفظه قبل الشروع بقراءة الزيارة:

«عن موسى بن عبدالله النخعي أنه قال للإمام علي النقيّ عليه السّلام....

فقال: إذا صرت إلى الباب... فإذا دخلت ورأيت القبر فقف وقل: الله أكبر ثلاثين مرّة...، ثم قف وكبّر الله ثلاثين مرّة، ثم ادن من القبر وكبّر الله أربعين مرّة، تمام مائة تكبيرة».

ثم يعلّق المحدّث القمي على ذلك بقوله:

«ولعلّ الوجه في الأمر بهذه التكبيرات هو الاحتراز عمّا قد تورثه أمثال هذه العبارات الواردة في الزيارة من الغلوّ والغفلة عن عظمة الله سبحانه وتعالى، فالطباع مائلة إلى الغلو، أو غير ذلك من الوجوه»[1].

---

(١) مفاتيح الجنان: ٥٤٤.

وهذا ما نشهده اليوم من بعض المتخرصين من أن الزيارة الجامعة فيها غلوّ بشأن الأئمّة.

والبعض الآخر راح يصنّف الشيعة إلى صنفين:

١ ـ الشيعة المغالون.

٢ ـ الشيعة المعتدلون.

وحسب تصنيف هؤلاء، فالذين لا يعتقدون بالزيارة الجامعة ومفاهيمها، شيعة وإن أنكروها، وأما من يعتقد بها ويقرؤها فهم الغلاة.

من هنا نجد أن الأمر يتطّلب الكلام عن الغلو كأحد بحوثنا التمهيديّة:

لا غلُوٌّ ولا تقصير

❊ الغلوّ في اللغة

❊ الغلوّ كما في الروايات

❊ الاعتدال بين الغلوّ والتقصير

❊ كلام الشيخ المجلسي في الغلوّ

ما هم الغلو؟

وإن المسلَّم به -تاريخياً وعقائدياً- أن الأئمّة عليهم السّلام كانوا يطردون الغلاة ويكفّرونهم ويبرءون منهم، وكانوا يحذّرون شيعتهم -على الدّوام- من الإتصال بهم والاستماع إليهم.

وإنك لتجد في مصنفات علماءنا الحديثيّة والكلامية أبواباً خاصّة في بحوث الإمامة تحت عنوان «نفي الغلوّ في النبي والأئمّة عليهم السّلام».

قال الراغب:

«الغلوّ تجاوز الحدّ، يقال ذلك إذا كان في السّعر: غَلاء. وإذا كان في القدر والمنزلة: غلوّ...»[1].

وقال ابن منظور:

«غلا في الدّين والأمر يغلو غُلُوّاً: جاوز حدَّه. وفي التنزيل: ﴿**لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾. غلوت في الأمر غُلُوّاً وغلانية وغلانياً، إذا جاوزت فيه الحدّ وأفرطت فيه»[2].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٦٤.

(٢) لسان العرب ١٥ / ١٣٢.

الغلو كما جاء في الروايات

ومن جملة المصنفات التي أوردت روايات كثيرة وخطيرة في نفي الغلوّ في النبي والأئمّة عليهم السّلام كتاب (بحار الأنوار).

ومن الأخبار المرويّة فيه:

ما عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى إتخذني عبداً قبل أنْ يتخذني نبيّاً»(١).

يُفهم من هذا النص أن بعض من عاصر النبي الأكرم كان يعتقد بألوهيّته صلّى الله عليه وآله، ويتضح أيضاً من هذه الرواية معنى الغلو.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام يقول فيها:

«أللهم إني بريءٌ من الغلاة كبرائة عيسى بن مريم من النصارىٰ، أللهم أخذلهم أبداً ولا تنصر منهم أحداً»(٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام الثاني عشر صاحب الزمان ـ عليه السّلام ـ إنه قال:

«تعالى الله عزّوجلّ عمّا يصفون، سبحانه وبحمده، ليس نحن شركائه في عمله ولا في قدرته...»(٣).

وكذلك رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام أنه قال:

«إياكم والغلوّ فينا، قولوا: إنّا عبيد مربوبون وقولوا في فضلنا ما شئتم...»(٤).

---

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ١٣٤ و ٢٦٥ و ٢٧١.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٦٦ ـ ٢٨٤ و ٧٦ / ٢٢٦.

(٣) الصحيفة الهادية والتحفة المهدوية: ٢٣٥.

(٤) بحار الأنوار ١٠ / ٩٢ و ٢٥ / ٢٧٠.

ورغم أننا سنذكر بيان الشيخ المجلسي في ذلك، فإن هذه الروايات تمنحنا معياراً نسير على نهجه.

ويقول الإمام الرضا عليه السّلام في بيان آخر:

«فمن ادّعى للأنبياء ربوبيّة، أو ادعى للأئمة ربوبيّة أو نبوّة، أو لغير الأئـمّة إمامة، فنحن برآء منه في الدنيا والآخرة...»[١].

«وإياكم والغلوّ كغلوّ النصارى، فإني بريءٌ من الغالين»[٢].

وينقل أحدهم للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السّلام عقيدة الغلاة، فيقول:

«يابن رسول الله، فإنّ معي من ينتحل موالاتكم ويزعم أن هذه كلّها صفات عليٍّ عليه السّلام وأنه هو الله ربّ العالمين.

فلمّا سمعها الرضا عليه السّلام ارتعدت فرائصه وتصبّب عرقاً وقال:

سبحان الله عمّا يقول الظالمون الكافرون علوّاً كبيراً، أوَ ليس كان عليّ عليه السّلام آكلاً في الآكلين وشارباً في الشاربين؟!»[٣].

بلى، كان عليه السّلام إنساناً كباقي الناس يأكل ويشرب....

وهناك روايات أخرى في هذا المجال حَرِيَّةٌ بالمراجعة والإتعاظ بها.

الإعتدال بين الغلو والتقصير

ولكي نكون على معرفة بالأئمّة عليهم السّلام، لابدّ لنا من استقصاء كلماتهم حتى نتفهّم مراتبهم التي رتبهم الله فيها، دون أن نقع في متاهات الغلو أو نضلّ في

---

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ١٣٤ و ٢٧١.

(٢) بحار الأنوار ٤ / ٣٠٣ و ٢٥ / ٢٧٣ والاحتجاج ٢ / ٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٧٣.

مرديات التقصير، لأن كليهما حرام.

وهذا ما نجده في خطاب الإمام أبي جعفر الباقر عليه السّلام لأبي حمزة الثمالي إذ قال له:

«يا أباحمزة، لاتضعوا عليّاً دون ما وضعه الله، ولاترفعوه فوق ما رفعه الله»[١].

وفي رواية أخرى يقول عليه السّلام:

«فإن الغلاة شرّ خلق الله، يصغّرون عظمة الله، ويدّعون الربوبيّة لعباد الله، والله، إنّ الغلاة لَشرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا»[٢].

وهناك نصّ آخر عنه عليه السّلام في هذا الصّدد، يعطينا مناراً نستدلّ به في بعض البحوث، يقول فيه عليه السّلام:

«كان عليّ عليه السّلام ـ والله ـ عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله[٣] ما نال الكرامة من الله إلّا بطاعته لله ولرسوله...»[٤].

فأيّ كرامة هذه التي نالها أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام بعبوديته وعبادته وطاعته لله جلّ وعلا؟

فاتّضح لنا من خلال الروايات الآنفة الذكر وأمثالها مواقف الأئمّة عليهم السّلام المتشددة في مواجهة ضلال الغلاة وخطر الغلو.

ومن خلال ذلك أيضاً تبيّن معنى الغلوّ بما فيه من تأليه النبيّ والاعتقاد بنبوّة

---

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٣ و ٣٩ / ٣٠٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٦٥ و ٢٨٤.

(٣) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٦٥ و ٢٨٤.

(٤) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٦.

أو ألوهيّة الإمام، أي أنْ يتجاوز الإنسان الحدّ في منزلة النبي والإمام، بأن يعتقد أكثر مما هو للنبي أو الإمام، أو يقول بأنه شريك لله.

والخلاصة هي: إن الأئمّة والنبي ليسوا بآلهة ولا شركاء لله سبحانه ولا حلّ فيه ولاآتحدوا. والإعتقاد بشيء من هذه المفاهيم هو مصداق للغلو في النبي والإمام.

فهم في الوقت الذي يأمروننا أن نقول: «هم عبيد مربوبون» يقولون:

«قولوا فينا ما شئتم».

وهم في الوقت الذي ينهوننا عن أنْ نقول: «هم أرباب» يقولون:

«قولوا فينا ما شئتم».

ثم يقولون: «لن تبلغوا» أي: لا يمكننا درك واقع شأنهم ومنزلتهم عند الله!

لقد عرّفوا أنفسهم في الزيارة الجامعة بأنهم:

«عباده المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

وهذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ـكما سيأتي في محلّه ـ حيث يقول تعالى:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(١).

وخلاصة الكلام: إنه مع حفظ صفتي العبودية والمخلوقية للأئـمة عـليهم السّلام، لنا أن نقول فيهم ما نشاء.

ولنتسائل: ما هي الكرامة الممنوحة من الله جلّ وعلا؟ وأيّ منزلة هذه التي حظي بها هؤلاء السّادة، بحيث أصبحوا «لا يفعلون إلّا ما يُؤمرون»؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦ و ٢٧.

وجاء في رواية صحيحة -بل هي متواترة من طرق الخاصّة والعامة- عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه قال في علي عليه السّلام إنه:

«لا يفعل إلّا ما يؤمر به»[١].

فنحن لسنا مغالين، بل نُهينا عن الغلو بأن نقول: إنَّ الإمام نبيّ، فضلاً عن قولنا: إنه ربّ.

إن الذي نقوله هو: أن الأئمّة عباد الله، حازوا على مقامٍ عند الله، وبلغوا شأناً من الشأن لم ولن يبلغه أحد من العالمين.

أُنشدِكم بالله، هل في هذا غلوّ؟

أين محلّ الغلوّ في شخص إذا بلغ على أثر عبوديته لله أن يمنحه الله تعالى كلّ هذا الدنوّ والإقتراب من العليّ الأعلى؟

كلام الشيخ المجلسي في الغلوّ

وبعد ما ينقل الشيخ المجلسي بعض الروايات في الغلوّ، يعرّج على آراء بعض العلماء في الغلوّ فيقول:

قال الشيخ الصّدوق رحمه الله:

إعتقادنا في الغلاة والمفوّضة: أنهم كفّار بالله جلّ جلاله، وأنّهم شرّ من اليهود والنصارىٰ والمجوس....

وإعتقادنا في النبي والأئمّة عليهم السّلام أن بعضهم قتلوا بالسيف، وبعضهم بالسّمّ، وأن ذلك جرىٰ عليهم في الحقيقة وأنهم ما شبّه أمرهم...»[٢].

---

(١) المعجم الأوسط ٦ / ١٦٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ١٩١، كنز العمال ١١ / ٦١٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤٢.

من هذا النصّ نعلم أن مثل هذا الكلام كانت تتناقله بعض الألسن أيضاً في تلك الأزمنة، فالقرآن الكريم ينقل لنا قصّة عيسى عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ❋ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١].

وفي الواقع، فإن الأئمّة عليهم السّلام كان يُقتلون حقّاً، إذ كانوا بشراً يعتريهم الموت والحياة مثل سائر أفراد البشر، والغلو في هذا الأمر ممنوع.

ثم يسترسل شيخنا المجلسي في كلامه، فينقل كلام الشيخ المفيد ويعلّق عليه فيقول:

«إعلم أنّ الغلوّ في النبيّ والأئمّة عليهم السّلام إنما يكون بالقول بألوهيّتهم أو بكونهم شركاء لله في العبوديّة أو في الخلق والرزق، أو أن الله تعالى حلّ فيهم أو إتَّحد بهم و... القول بأنهم كانوا أنبياء... أو القول بأنّ معرفتهم تُغني عن جميع الطاعات، ولا تكليف معها بترك المعاصي. والقول بكلّ منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين، كما دلّت عليه الأدلة العقليّة والآيات والأخبار السالفة وغيرها...»[٢].

ثم يضيف بعد تعريفه للغلوّ قائلاً:

«ولكن أفرط بعض المتكلّمين والمحدّثين لقصورهم عن معرفة الأئمّة، وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم، فقدحوا في كثير من الرواة الثقات، لنقلهم بعض غرائب المعجزات حتى قال بعضهم: من الغلوّ نفي السّهو عنهم، أو القول بأنّهم يعلمون ما كان وما يكون وغير ذلك»[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٧ و ١٥٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤٦.

(٣) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤٧.

وفي ذلك إشارة منه رحمه الله إلى رأي الشيخ الصّدوق فيما يخصّ سهو النبي صلّى الله عليه وآله، وهو رأي أفرط فيه الصّدوق رحمه الله نتيجة عدم تمكّنه من حلّ بعض الأخبار المشكلة.

ولابدّ من القول أننا قد تطرّقنا في بحوثنا عن العصمة لنظرية الشيخ الصّدوق رحمه الله نقداً وتحليلاً، وقلنا هناك:

إذا كان الشيخ الصّدوق رحمه الله يقول بأن نفي السهو عن المعصوم غلوّ، فهذا الكلام في الواقع سهو من نفس الشيخ الصّدوق رحمه الله، ورغم أننا نكنّ له كامل الإحترام والتقدير والتجليل، إلّا أننا لا نقلّد أحداً في هذا المضمار، لأنّ العقائد تدور حول الأدلّة القطعيّة العقلية والنقلية.

وعلى الرغم من معرفة الشيخ المجلسي رحمه الله بمكانة الشيخ الصّدوق رحمه الله وعلوّ شأنه أكثر منّا، مع كلّ ذلك فهو يصفه بقوله الآنف:

«أفرط بعض المتكلّمين والمحدّثين لقصورهم...».

على هذا الأساس، فإن اعتقادنا بالأئمّة هو أنهم «يعلمون ما كان وما يكون». وإذا ما قال أحد: هذا غلوّ، فإنه مخطئ، بل إن الأمر أرفع مما يتصوّر، وأعلى ممّا يطيق، وهو ما أراده المعصوم عليه السّلام بقوله:

«لا تقولوا فينا ربّاً، وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا...»[1].

قال: «ولنْ تبلغوا»، لقصور عقولنا عن فهم مراتب ومنازل الأئمّة عليهم السّلام كما نقرأ في رواية أخرى:

«إنّ أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد

---

(١) بحار الأنوار ٢٥/ ٣٤٧.

مؤمن إمتحن الله قلبه للإيمان»[١].

ثم يقول شيخنا المجلسي:

«فـلابدّ للـمؤمن المـتديّن أن لا يـبادر بـردّ مـا ورد عـنهم مـن فـضائلهم ومعجزاتهم ومعالي أُمورهم، إلّا إذا ثبت خلافه بضرورة الدين أو بقواطع البراهين أو بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة...»[٢].

فإذا ما ورد عن رواتنا الثقاة وفي تضاعيف مصنفاتهم أخبار عـن مـراتب وفضائل ومعاجز وعظمة شأن الأئمّة عليهم السّلام، فلا ينبغي للمؤمن المتدين أن يردّ ذلك أو ينفيه حتى وإن لم يدركه في عقله.

وإنما خصصنا المؤمن المتدين بـالذكر، احـترازاً عـن غـير المـتدين الذي لا يتقيّد بميزانٍ علميٍّ ولا بمعيارٍ عقليٍّ، وإنما يطلق آراءه حسبما يملي عليه هواه أو بمقدار عقليّته المحدودة، هذا إذا لم يكن هناك تأمل وشك في إيمانه. وهذا ما نجده في بعضهم من الذين يطلقون آراءهم بتكذيب أو إنكار مطالب لم تستوعبها عقولهم، أو لا تنسجم مع أمزجتهم، وهـذا مـا لا يـتناسب مـع الإيـمان والتـديّن والمعرفة التي تقتضيها رواياتنا.

أقول: إننا أمام محذورين كلاهما حرام:

الأول: محذور الغلو.

والثاني: محذور التقصير.

والمطلوب منّا أن لا نكون في المقصّرين ولا من المغالين. أي: أن لا نكون ممّن يدّعي للأئمة فوق ما هم عليه، ولا ممّن يغمطون حقّهم بأقلّ مما يستحقّونه.

---

(١) بحار الأنوار ٢ / ٧١.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤٦.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، أن لا نتقوّل الكذب على الأئمّة، فكلامهم «قولوا فينا ما شئتم» لا يعطي المبرّر بأن نطلق ألسنتنا بتقول الكذب عليهم، أو ننسب إليهم ما هو عارٍ من الدليل ويخالف الواقع، ذلك لأن عبارة «قولوا فينا ما شئتم» مقيّدة بما دلّ على حرمة الكذب والقول من غير علم ولا هدى، فلو أن أحداً أخبر ـ مثلاً ـ أن الإمام عليه السّلام، كان يُطعم المساكين في شهر رمضان بالآلاف في كلّ ليلةٍ، فهو مفترٍ كذّاب.

إذن، فما على المؤمن إذا ما أراد مدح الأئمّة إلّا أنْ ينقل ما ورد في حقّهم صحيحاً ولا تمنعه الأدلّة القطعيّة، وإن لم يستوعبه إدراكه العقلي.

المعرفة الحقيقية

إننا نعتقد أن خير ما يوصلنا إلى معرفة شخص معيّنٍ معرفةً حقيقيةً بعلمه وفضله وتقواه ـ مثلاً ـ هو السّماع من نفس ذلك الشخص كما ذكرنا سابقاً، لأن المفروض كونه صادقاً في الكلام، لاأن يلفّق له الناس فضائل ومناقب لم تعرف عنه في حياته، أو يختلقون له أُموراً على لسان أُناسٍ من الأموات.

تأسيساً على هذا الأصل، فإن أفضل من يحكي لنا ما يعرّفنا معرفةً حقيقيّةً بالنبي والأئمّة من آله صلوات الله عليهم أجمعين، ذواتهم المقدّسة وألسنتهم الصّادقة التي لا تنطق عن الهوىٰ، وإلّا، ألا يلزم أن يكون المعرِّف أعلى من المعرَّف؟ فمن هو أرفع منهم وأعلى؟

من هنا، فلابدّ من إرجاع كلّ ما جاءنا بهذا الصّدد ـ عن طريق الأساتذة والمشايخ وكبار الرواة والمحدّثين ـ إلى أهل العصمة أنفسهم، ونطبّقه على ما صدر عنهم عليهم السّلام، وهذا مصداق «قولوا ما فينا شئتم» وهو الجادّة الوسطى بين الغلوّ والتقصير.

الخاتمة

في محاور الزيارة الجامعة

إنه بالتأمّل في نصّ الزيارة الجامعة البليغ، تظهر لنا محاورها الأساسية التالية:

١ ـ السّلام

فواضح أن أوّل عمل يؤديه الداخل على شخصٍ مّا هو السّلام.

ولا شك في أن السّلام على المعصوم يختلف عن السّلام على غيره، كما سنوضّح ذلك لاحقاً، لما تحتويه عبارات الزيارة من خصوصياتٍ تفرّد بها أهل البيت عليهم السّلام دون غيرهم، وفي هذه الحالة لابدّ أن نؤدي السّلام عليهم بما تعلّمناه منهم.

٢ ـ الشهادتان

وهما ما نقرّ به بعد السّلام عليهم:

شهادة أن لا إله إلّا الله.

والشهادة برسالة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله.

٣ ـ الشهادة الثالثة

وهي ما نشرع بها بقولنا:

«وأشهد أنكم الأئمّة الراشدون المعصومون المكرّمون المقرّبون...».

وهذه الشهادة غير شهادتنا بولاية الإمام علي عليه السّلام التي في الأذان والإقامة بقولنا: «أشهد أنّ عليّاً وليُّ الله»، بل هي شهادة بولاية ومراتب وفضائل ومناقب أهل البيت عليهم السّلام الكثيرة.

٤ ـ الإقرار العقائدي أمام المعصوم

حيث نقوم لدى الزيارة بعرض معتقداتنا على الأئمّة عليهم السّلام.

٥ ـ الدعاء والتوسّل

فبعد عرض المباني العقائدية والإقرار بها أمام الإمام عليه السّلام، نشرع بالتوسّل وطلب العون منه، ونجعله شفيعاً فيما بيننا وبين الله سبحانه وتعالى.

إذن، لمّا حصلنا على إذن الدخول، نؤدّي السّلام، ونقرّ بالشهادتين، ثم نشهد الشهادة الثالثة، ثم نعرض اعتقاداتنا ومبادئنا الحقّة، وأخيراً نتوجه بالمعصوم عليه السّلام إلى الله وجيهاً وشفيعاً لنا عنده جلّ وعلا.

هذه هي المحاور الأساسية للزيارة الجامعة.

فكتابنا يقع في أقسام:

القسم الأوّل

السّلام على الأئمّة

عن علمٍ ومعرفة

السَّـــلاَمُ عَـــلَيْكُمْ

يَا أَهْلَ بَـيْتِ النُّـبُوَّةِ وَ مَـوْضِعَ الرِّسَـالَةِ
وَ مُـــخْتَلَفَ الْـمَلاَئِكَةِ وَ مَـهْبِطَ الْـوَحْيِ
وَ مَعْدِنَ الرَّحْمَةِ وَ خُزَّانَ الْـعِلْمِ وَ مُـنْتَهَى
الْـحِلْمِ وَ أُصُـولَ الْكَـرَمِ وَ قَـادَةَ الْأُمَـمِ
وَ أَوْلِـيَاءَ النِّـعَمِ وَ عَـنَاصِرَ الْأَبْـرَارِ
وَ دَعَـائِمَ الْأَخْـيَارِ وَ سَـاسَةَ الْـعِبَادِ
وَ أَرْكَـانَ الْـبِلاَدِ وَ أَبْـوَابَ الْإِيـمَانِ
وَ أُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ وَ سُلاَلَةَ النَّبِيِّينَ وَ صَـفْوَةَ
الْمُرْسَلِينَ وَ عِـتْرَةَ خِـيَرَةِ رَبِّ الْـعَالَمِينَ
وَ رَحْـمَةُ اللَّـهِ وَ بَـرَكَـاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ

من آداب الدخول في أي مكان، السّلام، قال تعالى:

﴿يٰا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وورد في آية أُخرى:

﴿فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَكَةً طَيِّبَةً﴾[2].

وحينما نفوز بشرف الحضور عند الإمام المعصوم، فلابدّ من أداء الاحترام بالسّلام عليه، لكنّ أداء الاحترام للمعصوم يتطلّب آداباً تمتاز عن باقي الأماكن والأشخاص، لذا كان من اللّازم تعلّم هذه الآداب كما علّمنا الأئمّة الهداة عليهم السّلام تلطّفاً منهم علينا.

فكيف نسلّم على الإمام؟ وبأيّ عبارات نخاطبه حتى يكون مناسباً لخصوصيّات الزمان والمكان الذي نحضر فيه؟

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٧.

(٢) سورة النور، الآية: ٦١.

ما هو السّلام؟

فالسّلام إسم من أسماء الله الحسنىٰ، حيث ورد في القرآن الكريم:

﴿هُوَ اللّٰهُ الَّذي لٰا إِلٰهَ إِلّاٰ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلٰامُ...﴾(١).

ومن أسماء الجنّة: دار السّلام، قال تعالى:

﴿وَاللّٰهُ يَدْعُوا إِلىٰ دٰارِ السَّلٰامِ﴾(٢).

وذلك، لأنّ السّلامة الحقيقيّة ليست إلّا في الجنّة، إذ فيها بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر وعزّ بلا ذلّ وصحّة بلا سقم(٣).

و«السّلام» هو «السّلامة» وقد يتعدّى بـ«على» كقوله تعالى: ﴿سَلٰامٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ﴾(٤) وقد يعدّى بـ«اللّام» كقوله تعالى: ﴿فَسَلٰامٌ لَكَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمينِ﴾(٥).

والسّلام نوع من التحيّة، قال تعالى:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلٰامٌ...﴾(٦).

ويراد من السّلام التأليف بين القلوب وإظهار المحبّة والصّفاء والمسالمة.

ثم إنه قد يراد السّلام من الله فيقال: سلام الله عليكم، فإنْ كان الخطاب للإمام عليه السّلام، فذاك إشارة إلى منازله الجليلة عند الله، وإنْ كان الخطاب لسائر الناس، فالمراد الدعاء بالسّلامة من الله له.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٢٣٩.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ١٩.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٤٤.

إنّ كلّ عمل يؤدّي فيه الإنسان الإحترام للآخرين سواء كان كلاماً جميلاً أو حركةً كوضع اليد على الصدر، أو على الرأس، أو القيام إحتراماً لقادم، أو بتقديم طاقة ورد، ينطبق عليه عنوان التحيّة.

فالنسبة بين السّلام والتحيّة هي العموم والخصوص، فكلّ سلام تحيّة، وليس كلّ تحيّة سلاماً.

ولكنّ السّلام تحيّة أهل الجنّة بعضهم لبعض، قال تعالى:

﴿إِذٰا جٰاؤُهٰا وَفُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَقٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدينَ﴾[1].

وفي آية أخرى:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ﴾[2].

فلذا جعل «السّلام» شعار المسلمين في دار الدنيا، لما فيه من الدلالات المعنوية الكبيرة والآثار الاجتماعية الكثيرة.

ومن هنا، فقد شرّعت في الشريعة المقدّسة للسّلام ـ دون غيره من أنواع التحيّة ـ أحكامٌ كُلّف المؤمنون بها وبعضها إلزاميٌّ يعاقب على تركه.

يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ

يا: حرف نداء، وينادى به القريب والبعيد كما نصّت عليه كتب اللغة والنحو.

وعليه، يمكن زيارة الأئمّة المعصومين بالزيارة الجامعة من قريب أو بعيد، رغم أن الزيارة بحضور الروح والجسد عند المعصوم أفضل كما ذكرنا من قبل.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٤.

المقصود من «أهل البيت»

ثم إنّ عنوان «أهل البيت» أصبح مصطلحاً في الكتاب والسنّة، وعَلَماً بين المسلمين للنّبي والمعصومين من أهله عليهم الصّلاة والسّلام.

لقد اتخذ عنوان «أهل البيت» في القرآن والسنة صفة اصطلاحية.

فبالرغم من أن القرآن نزل بلسانٍ عربيّ مبين، إلّا أن له خطاباً خاصّاً ينفرد به وأُسلوباً متميّزاً، ومن جملة مفردات الخطاب القرآني الخاصّ، مصطلح «أهل البيت»، فقد انحصر كتاباً وسنّةً بالرسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليٍّ المرتضى والصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزهراء والأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

لقد استوفى هذا المصطلح حقّه بالبحث والدراسة مِن قبل المحقّقين في مواضعه الخاصّة به. وقد تناولنا طرفاً من ذلك في ذيل آية التطهير في كتابنا الكبير (نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار)(١).

ونتعرّض هنا لبعض ما ذكرناه هناك، ونحيل التفصيل إلى موضعه، فنقول:

ربّما يقال ـ كما عن بعض أهل السنّة ـ أن المراد هم الأشخاص الذين كانوا يسكنون في بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله، حتىٰ النساء والجواري والغلمان، وذلك، لأن كلمة «الأهل» أُطلقت في القرآن الكريم على الزوجة وحدها، إذ قال تعالى في قصّة موسى عليه السّلام:

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾(٢).

---

(١) نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ٢٠ / ٧٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.

ونحن نعلم أنه لم يكن مع موسى إلّا زوجته، وقد أُطلقت كلمة «الأهل» وليس المراد غيرها، مضافاً إلى أن هذه الكلمة تأتي في اللّغة بمعنى الزوجة وسكّان الدار.

إنا لا ننكر هذا، ولكنّ الكلام في عنوان «أهل البيت» المركّب من «الأهل» و«البيت»، فإنّا ـ على ضوء الكتاب والسنّة وخاصّةً آية التطهير وما ورد بذيلها صحيحاً، وكذا سائر الاستعمالات من الأئمّة والصّحابة والتابعين وعموم المسلمين نظماً ونثراً ـ نقول:

إنّ المقصود من «أهل البيت» متى ما أُطلق ليس المعنى اللّغوي، بل لقد أصبح عَلَماً أو لقباً ذا مصداقيّة حصريّة، لأنا لم نجد في الكتاب والسنّة وسائر الاستعمالات الصحيحة مصداقاً له إلّا محمّداً وآل محمّد، ونكتفي هنا بشاهدين:

أحدهما: قول النّبي صلّى الله عليه وآله في آية التطهير: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»[1].

والآخر: قول زيد بن أرقم ـ فيما أخرجه مسلم ـ أنه لمّا سئل عن معنى «أهل بيتي عترتي» في حديث الثقلين وأنه يشمل الأزواج أوْ لا؟ قال: لا...[2].

نعم، متى شمل العنوان ذريّة أهل العصمة فهو من باب ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[3].

---

(١) جامع الأصول ١٠ / ١٠٠.

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢٣٨.

(٣) سورة الطور، الآية: ٢١.

لِماذا أهل بيت النبوّة؟

لقد كان من الصحيح لو قيل هنا: يا أهل بيت النّبي، فما هي النكتة في إضافة «أهل البيت» إلى «النبوّة»؟

هناك أربعة وجوه للإجابة على هذا السؤال، وكلّها مستقاةٌ من الكتاب والسنّة وتشهد بها كلمات العلماء، وكلّ واحدٍ من هذه الوجوه يصلح لأنْ يكون بياناً للنكتة الكامنة في هذا التعبير.

استقرار وظائف النبوّة في أهل البيت

هناك فرق لغويّ بين البيت والدّار، فالبيت أخص من الدّار، وهو يعني الغرفة، والدار يشتمل على الغرفة وغيرها من الأجزاء.

ولابدّ لكلٍّ من البيت والدار ـ من أيّ مادّة كان إنشاؤه ـ من حائط أو سور وسقف، ليصبح سكناً ومستقراً للإنسان ويحفظه من الحرّ والبرد ويحميه من الأذىٰ ويستره من الأجنبي، حتى يذوق في العيش فيه طعم الإطمئنان الروحي والجسدي، وفي غير هذه الصّورة لا يصح إطلاق البيت عليه.

ولمّا كان البيت مفهوماً ما يستتب فيه الإستقرار والسكون، ولذا قالوا: البيت المسكن[1]، فإنه يمكننا إطلاق هذا العنوان على مصاديق معنوية، فيقال: فلان من بيت علم، أو من بيت تقوى. إذ المراد هنا استقرار العلم والتقوى فيه، وإلّا فالعلم والتقوى ليسا من الأشياء التي تأخذ حيزاً خاصّاً أو تشغل مكاناً معيّناً.

وعلى الجملة، فإن «البيت» هو محلّ الاستقرار، ومن هنا يظهر معنى «بيت الله» أي «الكعبة» المكرّمة، إذ قال تعالى:

---

(١) المصباح المنير: ٦٨.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[(١)].

وقال إبراهيم عليه السّلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[(٢)].

فقد أُضيف «البيت» إلى «الله» إضافة تشريفيّة، ولا شك أنّ المراد كون «الكعبة» محلاً لتوجّه الناس في عبادة الله سبحانه، فعبادة الله ومعرفته والتضرّع إليه مستقرّة في هذا المكان.

وكذلك يظهر المراد من الخبر المرويّ عن أهل البيت عليهم السّلام من قولهم:

«نحن... بيت الله»[(٣)].

فهم موضع معرفة الله، وبواسطتهم يعرف ويعبد، وأنّ من توجّه إليهم فقد توجّه إلى الله، ومن قصدهم فقد قصد الله.

وكذلك المراد من قولهم:

«نحن... بيت الرحمة»[(٤)].

أي: إنّ الرّحمة مستقرّة عندنا وكامنة فينا، وسيأتي في الزّيارة: «ومعدن الرحمة».

من هنا يتضح أن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام هم أهل بيت النبوّة، لما ينطوون عليه من حقائق وأسرار وخصوصيّات ربّانية لا توجد في غيرهم، لعدم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٣) بحار الأنوار ٢٣ / ٤٤، الغارات ١ / ١١٩.

(٤) الكافي ١ / ٢٢١.

وجود الأهليّة لذلك إلا لهم.

وخير دليل على انفرادهم بهذه الخصوصيّة ما جاء في الأحاديث والروايات المستفيضة التي غصَّت بها كتب المسلمين من الفريقين، بأن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله كان يختصّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام بلقاءاتٍ خاصّة، حيث كان يخلو به دون حضور أحد، ويفرغ له من العلوم والمعارف أبواباً لا تحصى، ولم يحظ أحد غيره بهذه الحظوة إطلاقاً.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الراهنة غير واحدٍ من كبار علماء الجمهور المفسّرين للقرآن الكريم والشرّاح للأحاديث النبويّة:

فقد قال الحافظ السّمهودي بشرح قول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين...»:

الّذين وقع الحثّ على التمسّك بهم من أهل البيت النبويّ والعترة الطاهرة، هم العلماء بكتاب الله عزّوجلّ، إذْ لا يحثّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على التمسّك بغيرهم، وهم الّذين لا يقع بينهم وبين الكتاب افتراق حتّى يردا الحوض، ولهذا قال: «لا تقدّموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم»(١).

وقال الشيخ ملّا علي القاري بشرح الحديث المذكور:

الأظهر هو: إنّ أهل البيت غالباً يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم، المطّلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحكمه وحكمته. وبهذا يصلح أنْ يكونوا مقابلاً لكتاب الله سبحانه كما

---

(١) جواهر العقدين: ق ٢، ١ / ٩٣.

قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١].

وقال نظام الدين النيشابوري صاحب التفسير المعروف، بتفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[٢].

قال:

وأمّا النبيّ، فإنّه وإنْ كان مضى إلى رحمة الله في الظاهر، ولكن نور سرّه باقٍ بين المؤمنين فكأنّه باق، على أن عترته ورثته يقومون مقامه بحسب الظاهر أيضاً،... ولهذا قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٣].

نبوّة الأنبياء السّابقين ببركة أهل البيت

إن الأئمّة عليهم السّلام كانوا أهل بيت النبوّة منذ القدم، وأنّ وجود الأنبياء كان ببركتهم، ونبوّاتهم كانت قائمةً بوجود أهل بيت رسول الإسلام، كما سندلّل على ذلك في مواضعه المناسبة في هذا الكتاب.

لقد جاء في الحديث عند الفريقين: أنّ الله عزّوجلّ خاطب آدم عليه السّلام مشيراً إلى أهل البيت وهم في عالم الأشباح:

«... هؤلاء خمسة من ولدك، لولاهم لما خلقتك، ولا خلقت الجنّة ولا النار، ولا العرش ولا الكرسيّ، ولا السّماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الجنّ ولا الإنس... فإذا كان لك إليّ حاجة فبهؤلاء توسل...»[٤].

دلّ هذا الحديث على أنّ أصل وجود الأنبياء ونبوّتهم ببركة أهل البيت، وأنه

---

(١) المرقاة في شرح المشكاة ٥ / ٦٠٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢ / ٢٢١.

(٤) فرائد السمطين ١ / ٣٦، بحار الأنوار ٢٧ / ٥.

لولاهم لما كانوا ولما كانت النبوّات، والأخبار في هذا المعنى عند الفريقين كثيرة.

وجاء بتفسير قوله تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

طرفٌ من الأخبار، فليراجعها من شاء.

وقال الشيخ البوصيري في قصيدة البردة الشهيرة التي أنشأها بمدح رسول الله صلّى الله عليه وآله بعد أنْ توسّل به فبرء من مرضه:

وكلّ آيٍ أتى الرسل الكرام بها فإنّما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظّلم

لقد باح هذا العالم الفقيه المحدّث الشافعي بهذه الحقيقة، وتبعه على ذلك شرّاح قصيدته من الفريقين، وصرّحوا بما دلّت عليه النصوص المعتبرة من أنّ الأنبياء السّابقين كانوا مظاهر النور المحمّدي، وأنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله كان قد سبقهم في الوجود.

ومن جملة تلك النصوص هي الأحاديث المتّفق عليها في أنّ النبيّ وعليّاً مخلوقان معاً من نور واحد، وأنه لازم رسول الله في كلّ العوالم السابقة، وهذا المعنى ثابت لولده الأئمّة الهداة الذين اصطفاهم الله لخلافة نبيّه الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالأدلّة المعتبرة.

بل إنّ الأنبياء المتقدّمين قد اُمروا بدعوة الاُمم إلى الإيمان بنبوة نبيّنا وولاية أمير المؤمنين عليه الصّلاة والسّلام، وذلك ما روي في كتب الفريقين بتفسير قوله تعالى:

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾[١].

أخرج الحاكم، قال: «حدّثنا أبو الحسين محمّد بن المظفّر الحافظ، قال: حدّثنا عبدالله بن محمّد بن غزوان، قال: ثنا علي بن جابر، قال: ثنا محمّد بن خالد بن عبدالله، قال: ثنا محمّد بن فضيل، قال: ثنا محمّد بن سوقة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبدالله، قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا عبدالله! أتاني ملك فقال: يا محمّد! ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ على ما بعثوا؟ قال: قلت: على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب.

قال الحاكم: تفرّد به علي بن جابر، عن محمّد بن خالد، عن محمّد بن فضيل، ولم أكتبه إلّا عن ابن المظفّر، وهو عندنا حافظ ثقة مأمون»[٢].

فالآية باقية على ظاهرها، والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد سأل، وكان الجواب: بعث الأنبياء على ولايته وولاية عليٍّ، عليهما وعلى آلهما الصّلاة والسّلام.

ورواه الثعلبي، قال: «أخبرنا الحسين بن محمّد الدينوري، حدّثنا أبو الفتح محمّد بن الحسين بن محمّد بن الحسين الأزدي الموصلي، حدّثنا عبدالله بن محمّد بن غزوان البغدادي، حدّثنا علي بن جابر، حدّثنا محمّد بن خالد بن عبدالله ومحمّد بن إسماعيل، قالا: حدّثنا محمّد بن فضيل، عن محمّد بن سوقة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله بن مسعود، قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أتاني ملك فقال: يا محمّد!...»[٣].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

(٢) معرفة علوم الحديث: ٩٦.

(٣) تفسير الثعلبي ١ / ٢٠٤٠.

ورواه ابن عساكر، قال: «أخبرنا أبو سعد بن أبي صالح الكرماني وأبو الحسن مكّي بن أبي طالب الهمداني، قالا: أنبأنا أبو بكر ابن خلف، أنبأنا الحاكم أبو عبدالله الحافظ، حدّثني محمّد بن مظفّر الحافظ...» إلى آخر ما تقدّم عن الحاكم[١].

ورواه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، كما في تنزيه الشريعة عن الحافظ ابن حجر، وفي غير واحد من كتب أصحابنا، أنّه روى بإسناده في هذه الآية، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة أُسري به، جمع الله تعالى بينه وبين الأنبياء، ثمّ قال: سلهم يا محمّد! على ماذا بُعثتم؟ فقالوا: بُعثنا على شهادة أنْ لا إله إلّا الله، وعلى الإقرار بنبوّتك والولاية لعليّ بن أبي طالب[٢].

ورواه الحاكم الحسكاني، قال: «حدّثنا الحاكم أبو عبدالله الحافظ، قال: حدّثني محمّد بن المظفّر...» إلى آخر ما تقدّم....

قال: «وأخبرنا أبو عثمان الحيري من أصله العتيق، قال: حدّثنا أبو الحسين محمّد بن المظفّر... سواءً لفظاً، ولم يذكر علقمة في الإسناد».

«حدّثني أبو الحسن الفارسي، حدّثنا عمر بن أحمد، حدّثنا علي بن الحسين ابن سفيان الكوفي، حدّثنا جعفر بن محمّد أبو عبدالله الحسيني، حدّثنا علي بن إبراهيم العطّار، حدّثنا عبّاد، عن محمّد بن فضيل، عن محمّد بن سوقة».

قال: «وحدّثنا أبو سهل سعيد بن محمّد، حدّثنا علي بن أحمد الكرماني، حدّثنا أحمد بن عثمان الحافظ، حدّثنا عبيد بن كثير، حدّثنا محمّد بن إسماعيل الأحمسي، حدّثنا ابن فضيل، عن محمّد بن سوقة، عن إبراهيم، عن علقمة

---

(١) تاريخ دمشق ـ ترجمة أمير المؤمنين ـ ٢ / ٩٧.

(٢) الطرائف في معرفة الطوائف ١ / ١٠١، البرهان في تفسير القرآن ٤ / ١٤٨، غاية المرام: ٢٤٩، خصائص الوحي المبين: ١٥٣.

والأسود، عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

لمّا أُسري بي إلى السّماء إذا ملك قد أتاني فقال لي: يا محمّد! سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا. قلت: معاشر الرسل والنبيّين! على ما بعثكم الله؟ قالوا: على ولايتك يا محمّد وولاية عليّ بن أبي طالب.

ورواه غير علي، عن محمّد بن خالد الواسطي، وتابعه محمّد بن إسماعيل....

أخبرنيه الحاكم أبو عبدالله، حدّثني أبو سعيد أحمد بن محمّد بن رحيم النسوي، حدّثنا أبو محمّد الحسين بن عثمان الأهوازي، حدّثنا محمّد بن خالد بن عبدالله الواسطي، حدّثنا محمّد بن فضيل، حدّثنا محمّد بن سوقة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبدالله، قال: قال لي النبيّ... به لفظاً سواءً»[١].

ورواه الموفّق بن أحمد المكّي، قال: «وأخبرني شهردار ـ إجازةً ـ، أخبرني أحمد بن خلف ـ إجازةً ـ، حدّثني محمّد بن المظفّر الحافظ، حدّثنا عبدالله بن محمّد بن غزوان، حدّثنا علي بن جابر...» إلى آخر ما تقدّم سواء[٢].

ورواه الحمويني، عن شهردار بن شيرويه الحافظ، عن أحمد بن خلف، عن الحاكم، عن ابن المظفّر الحافظ... كما تقدّم سواء[٣].

ورواه أبو عبدالله الكنجي، قال: «قرأت على الحافظ أبي عبدالله ابن النجّار، قلت له: قرأت على المفتي أبي بكر بن عبدالله بن عمر الصفّار، قال: أخبرتنا الحرّة عائشة بنت أحمد الصفّار، أخبرنا أحمد بن علي الشيرازي، أخبرنا الإمام الحافظ أبو عبدالله النيسابوري، حدّثني محمّد بن المظفّر الحافظ...» إلى آخر ما

---

(١) شواهد التنزيل ٢ / ٢٢٢ ـ ٢٢٥.

(٢) مناقب عليّ بن أبي طالب: ٢٢٠. والظاهر سقوط «الحاكم» بين أبي خلف وابن المظفّر.

(٣) فرائد السمطين ١ / ٨١.

تقدّم سواء[١].

إنا لا نطلق هذه الدعوى جزافاً، وإنما رأينا أنّ الكتاب والسنّة المتفق عليها ناطقان بهذه الحقيقة، بحيث أنّ أيّ منصف يتأمّل في هذا الموضوع لا يتردّد في قبوله والقول به وقد أكثرنا من نقل الحديث ومن طرق الجمهور لأهميّة الموضوع، كما لا يخفى.

وبالجملة، فإن أهل البيت كانوا أهل بيت النبوة منذ البداية.

مشاركة أهل البيت في رسالة النبي الأكرم

لا شك في أن أهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله، أعني أميرالمؤمنين عليّاً والصدّيقة الطاهرة الزهراء والأئمّة عليهم السّلام، من أُمة النّبي. ولا يوجد نبيٌّ في هذا البيت غير رسول الله صلّى الله عليه وآله. ولاندّعي نبوة لأميرالمؤمنين ولا لأحدٍ من الأئمّة عليهم السّلام، لأن هذه الدعوى غلوّ وكفر.

إلّا أننا لا نغالي إذا قلنا: إن الأئمّة عليهم السّلام كانوا مشاركين للنبيّ الأكرم في نبوّته ورسالته ودعوته صلّى الله عليه وآله وإستمراريتها، فنقول:

لقد كان علي مع رسول الله صلّى الله عليهما وآلهما في جميع العوالم وفي كلّ الأحوال، وقد ذكر في خطبةٍ له كونه معه في غار حراء، وأنه كان يسمع ما يسمع ويرى ما يرى، قال عليه السّلام:

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضرّ، وقد علمتم موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه،

---

(١) كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب: ٧٥.

ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه، وكان يمضغُ الشّيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبةً في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله به صلّى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتّبعه أتّباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنةٍ بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله، صلّى الله عليه وآله، وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النّبوّة.

ولقد سمعت رنّة الشيطان، حين نزل الوحي عليه صلّى الله عليه وآله، فقلت: «يا رسول الله ما هذه الرّنّة؟» فقال: هذا الشّيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا أنّك لست بنبيّ، ولكنّك وزير، وإنك لعلى خير»[١].

ثم كان مع رسول الله في جميع المراحل، حتى صحّ أنْ يقال بأنّه شريكه في الرسالة وأنهما معاً صاحبا الرسالة الإسلاميّة، وتلك هي دعوة رسول الله صلّى الله عليه وآله، كما في رواية الفريقين:

«أللّهم إنّ موسى بن عمران سألك وقال:

﴿وَاجْعَلْ لي وَزيرًا مِنْ أَهْلي * هٰارُونَ أَخي * اشْدُدْ بِهِ أَزْري * وَأَشْرِكْهُ في أَمْري﴾[٢].

وأنا محمّد نبيّك، أسألك أنْ تشرح لي صدري... واجعل لي وزيراً من أهلي علي بن أبي طالب أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري[٣].

---

(١) نهج البلاغة: ٤١١. الخطبة القاصعة.

(٢) سورة طه، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) بحار الأنوار ١٢٦/٣٦، مطالب السئول: ٢١، تذكرة الخواص: ١٥، الفصول المهمّة: ١٢٤.

لقد أُوتي موسى ما سأل، قال تعالى:

﴿قَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسىٰ﴾[(١)].

وكذلك أُوتي رسول الله ما سأل، ولذا قال في الحديث المتواتر:

«علي مني بمنزلة هارون من موسى»[(٢)].

ومن الشواهد: قضيّة المباهلة:

فإنّه لمّا قرّر رسول الله صلّى الله عليه وآله أن يباهل نصارى نجران عملاً بقوله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَأَبْنٰاءَكُمْ وَنِسٰاءَنٰا وَنِسٰاءَكُمْ وَأَنْفُسَنٰا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَى الْكٰاذِبينَ﴾[(٣)].

فيبتهل الطرفان إلى الله بأنْ ينصر الصّادق المحق وينزل لعنته على الكاذب منهما. خرج بعليّ وفاطمة والحسنين... فكان لأهل بيته الدّور المهمّ في تثبيت نبوّته وصدق كلامه....

وأيضاً، فقد ورد في كتب الفريقين أنه صلّى الله عليه وآله قال لهم لمّا خرج بهم:

إذا أنا دعوت فأمّنوا[(٤)].

أمرهم بذلك مع أنه لم يكن في دعائه خلل أو نقص فيحتاج إلى جبره بتأمينهم.

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٦.

(٢) هذا من الأحاديث الثابتة المتواترة عند الخاصّة والعامّة. أنظر: نفحات الأزهار، الجزء ١٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٤) الكشّاف في تفسير القرآن ١ / ٤٣٤، الصّافي في تفسير القرآن ١ / ٣٤٣.

أمرهم بذلك مع كونه مستجاب الدّعوة.

فما هو ـ يا ترى ـ أثر حضور علي وفاطمة الصدّيقة والحسنين عليهم السّلام في هذا الموقف المصيري الذي قال كبير النصارى:

إني لأرىٰ وجوهاً لو دعوا الله ليزيل جبلاً لأزاله[١]؟

نعم، لو وقعت المباهلة لما بقي نصراني على وجه الأرض[٢].

إنّ حضور أهل البيت عليهم السّلام في المباهلة وتأمينهم على دعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله، كان تثبيتاً لأصل نبوّة رسول الله وتحكيمها في مواجهة الكفر والنصرانيّة إلى يوم القيامة.

لقد كان لأهل البيت دور في نبوة نبيّنا ورسالته ودعوته، كما كان لهارون بالنسبة إلى موسى عليهما السّلام، غير أنّ هارون كان نبيّاً وأهل بيت رسول الله ليسوا بأنبياء.

فالبيت بيت النبوّة والدعوة إلى الله وهداية البشر في حياة النبي وبعد وفاته.

نبوّة نبيّنا أوّل النبوّات

ومن المناسب ـ بعد الوجوه الثلاثة ـ ذكر بعض النصوص[٣] في تقدّم نبوّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله على نبوّة جميع الأنبياء، وكون أمير المؤمنين معه، توضيحاً

---

(١) الكشّاف في تفسير القرآن ١ / ٣٦٩ ـ ٣٧٠، أسد الغابة ٤ / ٢٦.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١ / ٦٣٨ نقلاً عن الحافظ الثعلبي.

(٣) هذه النصوص متفق عليها بين الفريقين، ولكنّا إنما نكتفي ببعض ما جاء من العامّة خاصّةً لأُمور منها:

١ ـ لإلزام الخصوم بها حتى لا يتّهمونا بالغلوّ في أمير المؤمنين.

٢ ـ لرفع شبهة الاستبعاد لدى بعض الشيعة القاصرين، وتقوية إيمان المؤمنين.

وتأييداً لها:

أخرج الترمذي بإسناده قالوا: يا رسول الله!، متى وجبت لك النبوة؟

قال: وآدم بين الروح والجسد[١].

وعقد الحافظ أبو نعيم في دلائله باباً بعنوان «ذكر ما روي في تقدّم نبوته قبل تمام خلقة آدم»، فأورد فيه أحاديث كثيرة في هذا المعنى[٢].

وفي كتاب الخصائص للحافظ السيوطي «باب خصوصيّة النبي بكونه أوّل النّبيين في الخلق وتقدّم نبوته»، فأورد فيه الأحاديث في أنّ الله أخذ العهد والميثاق من جميع الأنبياء وغيرهم على نبوّة رسول الله صلّى الله عليه وآله[٣].

ونحن نذكر بعض النصوص من الكتب المعتبرة من السنّة:

قال أبو نعيم: «ومن فضائله صلّى الله عليه وسلّم: أخذ الله الميثاق على جميع أنبيائه إنْ جاءهم رسول آمنوا به ونصروه، فلم يكن ليدرك أحد منهم الرسول إلّا وجب عليه الإيمان به والنصرة، لأخذه الميثاق منهم، فجعلهم كلّهم أتباعاً يلزمهم الانقياد والطاعة لو أدركوه.

وذلك ممّا حدّثناه محمّد بن أحمد بن الحسن... عن جابر عن عمر بن الخطاب قال: أتيت النبي ومعي كتاب أصبته من بعض أهل الكتاب، فقال: والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيّاً اليوم ما وسعه إلّا أن يتبعني»[٤].

وقال القاضي عياض: «السّابع، في ما أخبر الله به في كتابه العزيز من عظيم

---

(١) سنن الترمذي ٥ / ٢٤٥.

(٢) دلائل النبوّة ١ / ٤٤.

(٣) الخصائص الكبرى ١ / ٧.

(٤) دلائل النبوّة ١ / ٥٠.

قدره وشريف منزلته على الأنبياء وخطورة رتبته، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[١].

قال أبو الحسن القابسي: إختص الله نبيّنا محمّداً بفضل لم يؤته أحداً غيره أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية. قال المفسّرون: أخذ الله الميثاق بالوحي ولم يبعث نبيّاً إلّا ذكر له محمّداً ونعته، وأخذ على ذلك الميثاق منه إنْ أدركه ليؤمننّ به.

وقيل: أن يبيّنه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدهم....

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبيّاً من آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمّد عليه الصّلاة والسّلام لئن بعث وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

ونحوه عن السدّي وقتادة في آي تضمّنت فضله من غير وجه واحد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾[٢] الآية، وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ إلى قوله ﴿وَكِيلاً﴾[٣].

وروى عن عمر بن الخطاب في كلام بكى به النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أوّلهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ...﴾ الآية.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودّون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذّبون يقولون: ﴿**يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ**﴾[١].

قال قتادة: إن النبي قال: كنت أوّل الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث، فلذلك وقع ذكره مقدّماً هنا قبل نوح وغيره.

قال السّمرقندي: في هذا تفضيل نبينا عليه السّلام، لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم.

قال بعضهم: ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال يا أيها النبي، ويا أيها الرسول.

وحكى السّمرقندي عن الكلبي ـ في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ**﴾[٢] إن الهاء عائدة على محمّد، أي من شيعة محمّد لإبراهيم، أي: على دينه ومنهاجه، واختاره الفرّاء وحكاه عنه مكي. وقيل: المراد نوح عليه الصّلاة والسّلام»[٣].

وللقسطلاني في المقصد السّادس من كتابه بحث طويل خصّه بالموضوع هذا أوّله:

«النوع الثاني في أخذ الله تعالى له الميثاق على النبيين فضلاً ومنّة ليؤمننّ به إن أدركوه ولينصرنّه» ثم نقل فيه الآيات والأحاديث[٤].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الصّافّات، الآية: ٨٣.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٣٥ ـ ٣٨.

(٤) المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية ٢ / ٥١.

وقال القسطلاني ما ملخّصه:

«روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبيّاً من آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمّد، لئن بعث وهو حيّ ليؤمنّن به ولينصرنّه ويأخذ العهد بذلك على قومه. وهو مروي عن ابن عباس أيضاً. ذكرهما العماد ابن كثير في تفسيره.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: فإذا عرف هذا، فالنبي نبي الأنبياء، وبهذا ظهر في الآخرة أن جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة المعراج صلّى بهم، ولو اتفق مجيؤه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الميثاق عليهم»[١].

وبمثل هذا قال ابن حجر المكّي والشيخ سليمان في شرحيهما على الهمزيّة بشرح قول البوصيري:

«ما مضت فترة من الرسل إلّا بشّرت قومها بك الأنبياء»

إنّ هذه الحقيقة ثابتة في كتب العامّة، يروونها بأسانيدهم عن الصّحابة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، والإماميّة يروونها بأسانيدهم عن الأئمّة الأطهار عليهم السّلام كذلك.

تقدّمه في الخلق وهو نبيّ الأنبياء

ومن المناسب بمكان أن ننقل هنا ما ذكره الحافظ السيوطي خلال استعراضه لخصائص النبيّ صلّى الله عليه وآله، عن الحافظ تقي الدين السبكي الشّافعي،

(١) الخصائص الكبرى ١ / ٨.

وهذا نصّه:

«فائدة: قال الشيخ تقي الدين السّبكي في كتابه التعظيم والمنّة في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[1]:

في هذه الآية من التنويه بالنبي صلّى الله عليه وآله وتعظيم قدره ما لا يخفى.

وفيه مع ذلك أنّه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم، فتكون نبوّته ورسالته عامّة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأُممهم كلّهم من أُمته، ويكون قوله «بعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس من زمانه إلى القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً.

ويتبيّن بذلك المعنى قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كنت نبيّاً وآدم بين الروح والجسد»، وأنّ من فسّره بعلم الله بأنّه سيصير نبيّاً لم يصل إلى هذا المعنى، لأنّ علم الله محيط بجميع الأشياء، ووصف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالنبوّة في ذلك الوقت، ينبغي أن يفهم منه أنّه أمر ثابت له في ذلك الوقت، ولهذا رأى آدم اسمه مكتوباً على العرش: محمّد رسول الله، فلابدّ أن يكون ذلك معنى ثابتاً في ذلك الوقت، ولو كان المراد بذلك مجرّد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصيّة بأنّه نبيّ وآدم بين الروح والجسد؛ لأنّ جميع الأنبياء يعلم الله نبوّتهم في ذلك الوقت وقبله، فلابُدّ من خصوصيّة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأُمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى، فيحصل لهم الخير بذلك.

وقال: فإن قلت: أريد أن أفهم ذلك القدر الزائد، فإنّ النبوّة وصف لابُدّ أن يكون الموصوف به موجوداً، وإنّما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضاً، فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله، وإن صحّ ذلك فغيره كذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

قلت: قد جاء إنّ الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: «كنت نبيّاً» إلى روحه الشريفة وإلى حقيقته، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنّما يعلمها خالقها ومن أمدّه بنور إلّهي. ثمّ إن تلك الحقائق يؤتي الله حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي شاء، فحقيقة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد تكون من قبل خلق آدم آتاها الله ذلك الوصف، بأن يكون خلقها متهيّئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبيّاً وكتب آسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخّر جسده الشريف المتّصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلّهية، وإنّما يتأخر البعث والتبليغ. وكلّ ماله من جهة الله ومن تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجّل لا تأخير فيه. وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوّة، وإنّما المتأخر تكوّنه وتنقّله، إلى أن ظهر صلّى الله عليه وسلّم وغيره من أهل الكرامة، وقد تكون إفاضة الله تلك الكرامة عليه بعد وجوده بمدة كما يشاء سبحانه.

ولا شكّ أنّ كلّما يقع، فالله عالم به من الأزل، ونحن نعلم علمه بذلك بالأدلّة العقلية والشرعيّة، ويعلم الناس منها ما يصل إليهم عند ظهوره كعلمهم نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين نزل عليه القرآن في أوّل ما جاءه جبريل، وهو فعل من أفعاله تعالى من جملة معلوماته، ومن آثار قدرته وإرادته واختياره في محلّ خاصّ يتّصف بها، فهاتان مرتبتان، الأولى معلومة بالبرهان، والثانية ظاهرة للعيان، وبين المرتبتين وسائط من أفعاله تعالى تحدث على حسب اختياره، منها ما يظهرلهم بعد ذلك، ومنها ما يحصل به كمال لذلك المحلّ وإن لم يظهر لأحد من المخلوقين، وذلك ينقسم إلى كمال يقارن ذلك المحلّ من حين خلقه، وإلى كمال

يحصل له بعد ذلك، ولا يصل علم ذلك إلينا إلّا بالخبر الصّادق، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم خير الخلق، فلا كمال لمخلوق أعظم من كماله ولا محلّ أشرف من محلّه.

فعرفنا بالخبر الصّحيح حصول ذلك الكمال من قبل خلق آدم لنبينا صلّى الله عليه وسلّم من ربّه سبحانه، وأنّه أعطاه النبوّة من ذلك الوقت، ثمّ أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنّه المقدّم عليهم، وأنّه نبيّهم ورسولهم، وفي أخذ المواثيق -وهي في معنى الاستخلاف، ولذلك دخلت لام القسم في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ - لطيفة أُخرى وهي كأنّها إيمان للبيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعلّ إيمان الخلفاء أخذت من هنا، فانظر هذا التعظيم العظيم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم من ربّه سبحانه وتعالى.

فإذا عرف ذلك، فالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو نبيّ الأنبياء، ولهذا أظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلّى بها، ولو اتفق مجيؤه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أُممهم الإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل له، وإنّما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك لأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافه بما تقتضيه، وفرق بين توقف الفعل على قبول المحلّ وتوقفه على أهليّة الفاعل، فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل ولا من جهة ذات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الشريفة، وإنّما من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتّباعه بلا شكّ.

ولهذا يأتي عيسى في آخر الزمان على شريعته وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنّه يأتي واحداً من هذه الأُمة، نعم، هو واحد من هذه الأُمة

لما قلناه من اتّباعه للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما يحكم بشريعة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم بالقرآن والسُنّة، وكلّ ما فيها من أمر أو نهي فهو متعلّق به كما يتعلّق بسائر الأُمة، وهو نبيّ كريم على حاله لم ينقص منه شيء، وكذلك لو بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في زمانه أو في زمن موسى وإبراهيم ونوح وآدم، كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم نبيّ عليهم ورسول إلى جميعهم.

فنبوّته ورسالته أعمّ وأشمل وأعظم، ومتفق مع شرائعهم في الأُصول؛ لأنّها لا تختلف، وتقدّم شريعته صلّى الله عليه وسلّم فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع؛ إمّا على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو لا نسخ ولا تخصيص، بل تكون شريعة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تلك الأوقات بالنسبة إلى أُولئك الأُمم ما جاءت به أنبياءهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأُمة هذه الشريعة، والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات.

وبهذا بان لنا معنى حديثين كان خفيّاً عنا:

أحدهما: قوله صلّى الله عليه وسلّم: بعثت إلى الناس كافة. كنّا نظن أنّه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنّه جميع الناس أوّلهم وآخرهم.

والثاني: قوله صلّى الله عليه وسلّم: كنت نبيّاً وآدم بين الروح والجسد، كنّا نظن أنّه بالعلم، فبان أنّه زائد على ذلك على ما شرحناه، وإنّما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده صلّى الله عليه وسلّم وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهّلهم لسماع كلامه، لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهّلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحلّ القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرّف، فهاهنا التعليق إنّما هو بحسب المحلّ القابل المبعوث إليهم

وقبولهم سماع الخطاب من الجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه، وهـذا كـما يوكّل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفواً، فالتوكيل صحيح، وذلك الرجل أهل للوكالة ووكالته ثابتة، وقد يحصل توقف التصرّف على وجود كفو ولا يوجد إلّا بعد مدّة، وذلك لا يقدح في صحّة الوكالة وأهليّة الوكيل. انتهى كلام السّبكي بلفظه»[١].

كون الإمام علي معه هناك

ثم إنّ النصوص الدالّة على كون علي مع النّبي ووجود اسمه إلى جنب اسم رسول الله صلّى الله عليه وآله في جميع المراحل، كثيرة جدّاً، ونحن نكتفي بذكر طرفٍ منها:

أخرج الحافظ القاضي عياض المالكي، عن أبي الحمراء عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

لمّا أسري بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، أيّدته بعلي»[٢].

وروى ابن المغازلي بسنده عن أبي الحمراء، قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: لما أُسري بي إلى السّماء، رأيت على ساق العرش الأيمن: أنا وحدي لا إلّه غيري، غرست جنّة عدن بيدي، محمّد صفوتي، أيّدته بعليّ»[٣].

وروى الخوارزمي عنه: قال «قال: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: رأيت ليلة أسري بي مثبتاً على ساق العرش: أنا غرست جنّة عدن بيدي، محمّد صفوتي من

---

(١) الخصائص الكبرىٰ ١ / ٣ ـ ٥.

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: ١٣٨.

(٣) المناقب لابن المغازلي: ٣٩.

خلقي، أيّدته بعليّ»[١].

وروى الحافظ المحبّ الطبري حيث قال: «ذكر اختصاصه بتأييد الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم به، وكتبه ذلك على ساق العرش، وعلى بعض الحيوان.

عن أبي الحمراء، قال: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ليلة أُسري بي إلى السّماء، نظرت إلى ساق العرش الأيمن، فرأيت كتاباً فهمته: محمّد رسول الله أيّدته بعلي، ونصرته به. خرّجه الملا في سيرته.

عن ابن عبّاس قال: كنّا عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإذا بطائر في فيه لوزة خضراء، فألقاها في حجر النبيّ فقبّلها ثمّ كسّرها، فإذا في جوفها دودة خضراء مكتوب فيها بالأصفر: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله نصرته بعليّ. خرّجه أبو الخير القزويني الحاكمي»[٢].

وروى الحافظ الزرندي قال: «ويروى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: لما أُسري بي رأيت في ساق العرش مكتوباً: لا إلّه إلّا الله محمّد رسول الله صفوتي عن خلقي، أيّدته بعليّ، ونصرته به.

. وفي رواية: رأيت على ساق العرش الأيمن مكتوباً: إنّي أنا الله وحدي لا إلّه غيري، غرست جنّة عدن بيدي محمّد صفوتي، أيّدته بعليّ»[٣].

الوجه الرابع:

ما دلّت عليه جملة «وسلالة النبيين» في هذه الزيارة، كما سنشرحها في موضعها إن شاء الله تعالى.

---

(١) المناقب: ٢٢٩.

(٢) الرياض النضرة ٢ / ٢٢٧.

(٣) نظم درر السمطين: ١٢٠.

وَ مَوْضِعَ الرِّسَالَةِ

نعم، أهل البيت عليهم السّلام موضع الرسالة المحمّدية ومحلّها، وبهذا وصفوا في روايات أهل السنّة أيضاً، وهذا نصٌّ من رواياتهم:

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ قال: هم أهل بيت طهّرهم الله من السّوء واختصّهم برحمته. قال: وحدّث الضحاك بن مزاحم أن نبيّ الله صلّى الله عليه وآله كان يقول: نحن أهل بيتٍ طهّرهم الله من شجرة النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم»[١].

فعلى من أراد الرّسالة في أصولها الاعتقاديّة وأحكامها التكليفيّة وساير تشريعاتها وسننها وآدابها، أن يرجع إلى الأئمّة الطاهرين ويسألهم ويأخذ منهم ويتّبعهم.

وهم الحافظون للشريعة، الناهضون بأعبائها، الدعاة إليها، والناشرون لها، وهي محفوظة بوجودهم، باقية ببقائهم، لا تفارقهم ولا يفارقونها أبداً.

ويستنتج من ذلك:

أن الناس غير مستغنين عن أهل البيت إطلاقاً، وأنه لا يجوز الرجوع إلى غيرهم كائناً من كان، كما لا يجوز الاكتفاء بما تمليه عليهم عقولهم في فهم الشريعة المقدّسة في أُصولها وفروعها.

وعلى الجملة، فإنه وإنْ مات رسول الله صلّى الله عليه وآله أو قتل، فإنّ رسالته باقية مستمرة، وموضعها أهل بيته الطيّبون الطاهرون.

---

(١) الدر المنثور ٦/٦٠٦، الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

وَ مُخْتَلَفَ الْمَلاَئِكَةِ

أي: مكان اختلاف الملائكة، فإن «المختلف» هنا اسم مكان، و«الإختلاف» هنا بمعنى الرّواح والمجئ، وبه فسّر الحديث:

«اختلاف أُمّتي رحمة»(١).

أي: أن يزور بعضهم بعضاً ويتواصلون فيما بينهم.

لقد كانت الملائكة تختلف إلى أهل البيت عليهم السّلام، فهم كانوا مختلف الملائكة. وأمّا نزول الملائكة إلى بيتهم وصعودهم منه لكونه بيت النّبي صلّى الله عليه وآله فذاك أمر آخر.

أمّا النبيُّ صلّى الله عليه وآله نفسه، فواضح.

نزول الملك إلى الزهراء الطّاهرة

وأمّا الصدّيقة الطّاهرة، فالروايات في ذلك كثيرة، كالخبر عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال:

«إن الله تبارك وتعالى لمّا قبض نبيَّه صلّى الله عليه وآله، دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلّا الله عزّوجلّ، فأرسل إليها مَلَكاً يسلّي عنها غمّها ويحدّثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السّلام فقال لها:

إذا أحسست بذلك فسمعتِ الصوت فقولي لي، فأعلمته، فجعل يكتب كلّما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً»(٢).

وأخرج الحاكم بإسناده عنه عليه السّلام عن جابر أنه قال:

---

(١) معاني الأخبار: ١٥٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٣٩٢.

لمّا توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله عزّتهم الملائكة ـ يسمعون الحسّ ولا يرون الشخص ـ فقالت: السّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته: إنّ في الله عزاءً من كلّ مصيبة وخَلَفاً من كلّ فائت، فبالله فثقوا وإيّاه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١).

نزول الملائكة إلى الأئمّة

وأخرج بإسناده: أنّ الإمام الحسن السّبط عليه السّلام قال في خطبته بالكوفة بعد ما استشهد أمير المؤمنين:

«وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا»(٢).

وليس هذا مختصّاً بزمان حياتهم، فقد وردت النصوص المعتبرة في حضور الملائكة عند قبر سيدالشهداء الحسين عليه السّلام وإختلافها إليه صاعدةً ونازلة فعن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام أنه قال:

ليس من ملك في السماوات إلّا وهم يسألون الله عزّوجلّ أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين عليه السّلام، ففوج ينزل وفوج يعرج.

نزول الملائكة إلى قبور النبي والأئمّة

وعنه عليه السّلام:

ما خلق الله خلقاً أكثر من الملائكة، وإنه ينزل من السّماء كلّ مساء سبعون ألف ملك يطوفون بالبيت الحرام ليلتهم، حتّى إذا طلع الفجر انصرفوا إلى قبر النبي فيسلّمون عليه، ثم يأتون قبر أمير المؤمنين فيسلّمون عليه، ثم يأتون قبر الحسين

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣ / ٥٧.

(٢) المصدر ٣ / ١٧٢.

فيسلّمون عليه، ثم يعرجون إلى السماء قبل أن تطلع الشمس، ثم تنزل ملائكة النهار سبعون ألف ملك، فيطوفون بالبيت الحرام نهارهم، حتّى إذا غربت الشمس انصرفوا إلى قبر رسول الله فيسلّمون عليه، ثم يأتون قبر أمير المؤمنين فيسلّمون عليه، ثم يأتون قبر الحسين فيسلّمون عليه، ثم يعرجون إلى السماء قبل أن تغيب الشمس[1].

فالأخبار في هذا موجودة في كتب الفريقين، وليس الاعتقاد به من الغلوّ في شيء، وسيأتي المزيد من الروايات المفيدة ذلك.

بل لقد نقل مثل ذلك لغير أهل البيت في كتب العامّة، كقولهم بترجمة عمران بن حصين الصحابي أنه:

كانت الملائكة تسلّم عليه، وكانت الحفظة تكلّمه[2].

فإذا كان هذا الشأن لعمران بن حصين، فكيف بالصدّيقة الطاهرة وبضعة رسول الله وسيدة نساء العالمين والأئمّة المعصومين؟

نزولها في ليلة القدر

ثم إن ظاهر «مختلف الملائكة» هو الاستمرار، كما هو ظاهر قوله تعالى:

﴿**تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾[3].

ولذا ورد بذيل الآية المباركة نزول الملائكة في ليالي القدر على الإمام عليه السّلام في كلّ زمان:

عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال الله عزّوجلّ في ليلة القدر ﴿**فيهَا يُفْرَقُ**

(1) كامل الزيارات: 224 ـ 225.

(2) الاستيعاب 3 / 1208، أسد الغابة 4 / 138.

(3) سورة القدر، الآية: 5.

كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١] يقول: ينزل فيها كلّ أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين، إنّما هو شيء واحد، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف، فحكمه من حكم الله عزّوجلّ، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت. إنّه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأُمور سنة سنة، يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا، وفي أمر الناس بكذا وكذا، وإنّه ليحدث لوليّ الأمر سوى ذلك كلّ يوم علـم الله عزّوجلّ الخاصّ والمكنون العجيب المخزون، مثل ما ينزل في تلك اللّيلة مـن الأمر، ثمّ قرأ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢].

وعن أبي عبدالله عليه السّلام قال: كان عليّ بن الحسين صلوات الله عـليه يقول: ﴿**إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[٣] صدق الله عزّوجلّ، أنزل الله القرآن في ليلة القدر «وما أدراك ما ليلة القدر» قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لا أدري، قال الله عزّوجلّ ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾[٤] ليس فيها ليلة القدر، قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله: وهل تدري لم هي خير من ألف شهر؟ قال: لا، لأنّها تنزّل فيها الملائكة والروح بإذن ربّهم من كلّ أمر، وإذا أذن الله عزّوجلّ بشيء فقد رضـيه ﴿**سَلامٌ هِيَ حَتّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾[٥] يقول: تسلّم عليك ـ يا محمّد ـ ملائكتي وروحي بسلامي من أوّل ما يهبطون إلى مطلع الفجر.

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٤.

(٢) الكافي ١ / ١٩٢.

(٣) سورة القدر، الآية: ٢.

(٤) سورة القدر، الآية: ٤.

(٥) سورة القدر، الآية: ٥.

ثمّ قال في بعض كتابه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(١) في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال في بعض كتابه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) يقول في الآية الأولى: إنّ محمّداً حين يموت؛ يقول أهل الخلاف لأمر الله عزّوجلّ: مضت ليلة القدر مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فهذه فتنة أصابتهم خاصّة، وبها ارتدّوا على أعقابهم، لأنّهم إن قالوا: لم تذهب، فلابدّ أن يكون لله عزّوجلّ فيها أمر، وإذا أقرّوا بالأمر لم يكن له من صاحب بدٌّ.

وعن أبي جعفر عليه السّلام قال: يا معشر الشيعة خاصموا بسورة إنّا أنزلناه تفلجوا، فوالله إنّها لحجّة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإنّها لسيّدة دينكم، وإنّها لغاية علمنا.

يا معشر الشيعة، خاصموا بـ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾(٣) فإنّها لولاة الأمر خاصّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

يا معشر الشيعة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤) قيل: يا أباجعفر، نذيرها محمّد صلّى الله عليه وآله؟ قال: صدقت، فهل كان نذير وهو حيٌّ من البعثة في أقطار الأرض؟ فقال السائل: لا، قال أبو جعفر عليه السّلام: أرأيت بعيثه أليس نذيره، كما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله في بعثته من الله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٣) سورة الدخان، الآية: ١ ـ ٣.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

عزّوجلّ نذير؟ فقال: بلى، قال: فكذلك لم يمت محمّد إلّا وله بعيث نذير. قال: فإن قلت: لا، فقد ضيّع رسول الله صلّى الله عليه وآله من في أصلاب الرجال من أمّته، قال: وما يكفيهم القرآن؟ قال: بلى إن وجدوا له مفسّراً. قال: وما فسّره رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ قال: بلى، قد فسّره لرجل واحد، وفسّر للأمّة شأن ذلك الرجل، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السّلام.

قال السائل: يا أبا جعفر، كان هذا أمر خاصٌ لا يحتمله العامّة؟ قال: أبى الله أن يُعبد إلّا سرّاً حتّى يأتي إبّان أجله الّذي يظهر فيه دينه، كما أنّه كان رسول الله مع خديجة مستتراً حتّى أُمر بالإعلان، قال السائل: ينبغي لصاحب هذا الدين أن يكتم؟ قال: أو ما كتم عليٌّ بن أبي طالب عليه السّلام يوم أسلم مع رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى ظهر أمره؟ قال: بلى، قال: فكذلك أمرنا حتّى يبلغ الكتاب أجله[١].

من روايات عرض الأعمال عليهم

وكذلك الروايات الواردة في عرض أعمال العباد على الإمام عليه السّلام:

عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: تعرض الأعمال على رسول الله صلّى الله عليه وآله أعمال العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارِها فاحذروها، وهو قول الله تعالى: ﴿**اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾[٢] وسكت.

وعن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾ قال: هم الأئمّة.

---

(١) الكافي ١ / ٢٤٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

وعن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سمعته يقول: مالكم تسوؤن رسول الله صلّى الله عليه وآله؟! فقال رجلٌ: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤا رسول الله وسرّوه.

وعن عبدالله بن أبان الزيّات وكان مكيناً عند الرضا عليه السّلام قال: قلت للرضا: ادع الله لي ولأهل بيتي فقال: أولست أفعل؟ والله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كلّ يوم وليلة؛ قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عزّوجلّ: ﴿**اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾؟ قال: هو والله عليّ بن أبي طالب.

وعن يحيى بن مساور، عن أبي جعفر عليه السّلام أنّه ذكر هذه الآية: ﴿**اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ قال: هو والله عليٌّ بن أبي طالب.

وعن الوشّاء: قال: سمعت الرضا عليه السّلام يقول: إنّ الأعمال تعرض على رسول الله صلّى الله عليه وآله أبرارها وفجارها(١).

بل إن الملائكة الموكّلين بتدبير الأُمور، الذين أشار إليهم قوله تعالى: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾(٢).

يعرضون ما أُمروا به على الإمام عليه السّلام، كما في الخبر:

«ما من ملك يهبطه الله في أمرٍ، ما يهبطه إلّا بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه، وإن مختلف الملائكة من عند الله تبارك وتعالى إلى صاحب هذا الأمر»(٣).

---

(١) الكافي ١ / ١٧١.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٥.

(٣) الكافي ١ / ٢١٩.

قصة نادرة

هناك قصة حدثت في بيت جدّي المرجع الديني المرحوم السيّد محمّد هادي الميلاني قدس الله سرّه الذي مرّ على وفاته خمسة وثلاثون عاماً، فقد نقل لي من أثق به من الفضلاء قائلاً:

سافر أحد علماء طهران يوماً ما بصحبة أحد أصدقائه التجّار لزيارة الإمام الرضا عليه السّلام، وخلال أيام زيارتهم حصلوا على إذن من السيّد الميلاني للقاءه لقاءً خاصّاً في صبيحة أحد الأيام، إلّا أنّ الذي حدث للرجل التاجر صبح يوم الموعد أن نام بعد أداءه صلاة الصبح، فلمّا استيقظ وجد نفسه قد احتلم ووجب عليه الغسل. لكنه لاحظ أنه إن اغتسل فسيتخلّف عن الموعد المقرّر ولا يحظى بزيارة السيد، فقرّر أن يذهب حسب الوقت المقرر بحال الجنابة، ومما شجّعه على الذهاب هو أنّ رفيقه السيد العالم قال له: إن بيت السيد الميلاني ليس مسجداً حتى يحرم دخوله على الجنب، فذهب بصحبة العالم، وبعد انتهاء اللقاء، استدعاه السيد الميلاني رحمه الله وأسرّ إليه قائلاً: يا هذا، هذا المكان محلّ استنباط الأحكام الشرعية وتبيانها، ولهذا السبب فهو مهبط الملائكة باستمرار. فما كان من اللّائق دخولك إليه بهذه الحال.

فإذا كان هذا شأن السيد الميلاني قدس سرّه، فما بالك بالأئمّة عليهم السّلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

وخلاصة الكلام، إن الأئمّة عليهم السّلام تختلف إليهم الملائكة جيئة وذهاباً، عروجاً وهبوطاً، وإذا حصل شيء من هذا القبيل لآحاد من الصالحين، فهو ببركة ارتباطهم وقربهم من أهل بيت النبوّة عليهم السّلام، ولارتباط المكان ببيان أحكامهم الشرعية.

ثم إن ارتباط الملائكة بأهل البيت عليهم السّلام لم يكن ممّا حصل في هذا العالم، بل كان منذ وجود حقائقهم في عوالم النور. فكانت الملائكة تعرفهم وتتقرّب إليهم وتتلمذ على أيديهم، وتتعلّم منهم التحميد والتسبيح والتقديس وعبادة الله تعالى، فهو ارتباط كان منذ القدم(١).

وَ مَهْبِطَ الْوَحْيِ

«الوحي» لغةً

قال ابن منظور:

الوحي هو الإعلام في خفاء(٢).

وقال الفيروزابادي:

الوحي: كلّ ما ألقيته إلى غيرك فهو وحي(٣).

وقال الفيّومي:

الوحي: الإشارة والرّسالة والكتابة وكلّ ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وحيٌ كيف كان. قاله ابن فارس(٤).

فالمستفاد من كلمات أهل اللّغة هو العموم والإطلاق.

إن الوحي هو الإعلام والإلقاء بأيّ نحو كان الإعلام والإلقاء، وأيّ شيء كان المُعلَم والملقىٰ، ومن أيّ أحدٍ كان، إلى أيّ أحدٍ.

---

(١) أنظر: تاريخ الخميس ١ / ٢١.

(٢) لسان العرب ١٥ / ٣٨١.

(٣) القاموس المحيط ٤ / ٣٩٩.

(٤) المصباح المنير: ٦٥١.

وقد أوضح ذلك الراغب الإصفهاني في كلام طويل هذا موجزه:

أصل الوحي الإشارة السّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وعلى هذه الوجوه قوله:

﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ...﴾[1].

ويقال للكلمة الإلهيّة التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحي، وذلك أضرب حسبما دلّ عليه قوله: **﴿وَمٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْيًا بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ﴾**[2] وذلك: إمّا برسولٍ مشاهد كتبليغ جبرئيل للنبيّ في صورة معيّنة، وإمّا بسماعٍ كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء في الرّوع، وإمّا بإلهام نحو **﴿وَأَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾**[3] وإمّا بتسخير نحو قوله: **﴿وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾**[4] أو بمنام[5].

وإنما أوردنا كلّ ذلك، لئلّا يتوهّم اختصاص «الوحي» بما ينزل من الله على نبيّه شريعةً، فينسب إلينا الغلوّ في الأئمّة الأطهار عليهم السّلام، وحينئذٍ نقول:

ظاهر العبارة: أن الأئمّة هم «مهبط الوحي» لا أنهم أهل البيت الذي كان ينزل فيه الوحي الإلٰهي على جدّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، فهذا المعنى صحيح

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٥١٥.

ولا ريب فيه، إلّا أنه ليس بمرادٍ، لا سيّما وأنه كان في ذلك البيت غيرهم أيضاً.

وليس المراد هو «الوحي» بمعنى «الإلهام» وإنْ كان صحيحاً في نفسه، لأن هذا قد تحقّق لأُمّ موسى، وبينهم وبينها في الفضل بونٌ بعيد.

نزول الملائكة بالمعارف الإلٰهية

بل المراد ـ حسبما جاءت به النصوص ودلّت عليه بكلّ وضوح ـ ارتباط الملائكة بهم ومجيؤهم إليهم وإعلامهم بحقائق الدين وأسرار الشريعة والعلوم والمعارف الإلهية وبغيرها من الأُمور.

روى الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال: مرّ بأبي رجل وهو يطوف، فضرب بيده على منكبه ثم قال: أسألك عن خصال ثلاث لا يعرفهنّ غيرك وغير رجل آخر، فسكت عنه حتى فرغ من طوافه، ثم دخل الحجر فصلّى ركعتين وأنا معه، فلما فرغ نادى: أين هذا السائل؟

فجاء وجلس بين يديه. فقال له: سل، فسأله عن مسائل، فلمّا أُجيب قال: صدقت. ومضىٰ.

فقال أبي: هٰذا جبرئيل، أتاكم يعلّمكم معالم دينكم»[1].

الأئمّة محدَّثون

نعم، كانت الملائكة تهبط إليهم وتحدّثهم:

عن محمّد بن إسماعيل قال: سمعت أبا الحسن عليه السّلام يقول: الأئمّة علماء صادقون مفهّمون محدَّثون[2].

---

(١) علل الشرائع ٢ / ٤٠٧.

(٢) الكافي ١ / ٢٧١.

وعن محمّد بن مسلم قال: ذكر المحدّث عند أبي عبدالله عليه السّلام فقال: إنّه يسمع الصوت ولا يرى الشخص. فقلت له: جعلت فداك كيف يعلم أنّه كلام الملك؟ قال: إنّه يعطى السكينة والوقار حتّى يعلم أنّه كلام ملك.

وعن حمران بن أعين قال: قال أبو جعفر صلّى الله عليه وآله: إنّ عليّاً عليه السّلام كان محدّثاً، فخرجت إلى أصحابي فقلت: جئتكم بعجيبة، فقالوا: وما هي؟ فقلت: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: كان علي عليه السّلام محدّثاً. فقالوا: ما صنعت شيئاً، ألا سألته من كان يحدّثه؟ فرجعت إليه فقلت: إنّي حدَّثت أصحابي بما حدّثتني فقالوا: ما صنعت شيئاً، ألا سألته من كان يحدّثه؟ فقال لي: يحدّثه ملكٌ، قلت: تقول: إنّه نبيّ؟ قال: فحرّك يده ـ هكذا ـ: أو كصاحب سليمان أو كصاحب موسى أو كذي القرنين، أو ما بلغكم أنّه قال: وفيكم مثله[١].

وَ مَعْدِنَ الرَّحْمَةِ

«المعدن» لغة

قال الراغب:

جنّات عدن، أي استقرار وثُبات، وعَوَنَ بمكان كذا: استقرّ، ومنه: المعدن لمستقرّ الجواهر[٢].

وقال الفيّومي:

عَدَنَ بالمكان عدناً وعدوناً من بابي ضرب وقعد: أقام، ومنه جنّات عدن، أي: جنّات إقامة، واسم المكان: معدن، مثال مجلس، لأن أهله يقيمون عليه

(١) الكافي ١ / ٢٧١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٦.

الصيف والشتاء، أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيه عَدَن به، قال في مختصر العين: معدن كلّ شيء حيث يكون أصله...[١].

فالرحمة مستقرة مكينة في أهل البيت وهم الأصل لها، وقد جاء في الروايات وصفهم بـ«بيت الرحمة»:

«... نحن... بيت الرحمة»[٢].

ويقال: فلان معدن الجود والكرم، أي أن الجود والكرم من صفاته الذاتيّة لا تنفكّ عنه ولا تتخلّف.

ويعتبر في صدق عنوان «المعدن» أُمور:

أحدها: أن يكون الشيء ثميناً يتنافس العقلاء في الحصول عليه، فالأرض التي فيها أقسام من الحجر لا يصدق عنوان «المعدن» إلّا تلك القطعة المتوفّر فيها الأحجار الكريمة منها.

والثاني: أنْ يكون الشيء في المكان خافياً مستوراً يتطّلب تحصيله وحيازته جهداً، فلو كان على وجه الأرض مثلاً لم يسمّ بـ«المعدن».

والثالث: أنْ يكون الشيء مستقرّاً في المكان.

والرابع: أن يكون الشيء متولّداً من ذلك المكان لا أنه قد وضع فيه وأخفي كما هو الحال في الكنز.

وبما ذكرنا ظهر الفرق بين «المعدن» و«المخزن» و«الكنز».

وظهر أيضاً عدم الفرق بين الشيء المادّي والمعنوي، فإنّه إذا وجدت فيه الخصوصيّات المذكورة صدق عليه عنوان «المعدن»، ولذا جاء في الحديث:

---

(١) المصباح المنير: ٣٩٧.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٠٦ بتفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة[١].

أي: إن حقائق الناس وبواطنهم مختلفة، كما تختلف المعادن في حقيقتها أو في قيمتها ونفاستها.

الرحمة الإلَهية

فظهر كيف أن الأئمّة معدن الرحمة الإلَهية، فإن ذواتهم المقدّسة رحمة، ووجودهم رحمة، وكلّما وصل للناس من الرحمة الإلَهية فإنما هي بواسطتهم، ومن ينشد الرحمة يلجأ إليهم فيغمروه بها، لأنها بجميع أقسامها وأنواعها ومراتبها مستقرة وكامنة عندهم، فالأئمّة بلحاظ أصل خلقتهم «معادن رحمة الله» وبلحاظ ما أعطاهم من العلم والقدرة «خزائن رحمة الله».

والبحث عن الرحمة الإلَهية واسع ولا نهاية له، لأنه لا يحاط بها، كما أنها لا نهاية لها وقد وسعت كلّ شيء.

إن الصّفات العليا والأسماء الحسنى كلّها لله، وحده لا شريك له، وهي كثيرة، ولكنّه افتتح كلامه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وورد الأمر في الشريعة بالتلفّظ بهذين الاسمين لدى الشروع في أيّ أمرٍ من الأُمور، ولعلّه لأنّ الرحمة أساس كلّ شيء في الوجود، وكلّ الفيوضات والنعم الربّانية هي رحمة من الله، ومن الواضح أنّ أُولى جميع النعم التي منّ الله عزّوجلّ بها هي نعمة الوجود، وباقي النعم تتفرّع منها وتترتّب عليها....

إنّ جميع النعم المعنويّة والماديّة، الظاهريّة والباطنيّة... كلّها رحمةٌ من الله.

(١) من لا يحضره الفقيه ٤ / ٣٨٠.

آياتٌ في الرحمة الإلهيّة

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[١].

ففي الآية «كتب». قال الراغب:

ويعبّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة، ووجه ذلك: أنّ الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى، ثم يعبّر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أُريد توكيده بالكتاب التي هي المنتهى[٢].

فالله تعالى أثبت على نفسه -بمقتضى ربوبيّته- الرّحمة بجميع أنواعها وأقسامها.

* وقال سبحانه:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣].

دلّ على أنّ رحمته ونعمه في الدنيا تعمّ المؤمنين والكافرين، فهي تشمل كلْ شيء، أمّا في الآخرة فقد قال:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٤] أي للمؤمنين خاصّة.

* وقال تعالى:

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٥].

إذن، كتب على نفسه الرحمة الّتي هي خيرٌ ممّا يجمعون.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

دور الأئمّة في الرحمة الإلهيّة

وإنّ وجود الأئمّة عليهم السّلام رحمةٌ من الله للعالمين، لأنهم أوصياء جدّهم الرسول الأكرم الذي خاطبه الله عزّوجلّ بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[1]

وإن كلّ رحمةٍ تصيب أحداً من العالمين، فإنما هي بواسطة الإمام وببركة وجوده، لأنّ الإمام في كلّ زمان ـ كما قال سيدنا الجدّ الميلاني تبعاً لشيخه المحقق الإصفهاني ـ «فاعل ما به الوجود» كما أنّ الله تعالى: «فاعل ما منه الوجود»[2].

إنّ وجود الموجودات وكلّ ما يتفرّع على وجودها هو ببركة النبيّ الأكرم وآله المعصومين، والأدلّة على ذلك من الكتاب والسنة والعقل كثيرة، وسنذكر بعضها في الموضع المناسب، إن شاء الله تعالى.

وَخُزَّانَ الْعِلْمِ

قال الراغب:

الخزن: حفظ الشيء في الخزانة، ثم يعبَّر به عن كلّ حفظٍ كالسرّ ونحوه...[3].

والخزّان: جمع الخازن.

وقد وصف الأئمّة عليهم السّلام بـ«معدن العلم» أيضاً.

والعلوم على قسمين:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) الحاشية على المكاسب ٢ / ٣٨١.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٤٦.

١ ـ العلوم الدينيّة، وهي العلوم التي موضوعها الكتاب والسنّة النبوية.

٢ ـ العلوم الدنيويّة.

وظاهر وصفهم بـ«خزّان العلم» أنّ عندهم جميع العلوم الدينيّة وغيرها.

و«العلم» هو: اليقين[١].

وقال الراغب: ادراك الشيء بحقيقته[٢].

فهم عليهم السّلام خزّان كلّ العلوم وعالمون بها على وجه اليقين.

شأن العلم في الإسلام

ولا يخفى شأن العلم وقدره وقيمته في المنظور الإسلامي، وما ورد في الحثّ على طلب العلم وتحصيله لا يمكن إحصاؤه، ولقد بلغ قدر العلم حدّاً أوجب احترام العالم وإن كان كافراً كما هو الحال عند العقلاء، وذلك، لأن العلم نور وكمال، والجهل نقص وظلام.

نعم، تتفاوت العلوم في المرتبة، فلذا كان شرف العلم بشرف موضوعه، وكلّما كان الموضوع أشرف كان العلم أشرف، ومن هنا كانت العلوم الإلّهية أشرف من غيرها.

كما أن الغرض من طلب العلم يختلف:

فمن الناس من يطلب العلم لله وللأجر الأخروي.

ومنهم من يطلبه من أجل الفوائد الدنيويّة.

ومنهم من يطلبه لنفسه.

---

(١) المصباح المنير: ١٦٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٣.

لكنّه إذا طلب لله تحقّقت جميع الأغراض الماديّة والمعنويّة.

ثم إنّ طلب العلم في الإسلام لا يحدّ ولا يختصُّ بزمانٍ دون زمان، كما ورد:

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد»[١].

ولا بمكانٍ دون مكان، كما ورد:

«اطلبوا العلم ولو بالصّين»[٢].

ولا بحالٍ دون حال، كما ورد:

طلب العلم فريضة في كلّ حال[٣].

الأئمّة خزّان علم الله

وقد ورد في النصوص عنهم عليهم السّلام أنهم «خزنة علم الله» فعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السّلام:

«والله إنّا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة إلّا على علمه»[٤].

وعنه عليه السّلام:

«نحن خزّان علم الله، نحن تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة على من دون السّماء وفوق الأرض»[٥].

وعن الصّادق عليه السّلام:

---

(١) كشف الأسرار في شرح الاستبصار ١ / ٧٣.

(٢) بحار الأنوار ١ / ١٧٧، روضة الواعظين ١ / ١١، عوالي اللآلي ٤ / ٧٠، الأنساب ٣ / ٥٧٧ «الصيني».

(٣) وسائل الشيعة ٢٧ / ٢٧.

(٤) بصائر الدرجات: ١٠٣، الكافي ١ / ١٩٢، بحار الأنوار ٢٦ / ١٠٥.

(٥) الكافي ١ / ١٩٢.

«إن الله واحد متوحّد بالوحدانيّة متفرّد بأمره، فخلق خلقاً فقدّرهم لذلك الأمر، فنحن هم، فنحن حجج الله في عباده وخزّانه على علمه والقائمون بذلك»(١).

وعنه عليه السّلام:

«إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، فجعلنا خزّانه في سماواته وأرضه، ولولانا ما عرف الله»(٢).

ولا يخفى تأكيدهم عليهم السّلام على أنهم مخلوقون لله، فلا يتوهّم من كونهم «خزان علم الله» أنهم شركاء لله، بل إنّ الله تعالى خَلقَهم وأحسن صورهم وقدّرهم لذلك.

خزّان علم الرّسول

والأئمّة عليهم السّلام خزّان علم رسول الله صلّى الله عليه وآله، والأحاديث الواردة في ذلك في كتب الفريقين صحيحة سنداً وكثيرة عدداً، فمنها:

قوله صلّى الله عليه وآله:

أنا مدينة العلم وعلي بابها(٣).

وقوله:

أنا دار الحكمة وعلي بابها(٤).

---

(١) الكافي ١ / ١٩٣، بصائر الدرجات: ١٠٤.

(٢) بصائر الدرجات: ١٠٥.

(٣) حديث ثابت مشهور، روته الخاصّة والعامّة، أنظر: تهذيب الآثار ـ مسند علي ـ: ١٠٥، جامع الأصول ٨/ ٦٥٧، المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٦، المعجم الكبير ١١ / ٦٥، تهذيب الكمال ٢٠ / ٤٨٥، الاستيعاب ٣ / ١١٠٣، تاريخ بغداد ٤ / ٣٤٨، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٣١.

(٤) حديث ثابت مشهور، روته الخاصّة والعامّة، أنظر: سنن الترمذي ٦ / ٨٥، مشكاة المصابيح ٢ / ٥٠٤، تهذيب الآثار ـ مسند علي ـ: ١٠٤، حلية الأولياء ١ / ٦٤، الرياض النضرة ٢ / ١٥٩، الجامع الصغير ١ / ٤١٥.

وقوله لعلي:

أنت تبيّن لأُمّتي ما اختلفوا فيه من بعدي[١].

ومن هنا قال صلّى الله عليه وآله:

معاشر الناس، ما من علمٍ إلّا علّمنيه ربّي وأنا علّمته عليّاً وقد أحصاه الله فيّ، وكلّ علم علمت فقد أحصيته في إمام المتّقين، وما من علمٍ إلّا علّمته عليّاً[٢].

خزّان علم الكتاب

وجميع حقائق القرآن الكريم والعلوم المودعة فيه عند الأئمّة الطّاهرين من أهل البيت عليهم السّلام، والأحاديث الواردة بذيل الآيات الكريمة كقوله تعالى:

﴿قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾[٣].

ناطقة بذلك بكلّ وضوح، وهذه طائفة ممّا ورد منها في الآية المذكورة:

روى الحافظ أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن عبدالله بن عطا، قال: كنت جالساً مع أبي جعفر في المسجد فرأيت عبدالله بن سلام فقلت: هذا الذي عنده علم الكتاب؟ فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب عليه السّلام[٤].

وروى بإسناده عن محمّد بن الحنفيّة في الآية:

قال: هو علي بن أبي طالب[٥].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٢، ترجمة علي من تاريخ دمشق ٢ / ٤٨٧، حلية الأولياء ١ / ٦٤، كنز العمال ١ / ٦١٥.

(٢) الاحتجاج على أهل اللجاج ١ / ١٤٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٤) بناء المقالة الفاطمية: ٢٢٠ عن تفسير الثعلبي.

(٥) العمدة لابن البطريق: ٢٩١، عن الثعلبي.

وروى الحافظ الشيخ ابن شهرآشوب من طريق الخاصّة والعامّة:

عن محمّدبن مسلم وأبي حمزة الثمالي وجابر بن يزيد عـن البـاقر عـليه السّلام.

وعن علي بن فضال والفضيل بن يسار وأبي بصير عن الصّادق عليه السّلام.

وعن أحمد بن محمّد الحلبي ومحمّد بن الفضيل عن الرّضا عليه السّلام.

عن موسى بن جعفر عليه السّلام

وعن زيد بن علي عليه السّلام

وعن محمّد بن الحنفية

وعن سلمان الفارسي

وعن أبي سعيد الخدري

أنهم قالوا: في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ﴾ هو علي بن أبي طالب عليه السّلام.

وروى أنه سئل سعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ﴾ عبدالله بن سلام؟

قال: لا، فكيف وهذه السّورة مكية.

وروى عن ابن عباس: لا والله ما هو إلّا علي بن أبي طالب عليه السّلام، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام.

وروى عن ابن الحنفية: علي بن أبي طالب عنده علم الكتاب الأوّل والآخر.

رواه النطنزي في الخصائص من طريق المخالفين.

ورواه الثعلبي بطريقين في معنى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ﴾[١].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ / ٣٠٩.

وروى الفقيه ابن المغازلي الشافعي بإسناده عن علي بن عابس قال:

دخلت أنا وأبو مريم على عبدالله بن عطاء، قال أبو مريم: حدّث عليّاً الحديث الذي حدّثتني عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السّلام جالساً إذ مرّ عليه ابن عبدالله بن سلام، قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: «لا، ولكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ﴾ ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذينَ آمَنُوا﴾»[١].

وروى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني بإسناده عن ابن الحنفيّة في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ قال: علي بن أبي طالب عليه السّلام[٢].

وروى الشيخ الصفّار عن أبي جعفر عليه السّلام أنه قال في الآية «نزلت في علي بن أبي طالب إنه عالم هذه الأمة بعد النبي صلّى الله عليه وآله»[٣].

وروى بإسناده عن سلمان الفارسي عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنه قال في الآية: «أنا هو الذي عنده علم الكتاب، وقد صدّقه الله وأعطاه الوسيلة في الوصيّة، فلا تخلى أمة من وسيلته إليه وإلى الله فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسيلَةَ﴾»[٤].

وروى الشيخ ابن بابويه بإسناده عن أبي سعيد الخدري: قال سألت رسول

---

(١) مناقب ابن المغازلي: ١٩٤.

(٢) خصائص الوحي المبين: ٢١٣، شواهد التنزيل ١/ ٣٠٩ ـ ٤٠١.

(٣) بصائر الدرجات: ٢١٦.

(٤) المصدر: ٢١٦.

الله صلّى الله عليه وآله عن قول الله جلّ ثناؤه: ﴿قٰالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتٰابِ﴾ قال: «ذاك وصي أخي سليمان بن داود» فقلت له: يا رسول الله فقول الله: ﴿قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ﴾ قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب»(١).

ومن هنا قال رسول الله:

«علي مع القرآن والقرآن مع علي»(٢).

وورد عنهم عليهم السّلام:

«علم الكتاب ـ والله ـ كلّه عندنا»(٣).

خزّان علم الغيب

والأئمّة عليهم السّلام يعلمون الغيب بإذن الله، فقد ورد بتفسير «الكتاب المبين» في قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَيْبِ لٰا يَعْلَمُهٰا إِلّٰا هُوَ... وَمٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّٰا يَعْلَمُهٰا... إِلّٰا في كِتٰابٍ مُبينٍ﴾.

أنه الإمام(٤).

وقال الله تعالى:

﴿عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلٰا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّٰا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾(٥).

---

(١) أمالي الصدوق: ٦٥٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٧٩، المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٤.

(٣) بصائر الدرجات: ٢٥١، الكافي ١ / ٢٥٧.

(٤) تفسير العياشي ١ / ٣٦١، والآية في سورة الأنعام: ٥٩.

(٥) سورة الجن، الآية: ٢٦ و ٢٧.

وقال سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[١].

فقال الرّضا عليه السّلام:

فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما شاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[٢].

إمامتهم وسيرتهم

ثمّ إنّ من شرائط الإمامة هي الأعلميّة من جميع أفراد الأُمّة في كلّ زمان، ولذا كان ما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في علم أمير المؤمنين عليه السّلام من أدلّة إمامته وخلافته بعد رسول الله....

ويشهد بأعلميتهم سيرتهم الذاتيّة، فمن راجع أحوالهم وتدبّر فيما ورد عنهم وما قيل في حقّهم من كبار العلماء المعاصرين لهم والمتأخّرين، لم يتردّد في كونهم «خزّان العلم».

لقد ثبت أنّ جميع العلوم الإسلاميّة إنما انتشرت في سائر البلاد بواسطة أمير المؤمنين عليه السّلام ثمّ الأئمّة من ولده. هذا بالنسبة إلى علوم القرآن والفقه والحديث وغيرها من العلوم المتداولة بين المسلمين. لكنّه عليه السّلام يقول:

«فوالله، إني لطرق السّماء أعلم منّي بطرق الأرض»[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

(٢) الخرائج والجرائح ١ / ٣٤٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة: ١٨٩.

كما ثبت عنه قوله عليه السّلام:

«سلوني قبل أن تفقدوني»[١].

وهو مطلق لا يختصُّ بعلمٍ دون علم.

قال الحافظ ابن عبدالبرّ:

«قال أحمد بن زهير: وأخبرنا إبراهيم بن بشار قال: حدّثنا سفيان بن عيينة حدثنا يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال:

ما كان أحد من الناس يقول: سلوني، غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[٢].

وكم شكا عليه السّلام من عدم سؤال الناس منه، وأنه لا يجد حملة لما يعلمه من العلوم، فكان يقول:

«إن هاهنا لعلماً جمّاً لو أصبت له حملةً»[٣].

قبح تقدم المفضول

وإذا كان علي عليه السّلام بهذه المنزلة من العلم، وأكابر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يجهلون أبسط الأُمور وأوضح الأحكام، بل يجهلون حتى معاني ألفاظ القرآن الكريم كلفظ «الكلالة»[٤]، وينادي أحدهم بأعلى صوته «لولا علي لهلك عمر»[٥].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٨٩.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١ / ٣٤٠.

(٣) الخصال: ٦٤٥، كمال الدين: ٢٩١.

(٤) بحار الأنوار ١٠ / ٢٣٠، تاريخ الخلفاء: ٩٣، الدر المنثور ٢ / ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٥) الكافي ٧ / ٤٢٤، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣ / ١١٠٣.

وإذا كان ـ كما قال الأمير عليه السّلام ـ:

«قيمة كلّ امرئ ما يحسنه»(١).

فبأيّ وجهٍ عقليٍّ وشرعيّ وعقلائيّ يتقدّم عليه غيره؟

إنه حتّى لو كانت الإمامة والخلافة عن رسول الله بتنصيبٍ من النّاس، فإن أولئك الجهّال لم يكونوا مؤهّلين لذلك المنصب العظيم والمقام الرفيع، أليس من المقرّر عند العقلاء: عدم جواز تقدّم المفضول على الفاضل؟!

وَ مُنْتَهَى الْحِلْمِ

إن من يتحمّل النوائب التي ترد على الإنسان، والتي من طبيعتها إثارة غضبه، فيضبط نفسه، ولا يفعل ولا يقول شيئاً منافياً للأخلاق الفاضلة... يوصف بـ«الحلم». لأن الحلم ـ كما قال الراغب ـ:

ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب(٢).

وهكذا كان أهل البيت عليهم الصّلاة والسّلام، بل إنهم قد بلغوا في هذا الوصف منتهاه، لأنّ الذي لاقوه من الأذى والمصيبة لم يلقه أحدٌ من هذه الأمّة، فكانوا غايةً في الحلم والصبر والتحمّل، وهم القدوة والاسوة في هذه الصّفات ولا مثيل لهم في ذلك.

الفرق بين الحلم والصبر

ولكنّ «الصبر» أعم من «الحلم» وأوسع دائرة، ولذا قال الراغب:

---

(١) بحار الأنوار ١ / ١٦٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٢٩.

«الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام...»[١].

ويشهد بذلك قول أمير المؤمنين عليهم السّلام:

الصبر صبران، صبر على ما تحبّ وصبر على ما تكره»[٢].

وفي رواية أخرى:

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطّاعة وصبر عن المعصية»[٣].

المراد من «المنتهى»

وقد أشرنا إلى أن كلمة «المنتهى» هنا تحتمل معنيين:

أحدهما: أن الأئمّة عليهم السّلام في أعلى درجات الحلم، لأنّ الناس متفاوتون في هذه الصّفة كغيرها من الصفات، لكنّ الأئمّة قد حازوا أسمى تلك الدرجات وأعلاها، فلا يدانيهم أحدٌ في هذه الصّفة الكريمة.

والثاني: أن الأئمّة هم القدوة والأُسوة في الحلم، ومنهم تعلّم الناس هذه الصّفة وبهم اقتدوا فيها، فهم معين الحلم ومنبعه وإليهم ينتهي وهم الأصل له كما في الصّفات الأخرى والكمالات العليا... وإنّ من تحلّى بهذه الصفة فقد استقاها منهم عليهم السّلام.

وخير شاهد على ذلك ما ظهر على شيعة آل البيت عليهم السّلام من التحلّي بالصبر والحلم في مواجهتهم للمصاعب والمصائب على مرّ العصور مما جرّت عليهم الويلات والمحن، فثبتوا وصبروا اقتداءً بأئمتهم واقتفاء آثارهم في

---

(١) المصدر: ٢٧٣.

(٢) نهج البلاغة ٤ / ١٤.

(٣) الكافي ٢ / ٩٢، وسائل الشيعة ١٥ / ٢٣٨.

بالاستقامة أمام ما لاقوه من أعدائهم. ولذلك كانت مصائبهم عليهم السّلام ما يسلّي شيعتهم ويسكّن آلامهم ويداوي جراحاتهم، ومعيناً للصبر والمصابرة والمرابطة على مرّ الدهور في طريقهم الذي قلّ سالكوه.

وقد يفسّر «الحلم» بـ«العقل» وهو هنا صحيح أيضاً، لكنّه ليس بمرادٍ لما سيأتي من وصف الأئمّة بـ«أُولي النهى».

لكن الراغب يقول: قال الله تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾[١].

قيل: معناه عقولهم.

وليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكنْ فسّروه بذلك لكونه من مسبّبات العقل، وقد حلم وحلّمه العقل وتحلّم...[٢].

إشارة إلى حلم النّبي

وقد بلغ رسول الله وأهل بيته الغاية في الحلم والعقل، وذلك ظاهر تماماً من أقوالهم وسيرتهم المباركة، وتلك كلمة الرسول الأعظم الخالدة، إذ قال:

«ما أُوذي نبيّ بمثل ما أُوذيت»[٣].

وهو القائل مع ذلك:

«اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[٤].

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٢٩.

(٣) بحار الأنوار ٣٩/ ٥٦.

(٤) إعلام الورى ١/ ١٢٠، بحار الأنوار ٢٠/ ٢٠ ـ ٢١.

وأمّا عملاً، فتلك معاملته في يوم الفتح مع أهل مكّة الذين آذوه بما لا يقبل الوصف، ثمّ أخرجوه... قال لهم: إذهبوا فأنتم الطلقاء[١].

إشارة إلى حلم الأئمّة

وبهذا امتاز الأئمّة عليهم السّلام:

فهذا الإمام الحسن السّبط الأكبر الذي تعجّب من حلمه الناس، فقد تحمّل أنواع الأذى من الأعداء وممّن يدّعي الحبّ له، وكم جرّعوه الغصص والآلام حتى قضى نحبه مسموماً شهيداً.

روى المدائني عن جويرية بن أسماء قال:

لمّا مات الحسن عليه السّلام، أخرجوا جنازته، فحمل مروان بن الحكم سريره، فقال له الحسين عليه السّلام:

تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ؟

قال مروان:

نعم، كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال»[٢].

والإمام الحسين عليه السّلام لاقى ما لاقى من معاوية فحلم وتحمّل....

وحلم الإمام السجّاد عليه السّلام وصبره على المصائب التي أصابته والأسر الذي وقع فيه لا يوصف.

وكذلك سائر الأئمّة الأطهار عليهم السّلام.

---

(١) الكافي ٣/ ٥١٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ١٤٥ـ١٤٦.

رواياتُ في الحلم

والأخبار عن النبي وآله في الحلم لا تحصى كثرة، ونحن نكتفي بإيراد أخبار باب الحلم في كتاب الكافي:

عن محمّد بن عبيدالله قال: سمعت الرّضا عليه السّلام يقول: لا يكون الرّجل عابداً حتّى يكون حليماً: وإنّ الرّجل كان إذا تعبّد في بني إسرائيل لم يعدّ عابداً حتّى يصمت قبل ذلك عشر سنين.

عن أبي حمزة قال: المؤمن خلط عمله بالحلم، يجلس ليعلم، وينطق ليفهم، لا يحدّث أمانته الأصدقاء، ولا يكتم شهادته الأعداء، ولا يفعل شيئاً من الحقّ رياء ولا يتركه حياء، إن زكّي خاف ممّا يقولون، واستغفر الله ممّا لا يعلمون، لا يغرّه قول من جهله ويخشى إحصاء ما قد عمله.

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: كان عليّ بن الحسين عليهما السّلام يقول: إنّه ليعجبني الرَّجل أن يدركه حلمه عند غضبه.

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام: قال: إنّ الله عزّوجلّ يحبّ الحيّي الحليم.

عن عليّ بن حفص العوسي الكوفي، رفعه إلى أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ما أعزّ الله بجهل قطّ ولا أذلّ بحلم قطّ.

عنه، عن بعض أصحابه، رفعه قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام: كفى بالحلم ناصراً؛ وقال: إذا لم تكن حليماً فتحلّم.

عن حفص بن أبي عائشة قال: بعث أبو عبدالله عليه السّلام غلاماً له في حاجة فأبطأ، فخرج أبو عبدالله عليه السّلام على أثره لمّا أبطأ، فوجده نائماً، فجلس

عند رأسه يروّحه حتّى انتبه، فلمّا تنبّه قال له أبو عبدالله عليه السّلام: يا فلان والله ما ذلك لك، تنام اللّيل والنّهار، لك اللّيل ولنا منك النّهار.

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف.

عن سعيد بن يسار، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان، فيقولان للسّفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت، ستجزّى بما قلت. ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت، سيغفر الله لك إنْ أتممت ذلك. قال: فإن ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان».

وَأُصُولَ الْكَرَمِ

«الأصل» لغة

«الأصول» جمع «الأصل».

يقال: أصل هذا البناء كذا. أي: قاعدته.

وأصل هذه الشجرة كذا، أي: جذره.

وفلان وفلان من أصل واحد، أي: يرجعان إلى جدٍّ واحدٍ ونسبٍ واحد.

وأصل هذا النهر هو المحلّ الفلاني، أي: منبعه.

والمعنى في جميع هذه الإطلاقات واحدٌ وإنْ كان بينها فرق بالاعتبار.

ومن هذا الباب قولنا: اصول الدين وفروع الدين، لأنّ الأصل هو القاعدة، فالأحكام الشرعيّة مبنيّة على تلك القواعد، أو أن الأصل هو ما يتفرّع منه، فالأحكام الشرعيّة متفرّعة من اصول الدين الإسلامي، وكلّها راجعة إليها، وهي المنشأ لها.

«الكرم» لغة

و«الكرم» متى ما أُطلق بالإضافة إلى الإنسان، أُريد منه تلك الصّفة المعروفة من الأخلاق الفاضلة، ولكنّ المقصود هنا ـ والله العالم ـ أوسع منه، وذلك ما أفاده الراغب بقوله:

«وكلّ شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم»(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾(٤).

وقوله تعالى:

﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾(٥).

وأوضح منه عبارة الفيومي إذ قال:

«كرم الشيء كرماً نَفُسَ وعزّ، فهو كريم والجمع كرام... وكرائم الأموال: نفائسها وخيارها...(٦).

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٨.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٥٨.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ٤٠.

(٦) المصباح المنير: ٥٣١.

ومن ذلك قولهم عن المرأة الجليلة في أُسرتها: كريمة آل فلان... وعليه جاء الحديث:

من زوّج كريمته من شارب الخمر فقد قطع رحمها[١].

وعلى الجملة، فإنّ أهل البيت الطاهرين ـأعني محمّداً وآله عليهم السّلام ـ هم الأصل لكلّ شرفٍ وعزٍّ وفخر، وكلّ ما في الوجود من الشرف فمتفرّع على شرفهم، وكلّ من عنده شيء من ذلك فمنهم أخذ... لأنّ الله تعالى شرّفهم على سائر الخلائق أجمعين، والأحاديث في ذلك قطعيّة، وقد تقدم بشرح: «السّلام عليكم يا أهل بيت النبوّة» بعض ذلك، وسيأتي في الموضع المناسب ذكر الأحاديث في أن محمّداً وآله خيارٌ من خيار من خيار....

وَقَادَةَ الأُمَمِ

«القادة» جمع «القائد»، والقود: أنْ يكون الرجل أمام الدابّة آخذاً بقيادها[٢] كما أنّ السّوق: أن يكون الرّجل خلف الدابّة[٣].

الأُمم لغة

و«الأُمم» جمع «الأُمّة»، والمراد: أمم الأنبياء بما فيهم أُمّة الإسلام، أو أن المراد: الخلق كلّهم[٤].

فالأئمّة عليهم السّلام قادة الأُمم إلى معرفة الله وعبادته وطاعته، وإلى

---

(١) الكافي ٥ / ٣٤٧.

(٢) مجمع البحرين ٣ / ١٣٣.

(٣) لسان العرب ٣ / ٣٧٠.

(٤) مجمع البحرين ٦ / ١٢.

المعارف الحقّه ومكارم الأخلاق....

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾[١].

وعن الباقر عليه السّلام: «لمّا نزلت هذه الآية قال المسلمون: يا رسول الله، ألست إمام الناس كلّهم أجمعين؟

فقال: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكنْ سيكون من بعدي أئمّة الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس، فيكذّبون ويظلمهم أئمّة الكفر والضلال وأشياعهم. فمن والاهم واتّبعهم وصدّقهم فهو منّي ومعي وسيلقاني، ألا، ومن ظلمهم وكذّبهم فليس مني ولا معي وأنا منه برئ»[٢].

النبي والأئمّة قادة الأنبياء

وقد تقدّم أنّ الله أخذ ميثاق رسول الله وأميرالمؤمنين عليهما السّلام من الأنبياء السّابقين، كما تقدّم أن الأنبياء السّابقين قد بعثوا على نبوة نبيّنا وولاية علي عليهما السّلام.

وروي عن مولانا الصّادق عليه السّلام أنه قال: قوله عزّوجلّ:

﴿وَإِنَّ مِنْ شيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

أي: إن إبراهيم عليه السّلام من شيعة النبي صلّى الله عليه وآله، فهو من شيعة علي عليه السّلام. وكلّ من كان شيعة علي فهو من شيعة النبيّ[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

(٢) تفسير الصافي ٣/٢٠٦ عن الكافي والعياشي.

(٣) سورة الصّافات، الآية: ٨٣.

(٤) تأويل الآيات ٢/ ٤٩٥.

قال شرف الدين النجفي[١]:

وممّا يدلّ على أن إبراهيم وجميع الأنبياء والمرسلين من شيعة أهل البيت: ما روي عن الصّادق عليه السّلام أنه قال: ليس إلّا الله ورسوله ونحن وشيعتنا. والباقي في النار[٢].

ثم إنّ الله عزّوجلّ يقول:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

وسواء فسّر «ليعبدون» أي: ليعرفون[٤] أو أبقي على ظاهره كما في الأخبار[٥]... فقد قال الإمام عليه السّلام: بنا عرف الله، بنا عبدالله[٦]، فكانوا هم القادة للجنّ والإنس.

قادة الملائكة إلى العبادة

وأمّا الملائكة، فقد ورد في كتب الفريقين: أن الملائكة تعلّموا العبادة لله من أهل البيت عليهم الصّلاة والسّلام:

«عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: كنت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم عزّوجلّ بألفي عام، يسبّح ذلك النور فتسبّح الملائكة بتسبيحه، فلمّا خلق الله تعالى آدم ألقى ذلك النور في صلبه فقال صلّى الله

(١) هو صاحب كتاب: تأويل الآيات الظاهرة في فضل العترة الطّاهرة.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٤ / ٦٠٠.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) الرواشح السماوية: ٤٥، تفسير أبي السعود ٢ / ١٣٠.

(٥) البرهان في تفسير القرآن ٥ / ١٧١.

(٦) كفاية الأثر: ٣٠٠.

عليه وسلّم: فأهبطني الله تعالى إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذفني في صلب إبراهيم، ثم لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط»[١].

ورواه الديار بكري باختلاف يسير عن ابن عباس عن النبي أنه قال:

«كنت نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق الله عزّوجلّ آدم بألفي عام، يسبّح الله ذلك النور وتسبّح الملائكة بتسبيحه، فلمّا خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح في السّفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من أبوي، لم يلتقيا على سفاح قط»[٢].

أقول: ومع هذه الفضيلة الحاصلة لعلي، كيف يقدّم عليه من لم تحصل له، بل له سابقة كفر قبل إسلامه؟!

هم القادة في الآخرة إلى الجنّة

ثم إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم قادة الأُمم في الآخرة، فإنّ الأُمم كلّها وأنبيائهم يدخلون الجنّة تحت راية محمّد وهي بيد علي، فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

يا أيّها الناس، نحن في القيامة... وعلي بن أبي طالب على ناقةٍ من نوق الجنة... بيده لواء الحمد وهو ينادي يوم القيامة: لا إلٰه إلّا الله محمّد رسول الله[٣].

---

(١) المنتقى من سيرة المصطفى للكازروني ـ مخطوط.

(٢) تاريخ الخميس ١ / ٢١.

(٣) عيون أخبار الرضا ١ / ٥٣، بحار الأنوار: ٧ / ٢٣١.

فهم قادة جميع الخلائق في كلّ العوالم والنشئات، وبهم المعرفة والعبادة والطاعة والنجاة في يوم القيامة.

رجوع الحكّام إليهم في المعضلات

فعلى من أراد الإيمان والمعرفة والعلم والهداية والدخول في الجنة، أن يقتدي بأهل بيت رسول الله ويتّبعهم ويطيعهم في كلّ شيءٍ، وهذا ما قد نجده في أقوال المخالفين لهم أيضاً، فقد روى ابن حجر المكي عن الدارقطني أنه جاء عمر أعرابيّان يختصمان، فقال لعلي:

إقض بينهما يا أبا الحسن.

فقضى علي بينهما.

فقال أحدهما للآخر: هذا يقضي بيننا؟

فوثب إليه عمر وأخذ بتلبيبه وقال:

ويحك، ما تدري من هذا؟

هذا مولاي ومولى كلّ مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن»[١].

وهكذا نجد في التاريخ رجوع غير واحد من الحكّام العباسيين إلى الأئمّة الطاهرين في حلّ المشكلات ورفع المعضلات.

ولذا، فقد اضطرّ بعض المتكلّمين من أهل السنّة ـوهو الشيخ عبدالعزيز الدهلوي، صاحب كتاب التحفة الاثنى عشرية ـ إلى الإعتراف بإمامة الأئـمّة وقيادتهم للأُمّة في عالم المعنى، فإنه ـبعد أن وجد نفسه عاجزاً عن الجواب عن الأدلّة العلمية المتقنة والمستندة إلى الكتاب والسنّة والعقل، الدالّة على إمامة علي

(١) الصواعق المحرقة: ١٠٧، الرياض النضرة: ٢ / ٢٢٤، ذخائر العقبى: ٦٧.

عليه السّلام بلا فصل، ووجد الحكّام الغاصبين يجهلون أبسط المسائل في الشرع المبين، ورأى رجوعهم مراراً إلى الأئمّة الطاهرين ـ قسّم الإمامة إلى قسمين، فزعم أنّ الإمامة الظاهرية ـ أي الحكومة ـ لأولئك الذين غلبوا على الأمر وتصدّوا للرياسة بالزور والقهر. وأنّ الإمامة المعنوية لعليٍّ وأولاده المعصومين.

ولا يخفى أن هذا التقسيم وإنْ كان باطلاً من أصله، لأنّ الحكومة شأن من شئون الإمام الإلّهي القائم مقام النبيّ، إلّا أنه يتضمّن الاعتراف بحقيقةٍ لا مناص لهم من الاعتراف بها، وهي قيادة الأئمّة للأُمّة في المعارف الحقّة والتعليم. وأمّا دعوى كون الإمامة الظاهرية والسّلطة للغاصبين، فلا دليل لهم عليها إلّا أنهم يحاولون تبرير الأمر الواقع.

وَ أَوْلِيَاءَ النِّعَمِ

أقسام النعمة

لا شك أن جميع النعم من الله سبحانه، كما قال عزّ من قائل:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾(١).

ومن الواضح أن نعمه لا تحصى، وكما قال:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لَا تُحْصُوهَا﴾(٢).

والنعم على قسمين:

النعمة الماديّة.

النعمة المعنويّة.

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

وكلّ قسم على قسمين:

النعمة الظاهريّة.

النعمة المعنويّة.

قال تعالى:

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[١].

والنعمة ـ كما قال الراغب ـ هي: الحالة الحسنة....

والنعماء بإزاء الضرّاء قال:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾[٢].

وعلى الجملة، فإن الألف واللّام في «النعم» للعموم، فكلّ نعمة ماديّة أو معنويّة، ظاهرة أو باطنة، صغيرة أو كبيرة، وكلّ ماله دخلٌ في طيب الحياة وحسن الحال، من الشمس والقمر والهواء... وأعضاء البدن، والمال، والزوجة المطيعة والولد الصالح وغير ذلك، فإنّ النبيّ وأهل بيته الطّاهرين هم «الأولياء» لها، ومن المعلوم أن أفضل النعم ـ بعد الوجود ـ هو الإيمان والمعرفة....

و«الأولياء» جمع الوليّ، وقد فسّره مولانا الصّادق عليه السّلام بتفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾[٣].

بقوله: «يعني: أولى بكم، أي أحقّ بكم وبأُموركم من أنفسكم وأموالكم، الله ورسوله والذين آمنوا، يعني: علياً وأولاده الأئمّة إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٤) الكافي ١ / ٢٨٨.

فالولي وجمعه «الأولياء» هو الذي يكون أحقّ بمن له الولاية عليه وماله من نفسه، كما في قولنا: وليّ المرأة زوجها، ووليّ الصغير والده، وهكذا، وهذا ما نصّ عليه اللغويون أيضاً، وأوضحناه تماماً بتفسير الآية المباركة، وكذا بشرح قوله صلّى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» في كتابنا الكبير[١].

وجود النبيّ والأئمّة نعمة

إنه كما أنّ بعثة رسول الله صلّى الله عليه وآله نعمة لا تقدّر، ولذا قال عزّ وجلّ:
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾[٢].
كذلك أصل وجود الأئمّة... كما جاء بتفسير قوله تعالى:
﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٣].
قال الحاكم الحسكاني:

حدّثونا عن أبي بكر السبيعي [قال:] حدّثنا عليّ بن العباس المقانعي، حدّثنا جعفر بن محمّد بن الحسين، حدّثنا حسن بن حسين [قال:] حدّثنا أبو حفص الصائغ [عمر بن راشد] عن جعفر بن محمّد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: نحن النعيم. وقرأ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾.

فرات قال: حدّثني عليّ بن العباس، حدثنا الحسن بن محمّد المزني، حدّثنا الحسن بن الحسين، عن أبي حفص قال: سمعت جعفر. به سواء.

[وأيضاً قال فرات:] حدّثني علي بن محمّد بن مخلد الجعفي، حدّثنا

---

(١) نفحات الأزهار، الأجزاء: ٦، ٧، ٨، ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة التكاثر، الآية: ٨.

إبراهيم بن سليمان، حدّثنا عبيد بن عبدالرحمان التيمي، حدّثنا أبو حفص الصائغ قال: قال عبدالله بن الحسن [في قوله تعالى]: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعيمِ﴾ [قال: يعني] عن ولايتنا، والله يا أبا حفص.

وعن أمير المؤمنين عليه السّلام: ما بال أقوام غيّروا سنّة رسول الله وعدلوا عن وصيّه، لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب، ثم تلا هذه الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ * جَهَنَّمَ﴾[١].

ثمّ قال: نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة[٢].

ولايتهم نعمة

وولايتهم أيضاً نعمة... فعن الباقر عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها﴾[٣]:

قد عرفّهم ولاية علي وأمرهم بولايته ثم أنكروا بعد وفاته[٤].

ولولا وجود إمامٍ على وجه الأرض في كلّ زمان، لما بقيت الأرض ولساخت بأهلها، كما في نصوص الفريقين:

... عن أبي جعفر عليه السّلام قال قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: وإني

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.

(٢) شواهد التنزيل ٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٣.

(٤) بحار الأنوار ٣٥/ ٤٢٤.

وأحد عشر من ولدي، وأنت ـ يا علي ـ زرّ الأرض ـ أعني أوتادها وجبالها ـ بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم يُنظروا»(١).

وعن يزيد الرقاشي عن أنس قال قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: لا يزال هذا الدين قائماً إلى اثني عشر أميراً من قريش، فإذا مضوا ساخت الأرض بأهلها»(٢).

وعن الحسن بن علي عليه السّلام قال: خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه:

معاشر الناس، كأني أُدعى فأُجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا، فتعلّموا منهم ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، لا تخلو الأرض منهم ولو خلت إذاً لساخت بأهلها...»(٣).

وعن أبي عبدالله عليه السّلام في حديث:

واعلموا أنّ الأرض لا تخلو من حجةٍ لله، ولكن الله سيعمي خلقه منها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم، ولو خلت الأرض ساعةً واحدةً من حجة لله لساخت بأهلها...(٤).

كلّ النعم بواسطتهم

وعلى الجملة، فإنّ جميع النعم التي أنعم الله بها على العباد، فإنما هي بواسطة محمّد وأهل بيته عليهم الصّلاة والسّلام، وهذا من جملة منازلهم عند الله

---

(١) بحار الأنوار: ٣٦ / ٢٥٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ / ٢٩٠.

(٣) بحار الأنوار ٣٨ / ٣٣٨.

(٤) بحار الأنوار ٥١ / ١١٣.

عزّوجلّ، والأدلّة على ذلك من النقل والعقل كثيرة، وهذا ما يعبّر عنه بالولاية التكوينيّة، وسنشرحها في الموضع المناسب إن شاء الله.

وقد جاء في الآثار ما يدلُّ على أن ذلك كان ممّا يعتقد به أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً، فقد روى كبار الحفّاظ من أهل السنّة عن عمر بن الخطّاب ما هو صريح في هذا المعنى، في قضيةٍ له مع أبي عبدالله الحسين الشهيد عليه الصّلاة والسّلام....

لقد روى الحافظ الذهبي قائلاً: حماد بن زيد: حدّثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبيد بن حنين عن الحسين.

قال: صعدت المنبر إلى عمر فقلت: إنزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك.

فقال: إن أبي لم يكن له منبر.

فأقعدني معه.

فلما نزل قال: أي بنيّ، من علّمك هذا؟

قلت: ما علّمنيه أحد.

قال: أيْ بنيّ، وهل أنبت على رؤوسنا الشعر إلّا الله ثم أنتم؟ ووضع يده على رأسه.

وقال: أيْ بني، لو جعلت تأتينا وتغشانا.

(قال الذهبي): إسناده صحيح[١].

وقد صحّحه الحافظ ابن حجر أيضاً[٢].

وإنّ جميع ما بأيدي كلّ إنسانٍ ممّا يستخدمه في سبيل مصالحه ولحسن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٨٥.

(٢) الاصابة ٢ / ٧٧ ـ ٧٨.

حاله، إنّما يكون «نعمةً» له إذا كان من «أهل الولاية» للأولياء الأطهار محمّد وأهل بيته، وإلّا فسيكون «نقمةً» عليه، كما قال تعالى:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

وَعَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ

«العنصر» و«البرّ» لغةً

«العناصر» جمع «العنصر»، قال أهل اللغة: أصل الشيء عنصره، عنصر الشيء أصله(٢).

وأضاف في مجمع البحرين «النسب» قال العنصر: الأصل والنسب(٣).

والظاهر أنه من مصاديق «الأصل» وليس مفهوماً آخر.

و«الأبرار» جمع «البر» بفتح الباء، قال في المصباح:

البرّ ـ بالكسر ـ الخير والفضل، وبَرّ الرجل يَبرّ بِراً وزان علم يعلم علماً فهو بَرّ ـ بالفتح ـ وبارّ أيضاً، أي: صادق أو تقيٌّ، وهو خلاف الفاجر، وجمع الأول أبرار، وجمع الثاني بررة مثل كافر وكفرة(٤)، وكأنه إشارة إلى الذين ذكرهم تعالى في مواضع من كتابه إذ قال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾(٥).

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٥.

(٢) لسان العرب ٤/ ٦١١، تاج العروس ٧/ ٢٧١.

(٣) مجمع البحرين ٣/ ٤٠٨.

(٤) المصباح المنير: ٤٣.

(٥) سورة الانفطار، الآية: ١٣.

وقال:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾(١).

والألف واللّام دالّ على العموم.

فالأئمّة عليهم السّلام أصل الأبرار كلّهم، فيعمّ من كان برّاً من الآدميين بجميع طبقاتهم، والملائكة كذلك، خاصّةً الذين ذكرهم بقوله عزّوجلّ:

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢).

وجود الأئمّة والأبرار من حقيقة واحدة

فيمكن أن يكون المراد أنّ وجود «الأبرار» من وجود «الأئمّة» وهم الأصل لوجود ذواتهم، وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أنْ يكون وجود الأئمّة وسائر الأبرار من حقيقةٍ واحدة.

والثاني: أن يكون الأئمّة واسطةً في وجود الأبرار.

لكنّ الظّاهر هو الأوّل، إذْ لا يختصُّ الثاني بالأبرار، لكونهم الواسطة في وجود جميع الخلائق، كما تقدّم ويأتي بالتفصيل.

ويدلُّ على الأوّل: ما ورد في كتب الفريقين من أنّ نورهم أوّل ما خلق، وأن جميع الموجودات النورانية مخلوقة من نورهم:

لقد جاء في (تذكرة الخواص) ما نصّه:

«حديث فيما خلق منه: قال أحمد في «الفضائل»: حدّثنا عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن خالد بن معدان، عن زاذان عن سلمان، قال: قال رسول الله

---

(١) سورة المطفّفين، الآية: ١٨.

(٢) سورة عبس، الآية: ١٦.

صلّى الله عليه وآله وسلّم: كنت أنا وعليّ بن أبي طالب نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلمّا خلق آدم قسّم ذلك النور جزءين: فجزء أنا وجزء عليّ.

وفي رواية: خلقت أنا وعليّ من نور واحد»[١].

وقال الحافظ الكنجي ما نصّه:

«الباب السّابع والثمانون: في أنّ عليّاً خلق من نور النبي: أخبرنا إبراهيم بن بركات الخشوعي بمسجد الربوة من غوطة دمشق، أخبرنا الحافظ عليّ بن الحسن، أخبرنا أبو القاسم هبة الله، أخبرنا الحافظ أبو بكر الخطيب، أخبرنا عليّ ابن محمّد بن عبدالله العدل، أخبرنا أبو عليّ الحسن بن صفوان، حدّثنا محمّد بن سهل العطّار، حدّثنا أبو ذكوان، حدّثني حرب بن بيان الضرير من أهل قبسارية، حدّثني أحمد بن عمرو، حدّثنا أحمد بن عبدالله، عن عبيدالله بن عمرو، عن عبدالكريم الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: خلق الله قضيباً من نور قبل أن يخلق الدنيا بأربعين ألف عام، فجعله أمام العرش، حتّى كان أول مبعثي، فشق منه نصفاً، فخلق منه نبيّكم، والنصف الآخر عليّ بن أبي طالب.

قلت: هكذا أخرجه إمام أهل الشام عن إمام أهل العراق، كما سقناه، وهو في كتابيهما»[٢].

---

(١) تذكرة خواص الأمة: ٤٦.

(٢) كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب: ٣١٤.

النبيّ الأكرم والإمام علي من نورٍ واحد في روايات العامّة

وروى الفقيه ابن المغازلي الشافعي هذا الحديث بطرقٍ عديدة حيث قال:
«قوله عليه السّلام: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله.

أخبرنا أبو غالب محمّد بن أحمد بن سهل النحوي رحمه الله، قال: أخبرنا أبو الحسن عليّ بن منصور الحلبي الأخباري، قال: حدّثنا عليّ بن محمّد العدوي الشمشاطي، قال: حدّثنا الحسن بن عليّ بن زكريا، قال: حدّثنا أحمد بن المقدام العجلي، قال: حدّثنا الفضيل بن عياض، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن زاذان، عن سلمان الفارسي، قال: سمعت حبيبي محمّداً صلّى الله عليه وسلّم يقول: كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزّوجلّ، يسبّح الله ذلك النور ويقدّسه قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلمّا خلق الله آدم ركّب ذلك النور في صلبه، فلم يزل في شيء واحداً حتّى افترقنا في صلب عبدالمطلب، ففيّ النبوّة وفي عليّ الخلافة.

وأخبرنا أبو طالب محمّد بن أحمد بن عثمان قال: حدّثنا محمّد بن الحسن بن سليمان، قال: حدّثنا عبدالله بن محمّد العكبري، قال: حدّثنا عبدالله بن محمّد بن أحمد بن عثمان، حدّثنا محمّد بن عتاب الهروي، قال: حدّثنا جابر بن سهل بن عمر بن حفص، حدّثني أبي عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي ذر، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: كنت أنا وعليّ نوراً عن يمين العرش، يسبّح الله ذلك النور ويقدّسه، قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم أزل أنا وعليّ في شيء واحد حتّى افترقنا في صلب عبدالمطلب.

وأخبرنا أبو غالب محمّد بن أحمد بن سهل النحوي نا: أبو عبدالله محمّد بن عليّ [ابن أُخت] مهدي السقطي الواسطي إملاء، قال: حدّثنا أحمد بن علي القواريري الواسطي، نا محمّد بن عبدالله بن ثابت، نا محمّد بن مصفّا، نا بقيّة بن

الوليد، عن سويد بن عبدالعزيز، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبدالله، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: إن الله عزّوجلّ أنزل قطعة من نور، فأسكنها في صلب آدم، فساقها حتّى قسمها جزءين: جزءاً في صلب عبدالله، وجزءاً في صلب أبي طالب، فأخرجني نبياً، وأخرج عليّاً وصيّاً»[١].

في رواياتنا

وقد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من كبار علمائنا الإماميّة في كتب الحديث والفضائل، نذكر فيما يلي بعض الروايات:

روى الكليني:

«أحمد بن إدريس، عن الحسين بن عبدالله الصغير، عن محمّد بن إبراهيم الجعفري، عن أحمد بن عليّ بن محمّد بن عبدالله بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إنّ الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نورّت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الذي نُوّرت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمّداً وعليّاً، فلم يزالا نورين أوّلين إذ لا شيء كُوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مُطهّرين في الأصلاب الطاهرة، حتّى افترقا في أطهر طاهرين عبدالله وأبي طالب»[٢].

وروى بإسناده عن جابر بن يزيد قال:

«قال لي أبو جعفر: يا جابر: إنّ الله أوّل ما خلق، محمّداً وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب: ٨٧ ـ ٨٩.

(٢) الكافي ١ / ٤٤١.

قلت: وما الأشباح؟

قال: ظلّ النور، أبدان نورانيّة بلا أرواح، وكان مؤيّداً بروح واحدةٍ، وهي روح القدس، فيه كان يعبدُ الله وعترته، ولذلك خلقهم حُلماء، عُلماء، بررة أصفياء يعبدون الله بالصّلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل، ويصلّون الصّلاة ويحجّون ويصومون»[١].

وبإسناده عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

«قال الله تبارك وتعالى: يا محمّد، إنّي خلقتُك وعلياً نوراً -يعني روحاً بلا بدن- قبل أن أَخلُق سماواتي وأرضي وعرشي وبحري، فلم تزل تُهلّلني وتمجّدني، ثمّ جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة، فكانت تمجّدني وتقدّسني وتهلّلني، ثمّ قسمتها ثنتين، وقسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة، محمّد واحد، وعلي واحد، والحسن والحسين ثنتان، ثمّ خلق الله فاطمة من نور ابتدأها روحاً بلا بدن، ثمّ مسحنا بيمينه فأفضىٰ نوره فينا»[٢].

وبإسناده عن المفضل بن عمر، قال:

«قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: كيف كنتم حيث كنتم في الأظلّة؟

فقال: يا مفضّل، كنّا عند ربّنا ليس عنده أحد غيرنا، في ظلةٍ خضراء، نُسبّحه ونقدّسه ونهلّله ونمجّده، وما من ملك مُقرّب ولا ذي روح غيرنا حتّى بدا له في خلق الأشياء، فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة وغيرهم، ثمّ أنهىٰ عِلمَ ذلك إلينا»[٣].

---

(١) الكافي ١ / ٤٤٢.

(٢) المصدر ١ / ٤٤٠.

(٣) المصدر ١ / ٤٤١.

وبإسناده عن محمّد بن سنان، قال:

«كنت عند أبي جعفر الثاني فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: يا محمّد إنّ الله تبارك وتعالى لم يزل متفرّداً بوحدانيّته، ثمّ خلق محمّداً وعليّاً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثمّ خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوّض أُمورها إليهم، فهم يُحلّون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلّا أن يشاء الله تبارك وتعالى.

ثمّ قال: يا محمّد، هذه الدّيانة التي من تقدّمها مرق، ومن تخلّف عنها مَحق، ومن لزمها لحقَ، خُذها إليك يا محمّد»[١].

خلقة شيعتهم من طينتهم

وما ورد في أنّ شيعتهم مخلوقون من طينتهم، كالخبر عن رسول الله يخاطب عليّاً عليهما السّلام:

شيعتك منّا خلقوا من فاضل طينتنا[٢].

وكالخبر عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

«إن الله خلقنا من أعلى عليين، وخلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم نحنّ إلينا، لأنها خلقت ممّا خُلِقنا، ثم تلا هذه الآية **﴿كَلّاٰ إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمٰا أَدْرٰاكَ مٰا عِلِّيُّونَ * كِتٰابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾**[٣].

---

(١) الكافي ١ / ٤٤١.

(٢) روضة الواعظين ٢ / ٢٩٦.

(٣) سورة المطفّفين، الآية: ١٨ ـ ٢١.

وخلق عدوّنا من سجّين، وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم، وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إليهم، لأنها خلقت ممّا خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾(١).

وهذا الحديث رواه الحافظ ابن عساكر بترجمة «علي بن إسحاق بن رداء أبو الحسين الغسّاني الطبراني» قال:

سمع العباس بن الوليد بن مزيد ببيروت وعلي بن نصر النصري وأبا إسحاق إبراهيم بن الوليد، وعبدالله بن الهيثم العبدي، ومحمّد بن عزيز الأيلي، وإدريس بن سليمان بن أبي الرّباب، ومحمّد بن يزيد المستملي.

روى عنه أبو أحمد بن عدي الجرجاني الحافظ، وأبو بكر بن المقرئ الأصبهاني، وأحمد بن عبدالله بن أبي دُجَانة، ومحمّد بن محمّد بن يعقوب الحَجّاجي، وأبو الحسين ثوابة بن أحمد بن عيسى بن ثوابة الموصلي، وأبو الحسن علي بن الحسين بن بُنْدَار الأذني القاضي، وأبو سليمان بن زبر.

أخبرنا أبو الفرج سعيد بن أبي الرجاء بن أبي منصور، أنا أبو الفتح منصور بن الحسين بن علي بن القاسم بن رواد الكاتب، وأبو طاهر بن محمود، نا أبو بكر بن المقرئ، نا أبو الحسين علي بن إسحاق بن رداء القاضي، قاضي الطبرية، بالطبرية، نا علي بن نصر البصري، نا عبدالرزّاق، أنا معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه رفعه قال: إنّ الله خلق عليين، وخلق طينتنا منها، وخلق طينة محبّينا منها، وخلق سجّين وخلق طينة مبغضينا منها، فأرواح محبّينا تتوق إلى ما

(١) الكافي ١ / ٣٩٠.

خُلقت، وأرواح مبغضينا تتوق إلى ما خُلقت منه.

قال ابن المقرئ: هكذا حدّثناه علي بن رداء وكان أحد الثقات والظرفاء من أهل الشام، رحمه الله.

وعلي بن نصر ذكر: أنه شيخ بصري له قدر عظيم»[١].

الفرق بين «الشّيعي» و«المحبّ» بحسب الروايات

وهنا لابدّ من التذكير بأنّ في التعبير بـ«الشيعة» إشارةً إلى من يكون مصداقاً حقيقيّاً للبرّ، أي: للصّدق والصّلاح، فهو الذي تكون خلقته من طينة أهل البيت، وليس المراد مطلق «المحب»، وللتأكيد على هذا المعنى نذكر الروايات التالية عن كلّ واحدٍ منهم عليهم السّلام:

* قال رجلٌ لرسول الله صلّى الله عليه وآله، يا رسول الله؛ فلان ينظُر إلى حَرَم جاره، وإن أمكنه مُواقعةُ حرامٍ لم ينزع عنه؟ فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقال: ائتني به. فقال رجل آخر: يا رسول الله، إنّه من شيعتكم، ممّن يعتقدُ موالاتك وموالاة عليّ، ويتبرّأ من أعدائكما. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لا تَقُل إنّه من شيعتنا، فإنّه كذب، إنّ شيعتنا من شَيَّعَنا وتَبِعَنا في أعمالنا، وليس هـذا الذي ذكرتَه في هذا الرجل، من أعمالنا.

* وقيل لأمير المؤمنين عليه السّلام: فلانٌ مسرفٌ على نفسه بالذنوب الموبقات، وهو مع ذلك من شيعتكم! فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: قد كُتبت عليك كذبة، أو كذبتنان، إن كان مُسرفاً بالذنوب على نفسه، يحبّنا ويبغض أعداءنا، فهو كذبةٌ واحدة، هو من محبّينا لا من شيعتنا، وإن كان يوالي أولياءنا، ويعادي

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

أعداءنا، وليس هو بمُسرف على نفسه في الذنوب كما ذكرت، فهو منك كذبة، لأنّه لا يُسرف في الذنوب، وإن كان لا يُسرِف في الذنوب، ولا يُواليـنا، ولا يُعادي أعداءنا فهو منك كذبتان.

* وقال رجل لامرأته: اذهَبي إلى فاطمة عليها السّلام بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله فاسأليها عنّي: أنا من شيعتكم، أو لستُ من شيعتكم؟ فسألتها، فقالت عليها السّلام: قولي له: إن كنتَ تعمل بما أمرْناك، وتنتهي عمّا زجرناك، فأنت من شيعتنا، وإلّا فلا. فرجعت، فأخبرته، فقال: يا ويـلي، ومـن يـنفك مـن الذنـوب والخطايا؟ فأنا إذن خالدٌ في النار، فإنّ من ليس من شيعتهم فهو خالد في النـار. فرجعت المرأة، فقالت لفاطمة عليها السّلام ما قال لها زوجها، فقالت فاطمة عليها السّلام: ليس هكذا، إنّ شيعتنا من خِيار أهل الجنّة، وكلّ مُحبّينا، ومُوالي أوليائنا، ومُعادي أعدائنا، والمسلّم بقلبه ولسانه لنا، ليسوا من شـيعتنا إذا خـالفوا أوامـرنا ونواهينا في سائر الموبقات، وهم مع ذلك في الجنّة، ولكن بعد ما يطهرون، من ذنوبهم بالبلايا والرزايا أو في عرصات القيامة بأنواع شدائِدِها، أو في الطَبَق الأعلى من جهنّم بعذابها، إلى أن نستنقذهم بحبّنا منها، وننقلهم إلى حضرتنا.

* وقال رجل للحسن بن علي عليهما السّلام: يـابن رسـول الله، إنّـي مـن شيعتكم. فقال الحسن بن عليّ عليهما السّلام: يا عبدالله، إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبةً شريفةً لست من أهلها، لا تَقُل: أنا من شيعتكم، ولكن قل: أنا من مواليكم ومُحبّيكم، ومُعادي أعدائكم. وأنت في خير، وإلى خير.

* وقال رجل للحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السّلام: يابن رسول الله، أنا من شيعتكم. قال عليه السّلام: إتّق الله، ولا تَدَّعِيَنّ شيئاً يقول لك الله: كـذبت

وفَجُرت في دعواك، إنّ شيعتنا من سَلِمَت قلوبُهم من كلِّ غِشٍّ وغِلٍّ ودَغَلٍ، ولكن قل: إنّي من مَواليكم ومُحِبّيكم.

* وقال رجل لعليّ بن الحسين عليهما السّلام: يابن رسول الله، أنا من شيعتكم الخُلَّص. فقال له: يا عبدالله، فإذن أنت كإبراهيم الخليل عليه السّلام، الذي قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شيعَتِهِ لَإِبْراهيمَ * إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَليمٍ**﴾[1] فإن كان قلبُك كقَلْبِه فأنت من شيعتنا، وإن لم يكن قلبُك كقَلبِه وهو طاهِرٌ من الغِشّ والغِلّ فأنت من محبّينا، وإلّا فإنّك إن عرفت أنّك بقولك كاذب فيه إنّك لمُبْتَلى بفالِج لا يُفارِقُك إلى المَوت أو جُذام، ليكون كفّارة لكِذبك هذا.

* وقال الباقر عليه السّلام لرجل فَخَرَ على آخر، قال: أتُفاخِرني وأنا من شيعة محمّد صلّى الله عليه وآله وآل محمّد الطيّبين؟! فقال له الباقر عليه السّلام: ما فخَرت عليه وربِّ الكعبة، وغُبْنٌ منك على الكذب. يا عبدالله، أمالُك الذي معك تُنفِقُه على نفسك أحَبّ إليك، أم تُنفِقُه على إخوانك المؤمنين؟ قال: بل أنفِقُه على نفسي. قال: فلسْت من شيعَتِنا، فإنّا نحنُ ما نُنفِق على المُنتَحِلين من إخواننا أحَبّ إلينا من أن نُنفِقَ على أنفُسِنا، ولكن قل: أنا من مُحبّيكم، ومن الرّاجِينَ للنّجاةِ بمحبَّتِكم.

* وقيل للصّادق عليه السّلام: إنّ عمّاراً الدُّهْنيّ شِهِد اليوم عند ابن أبي ليلى قاضي الكوفة بشهادةٍ، فقال له القاضي: قم ـ يا عمّار ـ فقد عرفناك، لا نقبل شهادتك لأنّك رافضي. فقام عمّار، وقد ارتعدت فرائصه، واستفرغه البُكاء، فقال له ابن أبي ليلى، أنت رجل من أهل العلم والحديث، إن كان يسوؤك أن يقال لك

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٣ ـ ٨٤.

رافِضيّ فتَبرّأ من الرَفض، فأنتَ من إخوانِنا.

فقال له عمّار: يا هذا، ما ذَهبتُ ـ والله ـ حيثُ ذهبتَ، ولكنّي بكِيتُ عليك وعليَّ.

أمّا بكائي على نفسي، فإنّك نسَبْتَني إلى رُتبةٍ شريفةٍ لستُ من أهلها، زعمتَ أنّي رافِضيّ، ويحَك، لقد حدّثني الصّادق عليه السّلام: أنّ أوّل من سُمّي الرافِضة السَّحَرةُ الذين لمّا شاهدوا آيةَ موسى عليه السّلام في عَصاه آمنوا به، ورَضوا به، واتّبعوه، ورَفضوا أمرَ فِرْعَون، واستَسْلَموا لكلّ ما نـزَل بـهم، فسَمّاهم فِـرْعَون الرافضة لمّا رفَضوا دينه. فالرافِضيّ: من رَفَض كلّ ما كرِهَه الله تعالى، وفعَل كلّ ما أمَر به الله تعالى، فأين في الزمان مثل هذا؟ فإنّما بكيتُ على نفسي خَشْيَةَ أن يَطَّلِع الله تعالى على قلبي وقد تقبّلت هذا الاسم الشريف، فيُعاقبني ربّي عـزّوجـلّ، ويقول: يا عمّار، أكنتَ رافِضاً للأباطيل، عامِلاً للطاعات كما قال لك؟ فيكون ذلك تقصيراً بي في الدرجات إن سامحَني مُوجباً لشديد العقاب عليّ إن ناقشَني، إلّا أن يتداركني مواليّ بشفاعتهم.

وأمّا بُكائي عليك، فلعِظَمِ كذبك في تَسمِيَتي بغير اسمي، وشفقتي الشّديدة عليك من عذاب الله تعالى، أن صرّفت أشرف الأسماء إلى أن جعلته من أرذلها، كيف يصبر بدنك على عذاب الله وعذاب كلمتك هذه.

فقال الصّادق عليه السّلام: لو أنّ على عمّار من الذنوب ما هو أعـظم مـن السّماوات والأرضين، لمُحِيَتْ عنه بهذه الكلمات، وإنّها لتَزيد في حسَناتِه عند ربّه عزّوجلّ، حتّى يجعل كلّ خَرْدَلَةً منها أعظم من الدنيا ألف مرّة.

* وقيل لموسى بن جعفر عليه السّلام: مررنا برجلٍ في السوق وهو ينادي: أنا من شيعته محمّد وآل محمّد الخُلَّص، وهو ينادي على ثياب يبيعُها عل يمن

يزيد. فقال موسى: عليه السّلام: ما جُهل ولا ضاع أمرؤ عَرف قدْر نفسِه، أتدرون ما مَثل هذا؟ هذا كمن قال: أنا مِثلُ سلمان، وأبي ذرّ، والمِقداد، وعمّار، وهو مع ذلك يُباخِسُ في بَيعِه، ويُدَلِّس عيوبَ المَبيع على مُشتَريه، ويشتَري الشيء بثَمنٍ فيُزايدُ الغريبَ، يطلُبه فيوجِبُ له، ثمّ إذا غاب المُشتري، قال: لا أُريده إلّا بكذا، بدون ما كان يطلُبه منه، أيكون هذا كسلمان، وأبي ذرّ، والمِقداد، وعمّار؟ حاشَ لله أن يكون هذا كَهُم، ولكن لا يمنعه أن يقول: أنا من محبّي محمّد وآل محمّد، ومن مواليّ أوليائهم، ومعادي أعدائهم.

* ولمّا جُعِل إلى عليّ بن موسى عليهما السّلام ولاية العهد، دخَل عليه آذِنُه فقال: إنّ قوماً بالباب يستأذِنون عليك، يقولون: نحنُ من شيعة عليّ عليه السّلام. فقال عليه السّلام: أنا مشغول، فاصرِفهُم. فصرفهم. فلمّا كان في اليوم الثاني جاءوا وقالوا كذلك، فقال مثلها، فصرفهم إلى أن جاءوا هكذا يقولون ويصرِفُهم شهرين. ثمّ أيسوا من الوصول، وقالوا للحاجب: قُل لمَولانا: إنّا شيعة أبيك عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، وقد شَمِتَ بنا أعداؤنا في حجابك لنا، ونحن ننصَرِف هذه الكرَّة، ونهرُب من بَلدِنا خجَلاً وأنَفَةً ممّا لحِقَنا، وعجزاً عن احتِمال مَضَض ما يَلحَقُنا بشَماتَةِ أعدائِنا.

فقال عليّ بن موسى عليهما السّلام: ائذَنْ لهم ليدخُلوا. فدخَلوا، فسلّموا عليه، ولم يأذَنْ لهم بالجُلوس، فبقوا قياماً.

فقالوا: يابنَ رَسولِ الله، ما هذا الجَفاء العَظيم، والاستِخفاف بعد هذا الحِجاب الصَعْب، أيّ باقية تُبقي منّا بعد هذا؟

فقال الرضا عليه السّلام: اقرءوا: ﴿وَمٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[١]، ما اقتدَيتُ إلّا بربّي عزّوجلّ، وبرسول الله صلّى الله عليه وآله، وبأمير المؤمنين عليه السّلام ومَن بعدَه من آبائي الطاهرين عليهم السّلام، عتَبوا عليكم فاقتدَيتُ بهم.

قالوا: لماذا، يابنَ رسول الله؟

قال: لدَعْواكُم أنّكم شيعةُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام!

وَيْحَكُم، إنّما شيعَتُه: الحسن، والحسين عليهما السّلام، وسلمان، والمِقداد، وأبوذرّ، وعمّار، ومحمّد بن أبي بكر، الذين لم يُخالِفوا شيئاً من أوامِرِه، ولم يرتَكِبوا شيئاً من فُنونِ زَواجِرِه، فأمّا أنتُم إذا قُلتُم إنّكم شِيعَتُه، وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون، مقصّرون في كثيرٍ من الفرائض، ومتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتّقون حيث لا تجب التقيّة، وتتركون التقيّة حيث لابدّ من التقيّة، ولو قلتم أنّكم موالوه ومحبّوه، المُوالون لأوليائه، والمُعادون لأعدائه، لم أُنكره من قولكم، ولكن هذه مرتبةٌ شريفة ادّعيتُموها، إن لم تصدّقوا قولكم بفعلكم هلكتم، إلّا أن تتدارككم رحمة من ربّكم.

قالوا: يابن رسول الله، فإنّا نستغفر الله، ونتوب إليه من قولنا، بل نقول كما علّمنا مولانا: نحن محبّوكم ومحبّوا أوليائكم، ومُعادوا أعدائكم.

قال الرّضا عليه السّلام: فمرحباً بكم ـ يا إخواني وأهل ودّي ـ ارتَفِعوا، ارتَفِعوا. فما زال يرفَعُهم حتّى ألصَقَهُم بنفسه، ثمّ قال لحاجبه: كم مرّةً حجَبْتَهم؟ قال: ستّينَ مرّةً، فقال لحاجِبِه: فاختَلِف إليهم ستّين مرّةً مُتواليةً، فسلِّم عليهم، وأقرئهم سلامي، فقد مَحَوا ما كان من ذنوبهم باستِغفارهم وتوبتهم، واستحقّوا

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الكرامة لمحبّتهم لنا وموالاتهم، وتفقّد أُمورهم وأُمور عيالاتهم، فأوسعهم بنفقاتٍ ومبرّاتٍ وصلاتٍ ودفع مضرّاتٍ.

* ودخل رجل على محمّد بن عليّ بن موسى الرضا عليهم السّلام وهو مسرور، فقال: مالي أراك مسروراً؟ قال: يابن رسول الله، سمعت أباك يقول: أحقّ يومٍ بأن يسرّ العبد فيه: يرزقه الله صدقاتٍ ومبرّاتٍ وسدّ خلّاتٍ من إخوانٍ له مؤمنين، وأنّه قصدني اليوم عشرة من إخواني المؤمنين الفُقراء، لهم عيالات، قصّدوني من بلد كذا وكذا، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم، فلهذا سُروري.

فقال محمّد بن عليّ عليهما السّلام: لعمري إنّك حقيقٌ بأن تسرّ إن لم تكن أحبطته، أو لم تحبطه فيما بعد. فقال الرجل: وكيف أحبطته وأنا من شيعتكم الخلّص؟ قال: ها قد أبطلت برّك بإخوانك وأصدقائك.

قال: وكيف ذلك، يابن رسول الله؟ قال له محمّد بن علي عليهما السّلام: إقرأ قول الله عزّوجلّ: ﴿**يٰا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذىٰ**﴾[1].

قال الرجل: يابن رسول الله، ما مَنَنْتُ على القوم الذين تصدّقت عليهم، ولا آذَيتُهم.

قال له محمّد بن علي عليهما السّلام: إنّ الله عزّوجلّ إنّما قال: ﴿**لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذىٰ**﴾ ولم يقل: لا تُبطِلوا بالمنّ على من تتصدّقون عليه، وبالأذى لِمَن تتصدّقون عليه، وهو كلّ أذى. أفَتَرى أذاك للقوم الذين تصدّقْتَ عليهم أعظم، أم أذاك لحفظتك وملائكة الله المقرّبين حواليك، أم أذاك لنا؟ فقال الرجل: بل هذا، يابنَ رسول الله. فقال: فقد آذيتني وآذَيتَهم، وأبطلت صدقتَك. قال:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

لماذا؟ قال: لقولك: وكيف أحبَطتُه وأنا من شيعتكم الخُلّص؟ ويحَك، أتدري من شيعتنا الخُلّص؟ قال: لا. قال: شيعتنا الخُلّص حزقيل المؤمن، مؤمن آل فرعون، وصاحب يس الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾(١) وسلمان، وأبو ذرّ، والمِقداد، وعمّار. أسَوّيت نفسك بهؤلاء، أما آذيت بهذا الملائكة وآذيتنا؟ فقال الرجل: استغفر الله وأتوب إليه، فكيف أقول: قال قل: أنا من مواليكم ومحبّيكم ومعادي أعدائكم وموالي أوليائكم... فقال محمّد بن علي بن موسى: الآن قد عادت إليك مثوبات صدقاتك وزال عنك الإحباط.

* وقال الحسن بن عليّ عليهما السّلام للرجل الذي قال إنّه من شيعة عليّ عليه السّلام:

يا عبدالله، لستَ من شيعة علي عليه السّلام، إنّما أنت من مُحبّيه، إنّ شيعة عليّ عليه السّلام: الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢)، وهم الذين آمنوا بالله، ووصفوه بصفاته، ونزّهوه عن خِلاف صفاته، وصدّقوا محمّداً في أقواله، وصوَّبوه في كلّ أفعاله، وقالوا: إنّ عليّاً بعده سيّداً إماماً، وقَرْماً هُماماً، لا يعدله من أُمّة محمّد أحد، ولا كلّهم إذا اجتمعوا في كفّة يُوزنون بوزنه، بل يرجح عليهم كما ترجح السماء والأرض على الذرّة، وشيعة عليّ عليه السّلام هم الذين لا يبالون في سبيل الله أوقع الموت عليهم أو وقعوا على الموت، وشيعة عليّ عليه السّلام هم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وهم الذين لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم من حيث أمرهم، وشيعة عليّ عليه السّلام هم الذين

---

(١) سورة يس، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٢.

يقتدون بعليّ في إكرام إخوانهم المؤمنين.

ما عن قولي أقول لك هذا، بل أقوله عن قول محمّد صلّى الله عليه وآله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قضوا الفرائض كلّها بعد التوحيد واعتقاد النبوّة والإمامة، وأعظمها فرضان: حقوق الإخوان في الله، واستعمال التقيّة من أعداء الله عزّ وجلّ[1].

الأئمّة هم الأصل في برّ الأبرار

ويمكن أنْ يكون المراد من «أُصول الكرم» أنّ الأئمّة هم الأصل في برّ الأبرار، وأنّهم أخذوه وتعلّموه من الأئمّة عليهم السّلام... وبذلك نصوص عنهم عليهم السّلام....

فعن ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

نحن أصل كلّ خير ومن فروعنا كلّ برّ، فمن البرّ التوحيد والصّلاة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير وتعهّد الجار والإقرار بالفضل لأهله.

وعدوّنا أصل كلّ شرّ، ومن فروعهم كلّ قبيح وفاحشة، فمنهم الكذب والبخل والنميمة والقطيعة وأكل الرّبا وأكل مال اليتيم بغير حقّه، وتعدّي الحدود التي أمر الله، وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والزنا والسرقة، وكلّ ما وافق ذلك من القبيح.

فكذب من زعم أنه معنا وهو متعلّق بفروع غيرنا»[2].

وعن أبي خالد الكابلي عن أبي عبدالله في خبرٍ، قال:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٤ / ٦٠٢ ـ ٦٠٨.

(٢) الروضة من الكافي: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

هم ـ والله ـ ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء فيظلّم قلوبهم.

والله ـ يا أبا خالد ـ لا يحبّنا عبد ويتولّانا حتى يطهّر الله قلبه، ولا يطهّر الله قلب عبد حتى يسلّم لنا ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر(١).

وعن الرّضا عليه السّلام في خبرٍ:

إن شيعتنا لمكتوبون بأساميهم وأسامي آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا... نحن آخذون بحجزة نبيّنا ونبيّنا آخذ بحجزة ربنا، والحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا... نحن نور لمن تبعنا وهدىً لمن اهتدى بنا، ومن لم يكن منا فليس من الإسلام في شيء(٢).

وأخرج الحاكم النيسابوري بإسناده ـ وصحّحه ـ عن علي قال:

أخبرني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أن أوّل من يدخل الجنة أنا وفاطمة والحسن والحسين. قلت: يا رسول الله، فمحبّونا؟ قال: من ورائكم»(٣).

وَدَعَائِمَ الأَخْيَارِ

«الدعائم» جمع «الدعامة» بالكسر، وهي: ما يستند به الحائط إذا مال يمنعه السّقوط. ودعمت الحائط دعماً من باب نفع، ومنه قيل للسيّد في قومه: هو دعامة

---

(١) الكافي ١ / ١٩٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٦ / ٢٤٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٥١.

القوم، كما يقال: هو عمادهم[١].

والدِعامة: عماد البيت الذي يقوم به[٢].

وفي الحديث: دعامة الإنسان العقل[٣].

و«الأخيار» جمع «الخيّر» وهو المتّصف بـ«الخير».

وقد وصف الله سبحانه أنبيائه ورسله بالأخيار إذ قال:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ... وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾[٤].

فالأنبياء والرسل على رأس «الأخيار».

«الخير» مفهوماً ومصداقاً

ثم إنّ الخير كلّه بيد الله... قال تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

و«الخير» يقابل «الشر» كما هو واضح، والظاهر أنّ عبارة الراغب الإصفهاني أحسن ما قيل في مصاديق «الخير» إذ قال:

الخير ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع[٦].

---

(١) المصباح المنير: ١٩٤.

(٢) لسان العرب ١٢ / ٢٠١.

(٣) الكافي ١ / ٢٥.

(٤) سورة ص، الآية: ٤٧ ـ ٤٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٦) المفردات في غريب القرآن: ١٦٠.

وذلك: لأنّ العقل يدلّ الإنسان على ما فيه خيره وصلاحه لدنـياه وآخـرته ويمنعه عمّا يباعده عن الله، ولذا أمر سبحانه في غير موضعٍ مـن كـتابه المـجيد بالتعقّل. وكذلك العدل، فإنّ كلّ أحدٍ يرغب فيه والله يأمر به إذ يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾(١).

وكذلك العلم، وما أكثر الأوامر في طلبه وتحصيله.

وكذلك الاتّصاف بالصفات الحسنة والتنزّه عن السيّئات، ولذا قال تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَـنْهَوْنَ عَـنِ الْمُنْكَرِ...﴾(٢).

بل لقد وصفت هذه الأمّة بالخيريّة إنْ كانت آمرة بـالمعروف ونـاهية عـن المنكر، في قوله عزّوجلّ:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾(٣).

وحتّى المال إذا استعين به علىٰ معرفة الله وطاعته، وصرف في سبيل رضاه عزّوجلّ، ولذا عبّر عنه بـ«الخير» في قوله تعالى:

﴿...إِنْ تَرَكَ خَيْرًا...﴾(٤).

على رأس كلّ خير: المعرفة والطّاعة

وعلى الجملة، فإنّ كلّ ما يكون محبوباً عند الله ومقرّباً إليه فهو خير، ولذا يأمر بالتعقّل وطلب العلم والعدل التام والتحلّي بـالصفات الطيّبة، ويـنهىٰ عـن

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

الجهل والفحشاء والمنكر وسيئات الأعمال والصّفات... والأصل في ذلك كلّه:

١ ـ المعرفة....

٢ ـ الطاعة....

إنّ الله سبحانه يقول:

﴿وَمٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

وسواء كان «ليعبدون» أي: ليعرفون أو أُبقي على ظاهره، فإنّ العبادة والطّاعة متوقفة على المعرفة... هذا من جهة.

ومن جهةٍ أُخرى، فقد ورد عن الأئمّة الطاهرين قولهم:

«لولانا ما عرف الله»[٢].

و«لولانا ما عبد الله»[٣].

وحينئذٍ نقول:

معرفة الله وطاعته بالأئمّة

١ ـ إن طريق معرفة الله تعالى والعبودية له وطاعته وعبادته منحصر في الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السّلام فحسب.

وكلّ معرفة لم تخرج من بيوتهم ليست بمعرفة، وكلّ عمل عبادي لم يكونوا مصدره لا قيمة له ولا أثر، وكلّ من ارتقى سلّم الدرجات العالية في الطاعة والعبادة، وحاز على موقع القبول عند الباري تعالى، فهو ببركتهم وعنايتهم وتأييدهم.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٦ / ١٠٧.

(٣) كتاب التوحيد: ١٥٢.

٢ ـ إنه لولا وجودهم المبارك عليهم السّلام، وما أفاضوه من علومٍ وبركاتٍ، لما كان هناك شيء يذكر في الوجود، خلقاً كان أو علماً كان أو عملاً أو... لأن من أجلهم خلق الله تعالى الخلق، وعن طريقهم ومن خلالهم هدى الله من اهتدى، ولا يمكن أن يكون هناك خير لم يصدر عنهم.

لذا، فإن الخير ومن اتصف به ـ قليله أو كثيره ـ قائم بهم وهم دعامته ومرجعه ومبدؤه ومنتهاه، فهم الذين خيّروا الخير فيمن اتصف به، لأنّ كلّ ما في مائدة الوجود من خير فهو قائم بهم، وهم القِوام له.

فإذا ما عرض لنا شك في خيرية أو شريّة شيءٍ مّا، فبنورهم يرفع الشك وبقولهم يحسم الأمر، لأن خيريّة الأخيار وكلّ خيرٍ فهو متقوّم بأهل البيت عليهم السّلام، ومن يطلب ذلك من غيرهم فهو حاطب ليل.

وأين نجد غيرهم من عنده هذا المقام الرفيع؟

ولم تنفرد الزيارة الجامعة بحتميّة هذه الحقيقة، بل نطق به القرآن الكريم والسنّة الشريفة التي من ضمنها سيرتهم العمليّة في كلّ لحظات حياتهم الطيّبة المباركة التي أرادها الله لهم، حتى يرث الأرض ومن عليها، فلا محيص من الاستناد إليهم والاتصال بهم والأخذ عنهم لمن أراد أن يكون من أهل الخير، ولا يوجد هذا الخير ـ جلّهُ أو نزره ـ في أيّ مذهب أو فكر أو أمّة لا تمّت بصلة مع هؤلاء الأئمّة العظام، وهو أمر يتطلّب تفصيله بحوثاً عميقة مطوّلة.

ولقد ثبت ـ تاريخيّاً ـ أنهم عليهم السّلام أصل كلّ فرع من فروع الخير أينما وُجِدَ، وما لم يكن ذا صلة بهم فهو أبتر، وهل يوجد الخير في الأبتر؟ ولا عجب في ذلك ولا مغالاة، لأن الله تبارك وتعالى أرادهم هكذا وأدّبهم فكانوا كما أراد وأحبّ.

جاء في الكافي عن أبي عبدالله عليه السّلام ما نصّه:

«إن الله عزّوجلّ أدّب نبيّه على محبّته فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] ثم فوّض إليه فقال: ﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢] وقال عزّوجلّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ﴾[٣].

ثم قال:

وإن نبي الله فوّض إلى عليٍّ وآئتمنه، فسلّمتم وجحد الناس. فوالله لنحبّكم أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله عزّوجلّ. ما جعل الله لأحدٍ خيراً في خلاف أمرنا»[٤].

ولك أن تتمعّن في محلّ الشاهد من كلامه، وهو قوله عليه السّلام: «ما جعل الله لأحدٍ خيراً في خلاف أمرنا»، فقد جاءت كلمة «خيراً» نكرةً في سياق النفي، لتدلّ على عدم وجود أقلّ قليلٍ من الخير في خلاف أمرهم...!

إنّ الخير كلّه في محبّتهم وموالاتهم واتّباعهم، ولا خير إلّا عندهم ومنهم، ولا شيء من الخير عند غيرهم، حتى أنّ أهل السنّة يروون بأسانيدهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله:

«لو أنّ عبداً عبدالله بين الركن والمقام ألف عام ثم ألف عام ولم يقبل بمحبّتنا أهل البيت، لأكبّه الله على منخره في النار»[٥].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٤) الكافي ١ / ٢٦٥.

(٥) تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٦٦، كفاية الطالب: ٣١٧، شواهد التنزيل ١ / ٥٥٣، شرف النبي: ٢٦١.

أي: إن تلك الأعمال لا تقبل منه، فهو كمن لم يعمل وعصى الله في ما أمره ونهى عنه، ومن كان هذا حاله فإنّ الله يكبّه على منخره في النار....

وبما ذكرنا ظهر معنى كونهم دعائم الأخيار.

وَسَاسَةَ الْعِبَادِ

«السياسة» لغة

«السّاسة» جمع «السّائس». قال الفيّومي: ساس زيد الأمر يسوسه سياسةً: دبّره وقام بأمره[1].

وقال ابن منظور: السَّوْسُ الرياسة، يُقال: ساسوهم سَوْساً، وإذا رأَّسوهُ قيل: سوَّسوه وأساسوه. وساس الامر سياسة، أي قام به، ورجل ساسٌ من قومٍ ساسةٍ وسوّاس، أنشد ثعلب:

سادة قادة لكلّ جميعٍ ساسةٌ للرجال يوم القتالِ

وسوَّسَهُ القوم: جعلوه يسوسُهم....

وفي الحديث: «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم».

أي: تتولّىٰ أُمورهم كما يفعل الامراء والولاة بالرعيّة من الناحيتين الماديّة والمعنويّة.

والسّياسة: القيام على الشيء بما يصلحه.

ونلاحظ في الكتب الأخلاقية بحوثاً عن أُسلوب وسلوك ربّ العائلة مع أفراد عائلته، وكيفية تعامله معهم بما يهديهم ويرشدهم عملياً إلى أفضل سبل

---

(١) المصباح المنير: ٢٩٥.

العيش في الحياة. كما أنه لابدّ لمن يلي أمر السياسة لحيٍّ من الأحياء أو مدينة من المدن، أن يضع خطّة لإدارة أُمور تلك المنطقة بما يصلح شؤون أهاليها الماديّة والمعنويّة، لما فيه سعادتهم في الدارين.

بناءً على ذلك، فإن المهمّة التي أو كلّها الله إلى الأئمّة من آل محمّد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، هي إدارة أُمور البشرية وتدبيرها، لتصل إلى ساحل الخير والصّلاح والطمأنينة والسّعادة في الدّارين.

المراد من «العباد»

و«العباد» جمع «العبد» وهو خلاف الحرّ، وقد يراد به العابد.

والظاهر أن المراد هنا هو العموم، لأنّ الأئمّة هم القوّام بأمر عباد الله في التربية وفي العبادة له سبحانه. وتوضيح ذلك هو:

إن «العبد» قد يجمع بلفظ «العباد»، والمراد منه غالباً هو عبد العبادة أي: العابد، وقد يجمع بلفظ «العبيد»، والمراد منه غالباً هو العبد المملوك، المبحوث عنه في الفقه في كتاب العبيد والإماء، ومن موارد إطلاق «العباد» وإرادة «العبيد» قوله تعالى:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَالصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَإِمٰائِكُمْ﴾[1].

كما يطلق «العبيد» ولا يراد «المماليك» ولا العباديّة لله، بل يراد العبيد في الطّاعة، ومن ذلك ما روي عن مولانا الإمام علي بن موسى الرّضا أنه قال في قوله تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنٰا آلَ إِبْرٰاهِيمَ

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[١].

«الناس عبيد لنا في الطّاعة»[٢].

فتحصّل: ورود «العبد» بثلاثة معان:

١ ـ العبد، بمعنى العابد.

٢ ـ العبد، بمعنى المملوك.

٣ ـ العبد، في الطّاعة....

وفي الآية المذكورة كلمتان:

احداهما: «الناس المحسودون»، وقد قال الأئمّة عليهم السّلام بتفسيرها: «نحن المحسودون»[٣].

والثانية: «الملك العظيم»، وقد قالوا بتفسيرها: «أي: الطّاعة المفروضة»[٤].

وهذه الآية من أوضح الآيات في الدلالة على الولاية التكوينية والتشريعيّة للأئمّة المعصومين من العترة النبوية المطهّرة، لأنّ هذا الملك العظيم هو مقام «الولاية» المطلقة المذكورة في الآية المباركة:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[٥]

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٢) الكافي ١ / ١٨٧.

(٣) الكافي ١ / ١٨٧، شواهد التنزيل ١ / ١٨٤، جواهر العقدين ٢ / ٩٦، المناقب لابن المغازلي: ٢٦٧.

(٤) الكافي ١ / ١٨٦.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

ومن هنا، فقد عُبّر عن المعصومين من أهل البيت بـ«اولوا الأمر» في الآية المباركة:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.(١)

وإذا كانت دالّةً على الولاية المطلقة ـكما سيأتي بيانه في الموضع المناسب لذلك ـ جاز إرادة المعنى الثاني من المعاني الثلاثة، أمّا المعنى الأوّل، فلا يقوله أحد من الشّيعة أبداً.

وتسمية الشيعة أبناءهم بـ«عبد الزهراء» و «عبد الحسين» ونحو ذلك، إنما هو بالمعنى الثالث، لأن الشيعة قد سلّموا لأمر الله وإنْ جحد الناس، فهم عبيد لأهل البيت الأطهار في الطّاعة... بل يجوز أن يكون بالمعنى الثاني أيضاً كما أشرنا.

لكنّ بعض المخالفين يرموننا بالغلوّ والعبادة للأئمّة عليهم السّلام بسبب تلك التسميات، وكأنهم يجهلون أو يتجاهلون مجئ «العباد» بمعنى «العبيد» كما في قوله سبحانه:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.(٢)

فالمراد من التسمية بـ«عبدالحسين» مثلاً كون الرجل عبد طاعةٍ لأبي عبدالله الحسين الشهيد عليه السّلام أو عبد رقٍّ له، وأما العبوديّة والعبادة فهي لله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

ولقد بيّنا سابقاً أن عقيدتنا بالأئمّة الطاهرين تتحدّد بين الغلوّ والتقصير حسب ما عرّفوا به أنفسهم من خلال ما نطقوا به كما في الأخبار المرويّة عنهم.

إنّ الواحد منا يخاطبهم لدى الاستيذان للدخول عليهم بقوله:

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

عبدك وابن عبدك وابن أمتك المقرّ بالرقّ والتارك للخلاف عليكم[١].

ولا يقصد إلّا كونه مفترض الطّاعة، وأنه صاحب الولاية الكبرى، أمّا أنْ يقصد العبادة فهذا شرك، وقد قال الأئمّة عليهم السّلام:

إنا عبيد مربوبون، لا تجعلونا ربّاً...[٢].

الأئمّة ساسة البشر والملائكة

وبما ذكرنا ظهر معنى كونهم «ساسة العباد» وخلاصته:

إنّ الأئمّة المعصومين يقدّمون برنامجاً دقيقاً وخطّةً محكمة لحياة الإنسان الماديّة والمعنويّة، مما يصلح شؤونه ويرتّب أُموره ويوجب سعادته في الدنيا والآخرة.

لكنّ هذه الحقيقة غير منحصرة بالبشر، لأن «العباد» يعم «الملائكة» كذلك، فقد قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا...﴾.[٣]

فالأئمّة عليهم السّلام ساسة الملائكة كذلك، ويشهد بذلك ما ورد في أحاديث الفريقين عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه قال: كنت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم عزّوجلّ بألفي عام، يسبّح ذلك النور فتسبح الملائكة بتسبيحه، فلمّا خلق الله تعالى آدم ألقى ذلك النور في صلبه فقال

---

(١) بحار الأنوار ٩٨ / ١٩٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٧٠ عن الخصال ٢ / ٦١٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فأهبطني الله تعالى إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح وقذفني في صلب إبراهيم، ثمّ لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتّى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قطّ»(١).

ورواه الديار بكري باختلاف يسير، قال: «عن ابن عبّاس، عن النبيّ، أنّه قال: «كنت نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ آدم بألفي عام، يسبّح الله ذلك النور، وتسبّح الملائكة بتسبيحه، فلمّا خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثمّ لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتّى أخرجني من أبوي، لم يلتقيا على سفاح قطّ»(٢).

وروى أبو عبدالله محمّد بن العبّاس بن ماهيار في كتابه (ما نزل من القرآن في أهل البيت) بسنده عن أشياخ من آل عليّ بن أبي طالب، قالوا:

«قال عليّ عليه السّلام في بعض خطبه: إنا آل محمّد كنا أنواراً حول العرش، فأمرنا الله تعالى بالتسبيح فسبّحنا وسبّحته الملائكة بتسبيحنا، ثمّ أهبطنا إلى الأرض فأمرنا بالتسبيح فسبّحنا فسبّحته أهل الأرض بتسبيحنا، فإنا لنحن الصّافون وإنا لنحن المسبّحون»(٣).

وروي الحسن بن محمّد الديلمي عن ابن مهران:

---

(١) المنتقى من سيرة المصطفى ـ مخطوط.

(٢) تاريخ الخميس ١ / ٢١.

(٣) بحار الأنوار ٢٤ / ٨٨، تأويل الآيات الظاهرة: ٤٨٨.

«سُئل عبدالله بن العبّاس عن تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[١] قال: كنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فأقبل عليّ بن أبي طالب، فما رآه النبيّ صلي الله عليه وآله وسلّم تبسم في وجهه، وقال: مرحباً بمن خلقه الله تعالى قبل كلّ شيء، خلقني الله وخلق عليّاً قبل أن يخلق آدم بهذه المدّة، خلق نوراً فقسّمه نصفين: فخلقني من نصفه، وخلق عليّاً من النصف الآخر قبل الأشياء، فنّورها من نوري ونور علي، ثمّ جعلنا من يمين العرش، ثمّ خلق الملائكة فسبّحنا فسبّحت الملائكة، وهلّلنا فهلّلت الملائكة، وكبّرنا فكبّرت الملائكة، وكان ذلك من تعليمي وتعليم عليّ»[٢].

ورواه شرف الدين النجفي

«عن محمّد بن زياد، قال: سأل ابن مهران عبدالله بن العبّاس عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ فقال ابن عبّاس: إنّا كنّا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله...»[٣].

حق السائس بالتربية والعلم

ومن الواضح أنّ التربية والتعليم لأبناء الإنسان لا تتحقّق إلّا بقيامهم بما يجب عليهم تجاه المربّي والمعلّم، وقد بيّن الأئـمّة عـليهم السّـلام ذلك فـي كـليّاتهم الحكمية، ومن ذلك قول الإمام السجّاد عليه السّلام في رسالة الحقوق:

وحق سائسك بالعلم: التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٦.

(٢) إرشاد القلوب ٢ / ١٩٥.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: ٤٤٨.

والإقبال عليه(١).

فإن ذلك كلّه شرط، إذْ لولا تعظيم التلميذ لاستاذه وحسن استماعه إليه وإقباله عليه، لم تؤثّر السياسة التي اتخذها الاستاذ للتربية والتعليم، ولذهبت جهوده هدراً.

حق السائس بالملك

وكذلك السائس بالملك، وهو الذي أخذ على عاتقه إدارة شئون العباد والبلاد والقيام بمصالح الأُمّة والدين، فإنّ الشرط في تحقّق ذلك هو الإنصياع للحاكم والإطاعة له، كما قال الإمام السجّاد عليه السّلام:

وأمّا حقّ سائسك بالملك فأنْ تطيعه ولا تعصيه(٢).

وحيث أنّ هذه الإطاعة مطلقة غير مقيّدة بقيدٍ، فالمراد من السائس بالملك هو الإمام المعصوم المتولّي لأُمور المسلمين المبسوط اليد، أمّا إذا لم يكن الحاكم هو الإمام المعصوم، فإنّ الإطاعة له ليست بمطلقةٍ، بل إنما يطاع في أوامره ونواهيه المطابقة للشريعة المقدّسة.

وعلى كلّ حالٍ، فإن الإطاعة له شرط، إذ لولا إطاعة الناس له في أوامره ونواهيه لما حصلت نواياه الخيّرة في مصالح المسلمين.

سياسة الأئمّة ستتجلّى في عصر الظهور

ولكن الأمّة ـ مع الأسف الشديد ـ لم تسلّم الأمر بيد أهله، ولم تطع الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، ليسوسوها عملاً بالملك والتربية والتعليم، فقد حال

---

(١) بحار الأنوار ٧١ / ١٣.

(٢) بحار الأنوار ٧١ / ٥.

أعداء الإسلام والمسلمين دون ذلك، ولم يتسنّ لأهل البيت تطبيق مبادئ الحكومة الإسلامية والسياسة الشرعية الإلّهية، ممّا سبّب حرمان البشرية من الرقّي والتقدّم والإزدهار من ناحية، وعدم تذوّقها طعم العدالة التي تمتاز بها السياسة الإسلاميّة التي كانت عند أئمّتنا من ناحية أخرى، ولولا عزل الأئمّة عن قيادة المجتمع لتبيّن للقاصي والداني المفهوم الحقيقي للسياسة، واستقرّت الحكومة الصّالحة لقيادة المجتمعات البشريّة.

لكن ذلك سيظهر في عصر الظّهور بقيادة الإمام صاحب العصر والزمان ـأرواحنا له الفداءـ وستتحقق أهداف حكومة الأئمّة ـالتي هي حكومة الإسلام كما أراد الله ـ على يديه.

وروايات الفريقين ناظرة إلى ذلك، في نقلها لتصريح الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بقوله:

«يملأ الله به الأرض عدلاً وقسطاً بعدما مُلِئت ظلماً وجوراً»[١].

والناظر في معنى «العدل والقسط» في اللّغة العربية، يدرك مدى الدّور الذي سيضطلع به الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، وكذلك ينبغي الالتفات إلى كلمة «الأرض» في كلام الرسول صلّى الله عليه وآله، فإن ذلك يوضّح أن نفوذ قيادة الإمام عليه السّلام لا يقتصر على بلاد المسلمين أو قطعة معيّنة من العالم أو على البشر خاصة، بل سيغمر كلّ الوجود، في حركة شموليّة تأتي أوّلاً على الظلم وتقلع جذور الفساد الذي غصَّ كوكبنا الأرضي وغاص في وحله نتيجة السياسات الباطلة الذي أوجدها أعداء أهل البيت عليهم السّلام، حتىٰ أمست الدنيا مصداقاً لقوله تعالى:

---

(١) الكافي ١ / ٣٣٨، كمال الدين ١ / ٢٥٦.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[١].

ومن أراد الإطلاع على سياسة الإمام صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف فيما بعد الظهور، فليراجع الروايات التي استوعبت هذا الموضوع في مصادرنا[٢].

وَ أَرْكَانَ الْبِلاَدِ

«الركن» لغة

«الأركان» جمع «الركن» قال في القاموس:

الركن بالضم: الجانب الأقوى والأمر العظيم وما يقوى به من ملك وجندٍ وغيره[٣].

فركن الشيء ما يكون حدوثه وبقاؤه مستنداً إليه ومعتمداً عليه، كما هو الحال في قواعد العمارة، فإنها هي الأركان لها وبثباتها تبقى العمارة ثابتة وبتزلزلها تنهار.

وقد جاء في القرآن الكريم في قصّة لوطٍ:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٤].

ممّا يكشف عن حاجة الإنسان في حياته إلى ما يمنحه منعة تحفظه من المخاطر وطوارق الليل والنهار، وتلك المنعة إما تكون ذاتيّة أو خارجيّة يؤوي ويركن إليها.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥٢.

(٣) القاموس المحيط ٤ / ٢٩٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٠.

«البلد» لغةً

و«البلاد» جمع «البلد»، والظاهر أنه النقطة المعمورة، لعدم اطلاق هذا الاسم في لغة العرب على المكان غير العامر، قال تعالى:

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(١).

فالأئمّة عليهم السّلام هم الأعمدة التي تتقوّم بها البلاد وتستقرّ، فهم السّبب في إعمارها وبقائها عامرةً.

لكنّ صاحب مجمع البحرين يصرّح بأنْ «البلد» أعمّ من العامر وغير العامر، إذْ يقول:

«تطلق البلدة والبلاد على كلّ موضع من الأرض عامراً كان أو خلاءً»(٢).

وبناءً على هذا، فالأئمّة عليهم السّلام أركان البلاد، فما كان عامراً ففي أصل وجوده وعمرانه، وما كان خلواً من العمران، ففي أصل وجوده، وكأن المراد من «البلاد» هو «العالَم» بأسره.

نكتة قرآنية

ويتبيّن للناظر في الأُسلوب القرآني، أنه إذا أراد ذم مكانٍ أو أهله أو أخبر عن نزول العذاب فيه، أتى في جميع الموارد أو أغلبها بلفظ «القرية»، كالآية المباركة:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾(٣).

و ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾(٤).

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.

(٢) مجمع البحرين ١ / ٢٣٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١١.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٤.

فهو يعبّر بـ«القرية» حتى لو كانت مدينة كبيرة عامرة....

وبالعكس... نجده يعبّر عن المكان إذا أراد أن يمدحه أو يمدح أهله أو رجلاً واحداً منهم بـ«المدينة»، كما في الآية:

﴿وَجٰاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلينَ﴾[1].

وهنا مسائل

وبعد الفراغ عن بيان المراد من «الركن» و«البلد» يقع الكلام في مسائل:

هل المراد أنهم أركان البلاد أو أركان أهاليها؟

وهل المراد أنهم الأركان لأصل الوجود أو للوجود والبقاء؟

وهل المراد أنهم الأركان في الوجود المادي والمعنوي أو المعنوي فقط؟

قلت:

الأئمّة أوتاد الأرض

ظاهر اللّفظ ـ مع أصالة عدم التقدير في الكلام ـ أن العبارة ناظرة إلى أن الأئمّة عليهم السّلام هم الذين تستقرّ بهم البلاد وتدوم، ولا فرق بين المسكونة وغيرها. وبعبارة أخرى: إن أصل وجود العالم وحدوثه ثم ديموميّته وبقائه مرتهن بوجود الأئمّة المعصومين، وهم أوتاد الأرض التي تثبّتها كما تثبت الأرض بالجبال، قال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰادًا * وَالْجِبٰالَ أَوْتٰادًا﴾[2].

ويشهد بذلك أخبار كثيرة:

---

(١) سورة يس، الآية: ٢٠.

(٢) سورة النبأ، الآية: ٦.

منها: عن أبي جعفر عليه السّلام ـ في حديث ـ قال: فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله باب الله الذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله عزّوجلّ، وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السّلام من بعده، وجرى للأئمة واحداً بعد واحد.

جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها...[١].

وعنه عليه السّلام قال: والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض الله آدم عليه السّلام إلّا وفيها إمام يهتدى به إلى الله وهو حجّته على عباده. ولا تبقى الأرض بغير إمام حجةٍ لله على عباده[٢].

وقال عليه السّلام: لو أنّ الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله[٣].

وقد صرّح علماء أهل السنّة بهذا المعنى أيضاً، فقد قال القندوزي الحنفي:

إنّ الله خلق الأرض من أجل النبي صلّى الله عليه وآله، فجعل دوامها بدوام أهل بيته وعترته[٤].

لكن الصحيح أنّ خلق الأرض من أجل النبيّ وأهل بيته كذلك....

هم العلّة لخلق الناس وبقائهم

وكذا الكلام إن كان المراد من «أركان البلاد» هو «أهل البلاد»، فإنّ خلقهم وبقائهم هو من أجل النبيّ وأهل بيته، وأنه لو رفع أهل البيت من الأرض ذهب أهل

(١) الكافي ١ / ١٩٨.

(٢) الكافي ١ / ١٧٩.

(٣) الكافي ١ / ١٧٩، بصائر الدرجات: ٤٨٨.

(٤) ينابيع المودّة ١ / ٦٣.

الأرض كلّهم، فحياتهم الماديّة والمعنويّة منوطة بحياة أهل البيت المعصومين.

ويشهد بهذا أيضاً نصوص كثيرة في كتب الفريقين:

فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

«النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض».

وهذا القول يكشف عن المقام الذي خصّه الله تعالىٰ لأهل البيت عليهم السّلام، بحيث جعل بين وجودهم المبارك وديمومة وجود الأرض وما عليها رباطاً وثيقاً إذا انحلّ ذهبت الدنيا وما فيها.

وقد صحّح هذه الرواية كبار علماء السنة، كأحمد بن حنبل والحاكم النيشابوري[١].

وعبارة «أهل الأرض» تدعونا للتدّبر والتدقيق، فهي تشمل عامة أهل الأرض مسلمين وغير مسلمين، بشراً وغير بشر، وسنبيّن ذلك في حينه لاحقاً.

وجاء في حديث آخر قول الرسول صلّى الله عليه وآله ما نصّه:

«النجوم جعلت أماناً لأهل السماء، وإن أهل بيتي أمان لأُمّتي»[٢].

وفي حديث ثالث:

«النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت أتاها ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي ما كنت فيهم، فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأُمتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون»[٣].

---

(١) راجع المستدرك ٢ / ٤٤٨ و ٣ / ٤٥٧، وكنز العمّال ١٢ / ٩٦ ـ وروته أيضاً مصادرنا، راجع: تفسير الصافي ٦ / ٣٢٩، كمال الدين وتمام النعمة: ٢٠٥.

(٢) المعجم الكبير ٧ / ٢٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٢ / ٤٨٦.

وعلى الجملة، فإن أهل البيت الطّاهرين هم العلّة لإيجاد الخلق، وهم العلّة لبقائه، وهم السبب لجميع الخيرات والبركات المادية والمعنوية.

هم الأركان في الهداية والتزكية والتعليم والمغفرة

وللأئمة الطاهرين آثار معنويّة عظيمة للإنسان، من أهمّها:

١ ـ الهداية

٢ ـ التزكية

٣ ـ التعليم

وأنت تجد الكلام على كلّ واحدٍ من هذه الأُمور في هذا الكتاب بشيء من التفصيل.

ومن الآثار المترتّبة على وجودهم: رفع العذاب عن الناس بهم كما رفع بجدّهم رسول الله إذ قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١].

ومن الآثار المترتّبة على وجودهم: بقاء الأُمة على الإيمان، كما كان جدّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله إذ قال الله سبحانه:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[٢].

قال النيسابوري في تفسيره:

«﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام بطريق الإنكار والتعجّب، والمعنى: من أين يتطرّق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله تتلى عليكم على لسان الرسول صلّى الله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

عليه وآله غضّة في كلّ واقعة، وبين أظهركم رسول يبيّن لكم كلّ شبهة ويزيح عنكم كلّ علّة....

قلت: أمّا الكتاب، فإنه باق على وجه الدهر، وأما النبي صلّى الله عليه وآله، فإنه وإنْ كان قد مضى إلى رحمة الله في الظاهر، ولكن نور سرّه باق بين المؤمنين، فكأنه باق، على أن عترته صلّى الله عليه وسلّم ورثته، يقومون مقامه بحسب الظاهر أيضاً، ولهذا قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين»...»[١].

ومن الآثار المترتبة على وجودهم: حفظ الأُمة من الاختلاف، كما في الحديث:

النجوم أمانٌ لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأُمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس[٢].

ومن الآثار المترتّبة على وجودهم: كونهم الوسيلة للوصول إلى الكمال لمن توسّل بهم.

إنّ التوسّل بالأئمّة الأطهار مفتاح الحصول على كلّ خير وسلّم الوصول إلى كلّ كمال، ومن المناسب أن أورد هنا ترجمة ما أوصاني به جدّي الراحل، المرجع الديني الكبير، المرحوم السيد محمّد هادي الميلاني طيّب الله ثراه وبخطّ يده، فقد قال رحمه الله ما ترجمته:

«إن العمدة في استكمال مراتب الفضيلة أربعة أشياء:

الأوّل: المعارف الالّهية.

والثاني: التقوى.

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١ / ٣٤٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٦٢.

والثالث: الفقه والأصول.

والرابع: مكارم الأخلاق.

فإنّ اجتماع هذه الأركان الأربعة في غاية الأهميّة، وهو المستعان سبحانه وتعالى.

وإنّ الدعاء والتوسّل بمقام الولاية وطلب العناية المباركة من وليّ العصر أرواحنا فداه، هي الوسيلة لنيل تلك الأركان الأربعة. إن شاء الله تعالى».

أثر وجودهم للجنّ والحيوانات

ثم إنه يستفاد من كلمة «أهل الأرض» في قول النبي صلّى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض» أن بركات وجود أهل البيت عليهم السّلام على وجه الأرض لا تقتصر على أبناء البشر فحسب، بل تعمّ سائر الخلائق كالحيوانات والجنّ... في حدوثها وبقائها....

إنّ الأخبار في معرفة الأئمّة عليهم السّلام لغات الحيوانات ورجوعها إليهم في مشكلاتها وتقديم شكاواها... كثيرة، وما قصّة الغزالة التي شملها عطف الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السّلام إلّا واحدة من تلك القضايا، وفي هذا الكتاب موارد أخرى.

وأمّا الجن، فمن «أهل الأرض» أيضاً، وفي هذه الطائفة مؤمنون وغير مؤمنين، وكلّهم يتنعّمون ببركات الأئمّة الأطهار.

وقد اتفق في زمان مرجعيّة سيدنا الجدّ الرّاحل في مدينة مشهد الرّضا أن رجلاً جاء إلى شيخٍ كان له القدرة على الاتّصال بالجن، وشكى إليه استهداف الجنّ داره بالحجارة، فاستفسر الشيخ منهم فقالوا: بأن أهل هذه الدار قد كسروا رجل

واحدٍ منّا، فنحن نرميهم بالحجارة انتقاماً منهم، فأقرّ صاحب الدار بأنّ أحد أبنائه قد كسر رجل قطٍّ كان على حائط الدار، وأبدىٰ استعداده لجلب رضاهم، فقالوا: نحن مقلّدون للسيد الميلاني ونسلّم لحكمه، فلمّا حكم السيّد الجدّ في القضيّة وامتثل صاحب الدار... انقطع رمي الأحجار....

هذا، ومن جملة الشواهد على عموم «أركان البلاد» كما ذكرنا، ما ورد بذيل قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[١].

ففي الأخبار:

«هي ولاية علي بن أبي طالب»[٢].

وروىٰ الحافظ ابن شهرآشوب السّروي عن محمّد بن الحنفيّة عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام أنه قال:

«عرض الله أمانتي على السّماوات السّبع بالثواب والعقاب، فقلن: ربّنا لا تحمّلنا بالثواب والعقاب، لكننا نحملها بلا ثواب ولا عقاب، وإنّ الله عرض أمانتي وولايتي على الطيور، فأوّل من آمن بها البزاة البيض والقنابر، وأوّل من جحدها البوم والعنقا فلعنهما الله تعالى من بين الطيور، فأمّا البوم، فلا تقدر أن تظهر بالنهار لبغض الطير لها، وأمّا العنقاء، فغابت في البحار لا ترى. وإنّ الله عرض أمانتي على الأرضين، فكلّ بقعة آمنت بولايتي جعلها طيبة زكيّة وجعل نباتها وثمرها حلواً عذباً وجعل ماءها زلالاً، وكلّ بقعة جحدت إمامتي وأنكرت ولايتي،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) الكافي ١ / ٤١٣.

جعلها سبخاً وجعل نباتها مرّاً علقماً، وجعل ثمرها العوسج والحنظل، وجعل ماءها ملحاً أجاجاً.

ثمّ قال: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾؛ يعني أمتك يا محمّد! ولاية أمير المؤمنين وإمامته بما فيها من الثواب والعقاب ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولاً﴾ لأمر ربّه؛ من لم يؤدها بحقّها فهو ظلوم غشوم»[١].

وَ أَبْوَابَ الإِيمَانِ

قد نُزّل «الايمان» بمنزلة مكانٍ يراد الدخول إليه، ونزّل الأئمّة بمنزلة «الأبواب» لذلك المكان.

ويتمّ شرح هذه الجملة وفهم المقصود منها ببيان نقاط:

١ ـ إنّ أيّ مكانٍ محصور يراد الدخول فيه يلزم نصب الباب أو الأبواب له من أجل الدخول عن طريقه.

٢ ـ إنّ الباب يعدّ من أجزاء ذلك المكان بل من أجزائه الرئيسيّة.

٣ ـ إنّ الدخول في المكان لا عن طريق الباب المعدّ لذلك قبيح عقلاً وعقلاءً، وغير جائز شرعاً، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[٢]

٤ ـ إن تحقق الدخول في أيّ مكانٍ من الأمكنة المتعلّقة للغير منوط بأمرين:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢ / ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

أحدهما: وجود المقتضي للدخول، لأنّه ليس كلّ واحدٍ بأهلٍ للدخول إلى كلّ مكان، بل لابدّ أن تكون هناك مناسبة بينه وبين المكان، فالأهلية واللّياقة للدخول فيه شرط.

والثاني: عدم المانع، بأنْ ينتفي المانع من الدخول من قبله ومن قبل المكان ومن بيده الأمر، فقد يوجد المقتضي وينتفي المانع من قبله ولكنّ صاحب المكان لا يأذن، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ قيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾[١].

٥ ـ إنّ من الأمكنة ما يمتنع إتيانه من ظهره لو أُريد ذلك، لعلوّ السّور المحيط به واستحكامه مثلاً، والدخول من الباب وهو الطريق الوحيد، فإنْ دخل منه وإلّا لم يكن من أهل ذاك المكان.

٦ ـ إنه قد لا يكون للمكان ـ وإنْ كان واسعاً جدّاً ـ إلّا باب واحد.

«الايمان» لغة

وبعد

فما هو «الإيمان»؟

إن «الايمان» في اللّغة من «الأمن»، وهو طمأنيّنة النفس وزوال الخوف[٢]، ومن هنا كان من الصحيح القول بأن «الإيمان» هو التصديق المطلق[٣] والاعتقاد الجازم، لأنّ المؤمن المعتقد كذلك يكون في أمنٍ من الريب والشك ومن عواقب عدم الإيمان.

---

(١) سورة النور، الآية ٢٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢٥.

(٣) مجمع البحرين ٦/ ٢٠٥.

فالأئمّة عليهم السّلام هم الأبواب للاعتقاد الجازم بما يجب الاعتقاد به كذلك، والتصديق المطلق بما يجب التصديق به كذلك.

إنهم الباب الوحيد المنصوب من الله للدخول في هذا الحصن المستحكم، والاعتقاد الجازم بإمامتهم والتصديق المطلق بأقوالهم الصّادرة عنهم هو من الأجزاء الرئيسيّة للإيمان الموجب للأمن من الضلال والعقاب الاخروي، لمن كان له الأهليّة والصّلاحية لذلك....

روايةٌ في الإيمان

إنّ الاعتقاد الجازم والتصديق المطلق يكون في القلب وهو فعله، ويكون في الجوارح، وهو الامتثال للأوامر والنواهي، وفي الكافي «باب أن الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها»[١].

وعن أبي عمرو الزبيري قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام:

«أيّها العالم! أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟

قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلّا به.

قلت: وما هو؟

قال: الإيمان بالله الّذي لا إله إلّا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً.

قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كلّه والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه.

---

(١) الكافي ٢ / ٣٣.

قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتّى أفهمه.

قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه.

قلت: إنّ الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟

قال: نعم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلّا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، فمنها قلبه الّذي به يعقل ويفقه ويفهم وهو أمير بدنه الّذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما وأذناه اللتان يسمع بهما ويداه اللتان يبطش بهما ورجلاه اللتان يمشي بهما وفرجه الّذي الباه من قبله، ولسانه الّذي ينطق به، ورأسه الّذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلّا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، بفرض من الله تبارك اسمه».

وفي هذه الرواية فوائد كثيرة.

ثم قال عليه السّلام:

«فأمّا ما فرض على القلب من الإيمان، فالإقرار والمعرفة والعقد والرّضا والتسليم بأنْ لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، إلَهاً واحداً لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً، وأنّ محمّداً عبده ورسوله ـ صلوات الله عليه ـ والإقرار بما جاء من عند الله...»[1].

لذلك كان أئمتنا على أعلىٰ مستوىٰ من درجات الإيمان، فقد سُئِل أبو جعفر الباقر عليه السّلام:

---

(١) الكافي ٢ / ٣٣ ـ ٣٤.

أيّ شيء تعبد؟

قال: الله

قال: رأيته؟

قال: بلىٰ، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكنْ رأتْهُ القلوب بحقائق الإيمان»[١].

من هنا، فإنّ قوله عليه السّلام:

«لو كُشِفَ لي الغطاء ما آزددت يقيناً»[٢].

ناظر إلى هذا الجانب.

وهم القائلون:

«بنا عُرِف الله، بنا عُبِدَ اللّٰهُ».

وسنذكر بعض الأبحاث بهذا الصّدد في شرح عبارة «من أراد الله بدأ بكم» من هذه الزيارة. إن شاء الله.

وبما ذكرنا ظهر: أن «الإيمان» أو «ما يجب الاعتقاد به» بالاعتقاد الجازم، والتصديق به مطلقاً، هو «الدين» والشريعة المقدّسة الإسلاميّة....

«الايمان» هو «الدين»

فما هو حقيقة الدين؟

إنّ الدين الإسلامي الكامل الذي بلّغه رسول الله صلّى الله عليه وآله ووصفه الله سبحانه بما أنزله يوم غدير خم من قوله:

---

(١) الكافي ١ / ٩٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢ / ٣٨، بحار الأنوار ٤٠ / ١٥٣.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[١].

والذي جعل الأئمّة عليهم السّلام الباب الوحيد للدخول فيه، فكان الاعتقاد الجازم بإمامتهم والتصديق بولايتهم المطلقة... يتشكّل من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الأُمور الاعتقادية.

القسم الثاني: الأُمور العمليّة، من الواجبات والمحرّمات والمستحبّات، وهي الأُمور التي لها صلة بالأعضاء والجوارح.

القسم الثالث: الصّفات النفسانيّة، والخصال الأخلاقيّة التي يسعىٰ الإنسان للتخلّق بأفضلها، مبتعداً عن سيّئها وذميمها.

مجموع هذه الأقسام هو الدين.

ومما لا يخفىٰ: أن لُبَّ الدين وأساسه هي الأُمور الاعتقادية التي تبتني عليها الأُمور العملية والأخلاقية. فعندما يوصف أحد بأنّه من أهل الإيمان الذين ترعرعوا في أحضانه وأصبحوا من أبناء الإسلام البارّين، فسيتطابق الإيمان مع سلوكه وجوارحه وعقله، وهو الذي ستكون عقائده تامّة وأعماله صحيحة، لأنّه قد أصبح عبداً مطيعاً. أمّا قلباً، فلإعتقاده الجازم بالاصول الواجب عليه الإعتقاد بها عقلاً وشرعاً، وأمّا عملاً، فلإمتثاله للأوامر والنواهي، بفعله الواجبات وتركه المحرّمات، وكذا من جهة اعتداله في السّلوك.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

الأبعاد الثلاثة لشخصيّة الإنسان الكامل

وهكذا يكون الإنسان الكامل وكمال الإنسان في الإسلام، والبرهان على ذلك هو: إنّ الإنسان ذو أبعاد ثلاثة:

١ ـ البعد الروحي

٢ ـ البعد الجسدي

٣ ـ البعد النفسي

فمن جَدَّ واجتهد في بلوغ ذرىٰ هذه الأبعاد فهو الإنسان الكامل، لأنه يبلغ النضوج في بعده الروحي والفكري عقائدياً، وفي بعده الجسدي في اجتناب المحرّمات والعمل بالواجبات. وثالث أضلاع المثلث؛ البعد النفسي الذي يسوق النفس للتزكية، بإخلائها من الصفات الذميمة وتحليتها بالخصال الحميدة ـ حسب تعبير علماء الأخلاق ـ.

وهذه رسالة الدين الإسلامي، لأن الدين الإسلامي دين العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة، ودين تهذيب وتزكية الإنسان، وعليه، فالكمال كلّ الكمال في الإسلام فقط.

فإذا ما أردنا نبعاً صافياً ننهل منه الكمال في مساراته الثلاثة، فما علينا إلّا أن نقتدي بالأئمّة الأطهار الذين جعلهم الله الباب الوحيد للدخول في الإيمان وبلوغ الكمال.

ويشهد بما ذكرنا أحاديث كثيرة في كتب الفريقين:

عليّ باب الدين

ممّا أورده الفريقان هو قول النبيّ صلّى الله عليه وآله:

«علي بن أبي طالب باب الدين»(١).

وهو مايؤيد تفسيرنا للإيمان، وأن الدين هو ما أوضحناه بأبعاده الآنفة الذكر. وفيه تطابق مع باب حطة الذي «من خرج منه كان كافراً».

علي باب حطة

فمن المعلوم أن الآية المباركة من سورة البقرة:

﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

نزلت في قوم موسى عليه السّلام حيث فرض الله تعالىٰ عليهم أن يدخلوا من باب البيت المقدس في حالة الخشوع والخضوع ليُغفر لهم، وإلّا يحرمون المغفرة وتستحوذ عليهم الشقاوة والخسران. فضربها نبينا الأكرم صلّى الله عليه وآله مثلاً لأُمته بتشبيه عليٍّ عليه السّلام بالباب المذكور، كما نقل ذلك كبار أهل السنّة كصاحب الجامع الصغير، عن ابن عباس:

«عليٌّ باب حطّة، من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً»(٣).

وعلّق المناوي على ذلك بقوله:

«أي أنه سبحانه وتعالىٰ كما جعل لبني إسرائيل دخولهم الباب متواضعين

(١) ينابيع المودة ٢ / ٢٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٣) الجامع الصغير ٢ / ١٧٧

خاشعين سبباً للغفران، جعل لهذه الأُمة مودّة علي والاهتداء بهديه وسلوك سبيله وتولّيه سبباً للغفران ودخول الجنان ونجاتهم من النيران، والمراد يخرج منه خرج عليه[١].

فعليّ ومن اقتدى به واهتدى بهديه فاتّبعه في أقواله وأفعاله، يكون مؤمناً كامل الإيمان، وهو الإيمان بأبعاده الثلاثة التي يكمل بها المؤمن كما أسلفنا، وهذا يوضّح مصداقيّة الاتّحاد بين «باب الإيمان» و«باب حطّة» وتطابق نتيجتها.

باب السلم

كما أنّ الأئمّة عليهم السّلام هم المصداق لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٢].

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«ألا إن العلم الذي هبط به آدم من السّماء إلى الأرض، وجميع ما فُضّلت به النبيّون إلى خاتم النبيين، في عترة خاتم النبيين.

فأين يُتاه بكم، بل أين تذهبون؟... إنَّ مثلنا فيكم كمثل الكهف لأصحاب الكهف وكباب حطة، وهو باب السّلم، فادخلوا في السّلم كافة»[٣].

ولا أوضح من ذلك، ولا أثر بعد عين، وما علامة الإيمان واكتماله إلّا بالدخول في باب السّلم هذا، والخروج منه هو الكفر بعينه، وليس بعد الحق إلّا الضلال.

---

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٤ / ٤٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) كتاب الغيبة للنعماني: ٤٤.

علي باب الفقه

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أنا مدينة الفقه وعلي بابها[١].

وقد ذكرنا في بحوثنا أنّ «التفقّه في الدين» الذي أُمرنا بالنفر من أجله في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

هو فهم الدين في أبعاده الثلاثة المذكورة سابقاً.

وعلي عليه السّلام هو الباب لذلك... فكان هذا الحديث متطابقاً مصداقاً مع ما تقدّم من الأحاديث النبويّة.

علي باب الجنّة

وهذا حديث آخر مرويٌّ عن رسول الله، فقد قال صلّى الله عليه وآله:

«أنا مدينة الجنّة وعلي بابها، فمن أراد الجنّة فليأتها من بابها»[٣].

وهل الجنّة إلّا الدين؟

وهل الجنّة إلّا الإيمان؟

---

(١) نفحات الأزهار ١٠ / ٣٦٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) أمالي الطوسي: ٣٠٩، مناقب علي لابن المغازلي: ٨٦.

علي باب مدينة العلم

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها.

وهذا من أشهر الأحاديث النبويّة، وقد بحثنا عنه سنداً ودلالةً بالتفصيل في أجزاء كتابنا الكبير[١].

وقد مرّ علينا قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

ألا، إن العلم الذي هبط به آدم من السّماء إلى الأرض وجميع ما فُضّلت به النبيّون إلى خاتم النبيين، في عترة خاتم النبيين[٢].

فكلّ من أراد شيئاً من علوم الأوّلين والآخرين، فعليه أن يرجع إلى علي عليه السّلام، وهو «باب السّلم» و«باب الفقه» و«باب الدين».

علي باب الحكمة

وقد جاء المعنى المذكور بلفظ «الحكمة» أيضاً، إذ قال صلّى الله عليه وآله: «أنا مدينة الحكمة وعلي بابها»[٣].

علي باب النبي

وهو عليه السّلام باب النبيّ صلّى الله عليه وآله إذ قال له:

«أنت بابي الذي أُوتىٰ منه».

---

(١) نفحات الأزهار، الأجزاء ١٠ ـ ١١.

(٢) بحار الأنوار ٢٦ / ١٦٠.

(٣) نفحات الأزهار ١٠ / ٣٥٠.

أو قال عنه: «هو بابي الذي يؤتى منه».

أو قال:

«علي بابي الذي أوتىٰ منه»[١].

وقد ورد ذلك في كتب الفريقين، فمن أراد أن يأتي النبيّ صلّى الله عليه وآله لأخذ الشيء من العلم والمعرفة، في تفسير القرآن، في أحكام الحلال والحرام، وفي أيّ مسألةٍ في شتّى المعارف والعلوم، فليأت عليّاً، لكونه باب النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

علي باب الله

وبالأخرة... فإنّ عليّاً باب الله... قال رسول الله لعلي:

يا علي، أنت حجة الله وأنت باب الله[٢].

وهذا التعبير أكثر التعابير جمالاً وبهاءً....

إنّ من أراد الوصول إلى الله، فلابدّ وأن يبدأ بعلي والأئمّة الطاهرين من ولده....

إنّ هؤلاء هم الأبواب المنصوبة من الله للوصول إليه....

والوصول إلى الله هو الفوز برضاه والقرب منه بمعرفته عن طريق أوليائه المعصومين وطاعته وعبادته كما بيّنوا، ومن يدّعي وجود طريقٍ آخر يؤدي إلى ذلك غير طريق النبي الأكرم وأهل بيته الطّاهرين فهو كاذب دجّال، ومن مصاديق قوله تعالى:

---

(١) وسائل الشيعة ٢٧ / ٧٦، فرائد السمطين ١ / ١٥٠، كفاية الطالب ١٠ / ٣٨٩، ينابيع المودة: ٦٣.

(٢) بحار الأنوار ٣٦ / ٤.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(١).

علي الباب المبتلى به الناس

ولذا كان علي وأبناؤه الأطهار الباب المبتلىٰ به الناس... قال رسول الله لعلي: يا علي، إنك مبتلى ومبتلى بك(٢).

والابتلاء هو الاختبار.

وفي الزيارة الجامعة إنهم «الباب المبتلىٰ به الناس» وسيأتي شرحه، وبالله التوفيق.

وَأُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ

«الأمانة» لغة

«الأُمناء» جمع «الأمين» وهو المؤتمن على الشيء.

ومفهوم الأمانة يتقوّم بثلاثة أُمور:

١ ـ المُؤتَمِن. وهو الذي يودِعُ الشيء لدىٰ أحدٍ.

٢ ـ المُؤتَمَن. وهو الذي يودَعُ عنده الشيء.

٣ ـ الشيء المؤمَّن. وهو الشيء المودَع من قبل المودِع لدى المؤتَمَن. وليس بالضرورة أن يكون شيئاً من الأعيان، فقد يكون كلاماً أو خبراً يودع عند

---

(١) سورة هود، الآية: ١٨ و ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٨ / ٦٩.

الشخص ويطلب منه أنْ لا ينتشر، كما في الأحاديث عن النبيّ وآله، فعن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

المجالس بالأمانة[١].

فعلىٰ ذلك، يمكن أن تكون الأمانة شيئاً مادّياً أو معنوياً، وإذا لم يتوفّر طرف من الأطراف الثلاثة، لا يتحقق عنوان الأمانة مطلقاً.

إلّا أن «أُمناء الرحمٰن» قد اشتمل على طرفين، فما هو الشيء الذي أودعه الله تعالى لدىٰ أهل البيت عليهم السّلام فأصبحوا بموجبه أمنائه؟

إنه لمّا كانت عبارة «أُمناء الرحمٰن» يفهم منها الإطلاق ولم تتحدّد بقرينة، بل إنّ الإضافة إلى الرحمة الرحمانيّة أيضاً يقتضي الإطلاق، كما سيأتي، وتكون الأمانة غير محدّدة بشيءٍ، بل تشمل كلّ أُمور العالم ـ ماديّة ومعنويّة ـ فهي مودعة عند الأئمّة عليهم السّلام.

الغرض من جعل الأمانة

ثم إنّ الغرض من جعل الشيء أمانةً عند الشخص يختلف:

فقد يجعله لأنْ يحتفظ به ولا يأذن له بالتصرّف فيه أصلاً.

وقد يجعله عنده ويأذن له بالتصرّف.

فتارةً: يأذن بالتصرّف لنفسه.

واخرى: يأذن بالتصرّف في جهةٍ اخرى معيَّنة.

وثالثة: يأذن بالتصرّف فيه على وجه الإطلاق.

وهذه الصّورة الأخيرة هي ظاهر إطلاق «أُمناء الرحمن».

---

(١) الكافي ٢ / ٦٦٠.

إضافة «الأُمناء» إلى «الرحمن»

لقد دلّ «امناء الرحمن» على الشمول والإطلاق في «الشيء» المجعول أمانةً، وفي أنحاء التصرّف فيه إن كان قابلاً لذلك.

وتدلّ إضافة «الأُمناء» إلى «الرحمن» لا إلى لفظ الجلالة أو «الرب» وغير ذلك على الشموليّة من جهةٍ اخرى، لأنّ في الإضافة إلى الرحمة الرحمانيّة إشارةً إلى أن فوائد وبركات تصرّفات الأئمّة في الأشياء ليست خاصّة بأهل الإيمان، بل إنها تعمّ جميع الخلائق، كما أن الرّحمة الإلَهيّة عامّةٌ ووسعت كلّ شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

ما هو الملاك لهذا الائتمان

وحينئذٍ، يقع البحث عن الملاك لهذا الائتمان مع هذه السّعة والشموليّة في التصرّف وغيره؟

إنّ القابليّة والأهليّة للائتمان تختلف، فقد يكون الشخص مؤهّلاً لأنْ يودع عنده الشيء بقيمة مائة دينار مثلاً، ولا يطمئنّ به لأنْ يودع عنده إذا كان بقيمة ألف دينار، وهكذا... فما هي الصّفات التي جعلت أئمّة أهل البيت عليهم السّلام مؤهّلين لأن يكونوا أُمناء الله الرحمن على كلّ شيء من القرآن والشّريعة وجميع الكائنات، ومأذونين لأنْ يتصرّفوا في الأشياء ممّا يمكن التصرّف فيه كيفما شاؤا؟

والجواب:

أوّلاً: إنّ الأئمّة عليهم السّلام معصومون من المعصية والخطأ والنسيان.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

وثانياً: إنهم عالمون بجميع المصالح والمفاسد، وبذلك روايات كثيرة، منها: عن أبي عبدالله عليه السّلام: «إنّ الله أحكم وأكرم وأجلّ وأعظم وأعدل من أن يحتجّ بحجة ثم يغيب عنهم شيئاً من أُمورهم»[١].

وعنه أنه قال: «أترى من جعله الله حجّة على خلقه يخفى عليه شيء من أُمورهم»[٢].

وثالثاً: إنهم مظاهر الرّحمة الإلهيّة الواسعة وقد جعل لهم الولاية العامّة، كما تقرّر في محلّه.

ومن النصوص الدالّة على ذلك الخبر عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام أنه قال:

«ما من شيء ولا من آدمي ولا إنسي ولا جنّي ولا ملك في السّماوات إلّا ونحن الحجج عليهم، وما خلق الله خلقاً إلّا وقد عرض ولايتنا واحتجّ بنا عليه، فمؤمن بنا وكافر جاحد، حتى السّماوات والأرض والجبال[٣].

ورابعاً: إنه أفضل من الملائكة الذين أوكل الله إليهم تدبير الأُمور وأشار إليهم بقوله:

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[٤].

وخامساً: إن الله سبحانه قد أدّبهم قبل أنْ يأتمنهم ويفوّض إليهم الأُمور وإدارة شئون العالم، كما في عدّة من النصوص.

---

(١) بصائر الدرجات: ١٢٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٦ / ١٣٨.

(٣) بحار الأنوار ٢٧ / ٤٦.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٥.

وسادساً: إنّ الأئمّة لا يقدمون على شيء ولا يقومون بعملٍ إلّا بإرادةٍ من الله، كما في الأخبار الكثيرة، كالتي وردت بذيل قوله تعالى:

﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1].

كالخبر عن الإمام الهادي عليه السّلام: «إنّ الله تبارك وتعالى جعل قلوب الأئمّة مورداً لإرادته، وإذا شاء شيئاً شاؤا، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وفي رواية اخرى:

فهم يحلّون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلّا أن يشاء الله تبارك وتعالى[2].

فلا مجال للاستغراب ممّا ذكرناه بشرح الجملة، ولا يتوهم منه الغلوّ، وسنوضّح كلاًّ من هذه الأُمور في موضعه المناسب إن شاء الله.

إشارة إلى ما ورد في حفظ الأمانة وأدائها

على أنّ الله قد طهّر أهل البيت عليهم السّلام من البخل والحسد والحقد والطمع وغيرها من الرذائل الخلقيّة التي تتسبّب في الخيانة في الأمانة... يقول الإمام السجّاد عليه السّلام:

لو أن قاتل أبي الحسين بن علي ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه.

وفي رواية اخرى:

لا تغترّوا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربما لهج بالصّلاة والصّوم حتى

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) الكافي ١ / ٤٤١.

لو تركه استوحش، ولكنْ اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة[١].

وفي أخرى:

إنّ الله عزّوجلّ لم يبعث نبيّاً إلّا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر[٢].

وفوق ذلك... الحديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنه أمر رجلاً بإبلاغ كلامه إلى أحد أصحابه قائلاً:

قل له: إن جعفر بن محمّد يقول لك: أُنظر ما بلغ به علي عند رسول الله فالزمه، فإنّ عليّاً إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الأمانة[٣].

وَسُلاٰلَةَ النَّبِيِّينَ

قال في المصباح: السليل الولد، والسلالة مثله، والانثى سليلة[٤].

وفي مجمع البحرين: السلالة الخلاصة لأنها تسلّ من الكدر، ويكنّى بها عن الولد، والسلالة النطفة أو ما ينسلّ من الشيء القليل... وسلالة الوصيين: أولادهم[٥].

والظاهر أن «اللام» في «النبيّين» للعهد، لأنّ عدّةً من النبيين هم آباء الأئمّة الطاهرين لا كلّهم....

---

(١) الكافي ٢ / ١٠٤.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر.

(٤) المصباح المنير: ٢٨٦.

(٥) مجمع البحرين ٥ / ٣٩٨.

لا يتوهّم أفضلية النبيّين من الأئمّة

ولا يتوهّم كون النبيّين أفضل من الأئمّة لأنهم قد تولّدوا منهم... لوجوه:

الأوّل

إنه قد تقرّر في محلّه: أنّ الإنسان إنسانٌ بروحه لا ببدنه، وأنّ البدن دائماً في خدمة الروح، تستخدمه في مقاصدها، وإنْ ثبت أن البدن أيضاً يعاد في القيامة للحساب، وأن المعاد روحاني وجسماني معاً... وعلى هذا، فإنّ الأفضليّة ترجع إلى الروح وإنْ كان البدن المتعلّقة به متولّداً من المفضول.

والثاني

إنه لا ريب لأحدٍ في أفضليّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله من آبائه وسائر الأنبياء السّابقين، وأنّ كونهم وسائط لتولّده لا يقتضي أفضليتهم منه، كذلك الحال بالنسبة إلى الأئمّة عليهم السّلام، فمجرّد الأُبوة والبّنوة لا يكفي لأفضليّة الأب من الابن.

والثالث

إنه قد ثبت من آية المباهلة، وهي قوله تعالى:

﴿... فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...﴾[1].

والمراد من «الأنفس» علي عليه السّلام، هو مساواة أمير المؤمنين للنبي في جميع فضائله ومناصبه إلّا النبوة، ولما كان صلّى الله عليه وآله أفضل من سائر الأنبياء، كذلك علي، لأن مساوي الأفضل أفضل.

وأيضاً: قد بسطنا الكلام فيما سبق حول تقدّم نبوة نبيّنا الأكرم على نبوّات

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

سائر الأنبياء، وأوضحنا هناك ملازمة الإمام علي له في ذاك العالم، فكان ذلك دليلاً آخر على أفضليته من الأنبياء السابقين، وكذلك بقية الأئمّة المعصومين.

والرابع

إن مقتضى حديث النور المتفق عليه، وهو قوله صلّى الله عليه وآله في أحد ألفاظه:

كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عزّوجلّ قبل أنْ يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق الله آدم قسّم ذلك النور جزئين، فجزء أنا وجزء علي، فلم نزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبدالمطلب، ففيّ النبوة وفي عليٍّ الخلافة.

هو أن الأنبياء من آبائهما ـ بالرغم من علوّ منزلتهم ورفعة مقامهم ـ لم يكونوا إلّا وسائط لمجئ النبي ووصيّه علي ـ عليهما الصّلاة والسّلام ـ إلى هذا العالم، وقد فصّلنا الكلام حول مداليل هذا الحديث في كتابنا الكبير[١].

والخامس

إنّ مقتضى حديث التشبيه المتفق عليه، وهو قوله صلّى الله عليه وآله في أحد ألفاظه ـ كما رواه الحافظ السّروي عن أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عبّاس ـ من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوحٍ في فهمه، وإلى موسى في مناجاته، وإلى عيسى في سمته، وإلى محمّد في تمامه وكماله وجماله، فلينظر إلى هذا الرجل المقبل. قال: فتطاول الناس أعناقهم، فإذا هم بعلي، كأنّما ينقلب في صبب وينحلّ عن جبل. تابعهما أنس، إلاّ أنه قال: إلى إبراهيم في خلّته، وإلى يحيى في زهده، وإلى موسى في بطشه. فلينظر إلى علي بن أبي طالب[٢].

(١) نفحات الأزهار، الجزء الخامس.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣ / ٢٦٤.

هو: اجتماع ما تفرّق من الفضائل والمناقب في الأنبياء في شخص علي عليه السّلام، وهذا يدلُّ على أفضليّته رغم تولّده منهم، وقد بيّنا وجوه دلالة الحديث على ذلك في كتابنا الكبير(١).

فإن قلت:

إذن، ما الفائدة في مخاطبة الأئمّة بقولنا: وسلالة النبيّين؟

قلت: يكفي فضلاً لهم أن المناوئين لهم لم يكونوا من سلالة النبيّين، بل لم تخلص أنسابهم من الفاحشة والسّفاح، فالأئمّة عليهم السّلام فقط سلالة النبيّين دون غيرهم من كبار صحابة رسول الله عليه وآله السّلام.

وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ

قال في المصباح: صفو الشيء ـ بالفتح ـ خالصه، والصّفوة ـ بالهاء والكسر ـ مثله، وحكي التثليث، وصفا صفواً من باب قعد وصفاء: إذا خلص من الكدر(٢).

وفي المفردات: أصل الصّفاء خلوص الشيء من الشوب(٣).

وعليه، فهذه الجملة كسابقتها في الدلالة على أنّ الأئمّة عليهم السّلام خلاصة المرسلين في جميع صفاتهم، ففيهم اجتمعت الصفات الحميدة والملكات الفاضلة التي تفرّقت في المرسلين، وهم القائمون بوظائفهم والحافظون لشرائعهم والمروّجون لتعاليمهم من بعدهم، ولعلّه إلى هذا تشير إضافة كلمة «الصفوة» إلى «المرسلين».

---

(١) نفحات الأزهار، الجزء: ١٩.

(٢) المصباح المنير: ٣٤٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٢٨٣.

حديث في أنهم «الصفوة»

ولعلّ من خير الأدلّة والشواهد على كون أئمّة أهل البيت «سلالة النبيّين وصفوة المرسلين» حياتهم وسيرتهم في المجتمع، فقد اعترف بذلك لهم المؤالف والمخالف والقريب والبعيد، ولذا كانوا أفضل الأُسر والبيوت في الأوّلين والآخرين، قال رسول الله في الحديث المتفق عليه:

إن الله خلق الخلق ففرَّقهم فرقتين، فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم خيّر القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم خيّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً[١].

وفي الباب أحاديث اخرى تجد بعضها في الكتاب.

وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

«العترة» لغةً

قال في الصّحاح: عترة الرّجل: نسله ورهطه الأذنون[٢].

وفي المخصّص: عترة الرجل: أُسرته وفصيلته ورهطه الأذنون[٣].

وفي النهاية: عترة الرجل أخصّ أقاربه، وعترة النبيّ صلّى الله عليه وآله بنو عبدالمطّلب، وقيل: أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلي وأولاده»[٤].

(١) صحيح الترمذي ٥ / ٥٨٣ ـ ٥٨٤.

(٢) صحاح اللغة ٢ / ٧٣٥.

(٣) المخصّص ١ / ٣٢٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث ٣ / ٣٨٥.

وفي اللسان:

قال ابن الأعرابي: العترة ولد الرجل وذريّته وعقبه من صلبه. قال: فعترة النبيّ صلّى الله عليه وآله ولد فاطمة البتول عليها السّلام[١].

وفي القاموس: العترة بالكسر... نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون[٢].

فهذه كلمات عدّة من أعلام اللّغويين في مفهوم «العترة»، وقد رأيت اتفاقهم على أنه نسل الرجل وولده وذريّته، وصرّح بعضهم بأنهم علي وفاطمة وأولادهما.

وفي هذا إشارة إلى الحديث القطعيّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٣].

وسيأتي بعض الكلام حوله، وهناك يظهر السبب في إيراد عبارات عدّة من أهل اللّغة في معنى «العترة».

و«الخيرة» هو المختار المنتخب والمصطفى[٤].

و«الرب»، قال الراغب: هو في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام[٥].

و«العالمين» جمع «العالم»: عالم الذرّ، وعالم الدنيا، وعالم الآخرة.

---

(١) لسان العرب ٤ / ٥٣٨.

(٢) القاموس المحيط ١ / ٥٦٠.

(٣) نفحات الأزهار، الأجزاء: ١ ـ ٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ١٦٠.

(٥) المصدر: ١٨٤.

من الأحاديث في أن النبي وآله خيرة ربّ العالمين

وفي هذا إشارة إلى الأحاديث القطعيّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، كالحديث:

إنّ الله خلق الخلق... وقد تقدّم.

والحديث:

إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم[1].

والحديث عن بعض الصّحابة:

إنّ الله تعالى اختار لنبيّنا خير الأنساب من لدن آدم إلى أنْ أُخرج من صلب أبيه عبدالله، فجعل خير الناس من ولد إسماعيل، فتكلّم بالعربية وتكلّم إسحاق على لسان أبيه، فولد إسماعيل العرب، ثم جعل خير الناس كنانة، ثم جعل خير العرب قريشاً وخير قريش بني هاشم، ثم جعل خير بني هاشم بني عبدالمطلب، ثم خير بني عبدالمطلب نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله فبعثه رسولاً واتّخذه نبيّاً وأهبط عليه جبرئيل بالوحي وقال له: طفت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر أفضل منك[2].

عن علي عليه السّلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

قسّم الله تبارك وتعالى أهل الأرض نصفين، فجعلني في خيرهما، ثمّ قسّم

---

(١) أمالي المفيد: ٢١٦، صحيح مسلم ١١ / ٣٨٠ بتفاوت يسير.

(٢) فتوح الشام ٢ / ١٩.

الآخر النصف على ثلاثة فكنت خير الثلاثة ثم اختار العرب من الناس، ثم اختار قريشاً من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريش، ثم اختار بني عبدالمطلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبدالمطلب[١].

وفي حديثٍ بعد أن قال ما ذكر:

فأنا من خيار إلى خيار[٢].

فالأئمّة خيرة ربّ العالمين، وعترة من هو خيار من خيار، والذي أُضيف إلى «ربّ العالمين» للإشارة إلى كونه الأفضل من بين جميع المربوبين في جميع العوالم، والذي قال:

«أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[٣].

والذي قال ولده الإمام الصّادق عليه السّلام في وصفه:

إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٤]. ثم فوّض إليه أمر الدين والأمة ليسوس عباده، فقال عزّ وجلّ ﴿**وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[٥].

وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان مسدّداً موفّقاً مؤيّداً بروح القدس، لا يزلّ ولا يخطئ في شيء ممّا يسوس به الخلق، فتأدّب بآداب الله...[٦].

---

(١) الخصال ١ / ٣٦.

(٢) مجمع الزوائد ٨ / ٣٩٦، إمتاع الأسماع ٣ / ٢٠٤.

(٣) بحار الأنوار ٦٨ / ٣٤٢.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٦) الكافي ١ / ٢٦٦.

ثم إنّ رسول الله قال في حق علي:

«علي منّي بمنزلتي من ربّي»(١).

وأمر بالتمسّك بعترته أهل بيته والقرآن بقوله:

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا... قال: ألا، وإني سائلكم حين تردون عليّ الحوض كيف خلفتموني في كتاب الله وعترتي....

وهم الأئمّة عليهم السّلام.

وهذا شرح «وعترة خيرة ربّ العالمين».

ليس «العترة» مطلق الأقارب

وبما ذكرنا ظهر سقوط ما زعمه بعض المتكلّمين من أهل السنّة من أن «العترة» هم «الأقارب»، فلا يختصّ بالأئمّة، ونضيف إلى ذلك وجوهاً أُخرىٰ:

أوّلاً: لِما عرفت من اتفاق اللّغويين على أنّ «العترة» هم أخصّ الأقارب وهم النسل والذريّة والأولاد، وأنْ عترة النبي صلّى الله عليه وآله هم ولد فاطمة عليها السّلام خاصّةً.

وثانياً: إنّ هذا الحديث يدلُّ على عصمة «العترة» كالقرآن الكريم، وذلك لأنه أمرٌ مطلق بالتمسّك والإطاعة والاتّباع والأخذ... والأمر بهذه المفاهيم بصورةٍ مطلقة يلازم العصمة، والأئمّة هم المعصومون، ولم يُدّع العصمة لأحدٍ من الصّحابة والأقرباء غيرهم أصلاً.

وثالثاً: إنّ هذا الحديث يشتمل في بعض ألفاظه على قوله:

---

(١) الرياض النضرة ٢ / ١٦٣، السيرة الحلبيّة ٣ / ٣٩١.

فلا تقدّموهم فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهم فتهلكوا ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم[١].

فكان الحديث يدلُّ على أعلميّة عترته أهل بيته ممن سواهم مطلقاً، وكيف يكون مطلق «أقارب» النبيّ صلّى الله عليه وآله أعلم الناس من بعده؟ فهم ـلا محالة ـ الأئمّة الأطهار المعصومون من ولده.

وممّا يؤكّد ما ذكرناه تصريح شرّاح الحديث واعترافهم بعدم شمول الحديث لغير الأئمّة الطّاهرين:

قال الحكيم الترمذي: «قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، واقع على الأئمّة منهم السّادة، لا على غيرهم»[٢].

وقال ابن حجر المكي: «فأهل البيت منهم أولى منهم بذلك، امتازوا عنهم بخصوصيّات لا يشاركهم فيه بقيّة قريش... ثم أحقّ من يتمسّك به منهم إمامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وكذلك خصّه صلّى الله عليه وآله بما مرّ يوم غدير خم»[٣].

وقال الملّا علي القاري: «الأظهر هو أن أهل البيت غالباً يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم المطّلعون على سيرته، وبهذا يصلح أن يكونوا مقابلاً لكتاب الله تعالى»[٤].

وقال الشيخ عبدالحق الدهلوي: «المراد هنا من العترة أخصّ عشيرته

(١) المعجم الكبير ٥ / ١٦٦.

(٢) نوادر الأصول: ٦٩.

(٣) الصواعق المحرقة ٢ / ٤٢٢.

(٤) المرقاة في شرح المشكاة ٥ / ٦٠٠.

وأقاربه، أي: أولاده وذريّته»[١].

وقال المناوي: «وهم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً»[٢].

فالمراد من «أهل البيت» في آية التطهير هم «العترة أهل البيت» في حديث الثقلين، وسيأتي الكلام على آية التطهير ورأي بعض الخوارج والنواصب على خلاف آراء علماء المسلمين... في الموضع المناسب إن شاء الله.

هذا، وقوله في نهاية هذا المقطع:

وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ

إشارة إلى الآية المباركة:

﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ﴾[٣].

---

(١) أشعّة اللّمعات في شرح المشكاة ٤ / ٦٨١.

(٢) فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٣ / ١٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٧٣.

السَّـــلاَمُ عَـلَى

أَئِـمَّةِ الْـهُدَى وَمَـصَابِيحِ الدُّجَـى

وَأَعْـــلاَمِ التُّـقَى وَذَوِي النُّـهَى

وَأُولِـي الْـحِجَى وَكَهْفِ الْـوَرَى

وَوَرَثَـةِ الأَنْـبِيَاءِ وَالْـمَثَلِ الأَعْـلَى

وَالدَّعْـوَةِ الْـحُسْنَى وَحُجَجِ اللَّـهِ

عَلَى أَهْلِ الدُّنْـيَا وَالآخِـرَةِ وَالأُولَـى

وَرَحْـمَةُ اللَّـهِ وَبَـرَكَـاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى

الهداية من الله

«الهداية» في الأصل من الله، قال عزّ وجلّ:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[1].

وقد أمر تعالى نبيّه أنْ يبلّغ النّاس أن هداه هو الهدى، إذ قال:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ...﴾[2].

ومن الله تُسئل الهداية:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3].

قال:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الحمد، الآية: ٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٨.

الرّسول هاد

ثم إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله هادٍ، إذ قال له تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

القرآن هاد

والقرآن أيضاً هاد:

﴿إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢].

أئمّة أهل البيت هداة

والأئمّة هداة... قال تعالى:

﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا...﴾[٣].

﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا﴾[٤].

فهم يهدون الناس إلى الله ورسوله وإلى ما يهديان إليه....

وفي المقابل أئمّة يدعون إلى النّار... قال سبحانه:

﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ﴾[٥].

قال أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام:

«إن الأئمّة في كتاب الله عزّوجلّ إمامان. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَجَعَلْناهُمْ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٤١.

أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[١] لا بأمر الناس، يقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[٢] يقدّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ»[٣].

والجدير بالانتباه:

١ ـ التعبير في آية أئمّة الهدى بـ«يهدون» وفي آية أئمّة الضلال بـ«يدعون».

٢ ـ التعبير في كلتا الآيتين بـ«الجعل» وسيأتي الكلام عليه.

ثم إنّ مقتضى وجوب اللّطف على الله أن ينصب في كلّ زمان من يهدي الناس إلى طاعته ويقرّبهم إليه، ويجنّبهم معصيته والابتعاد عنه....

والهداية تتحقّق:

تارة: بإرائة الطريق.

وأُخرى: بالإيصال إلى المطلوب.

هداية النبيّ وهداية الإمام

ولا ريب أنّ الإيصال إلى المطلوب فوق إرائة الطريق، لكنّ الظاهر من الآيات الكريمة أنّ وظيفة الأنبياء هو الثاني، كقوله تعالى:

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٤١.

(٣) الكافي ١ / ٦١٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

وقوله:

﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذيرٌ﴾[١].

ولا شك أنّ الأئمّة يشاركون الأنبياء في هذا المعنى.

ولكنّ مقتضى قوله لإبراهيم عليه السّلام:

﴿إِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمامًا﴾[٢].

وقول أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام: «الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات... وقد كان إبراهيم عليه السّلام نبيّاً وليس بإمام، حتى قال الله ﴿إِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمامًا﴾».

هو كون وظيفة إبراهيم عليه السّلام بعد الإمامة هو الإيصال إلى المطلوب.

ويستفاد من ذلك: أنّ الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب هو شأن الأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

والهداية على قسمين:

١ ـ الهداية التكوينيّة.

٢ ـ الهداية التشريعيّة.

وإنّ الأئمّة عليهم السّلام هداة للخلائق تكويناً، فهم وسائط الفيض الإلّهي وببركتهم الوجود كلّه. وهداة للبشر تشريعاً، بتزكيتهم وتعليمهم المعارف والأحكام وحفظهم من الانحراف والضّلال وإيصالهم إلى الكمال المطلوب... ومن أجل الهداية ـ بكلا المعنيين ـ نَصَبهم الله أئمةً وجعلهم هداة.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

وقد عبَّر عنهم بالفعل المضارع «يهدون» للإشارة إلى استمرار هدايتهم ودوامها.

ولكنّ الآية عبّرت عن أئمّة الضلال بـ«الجعل» كذلك، فما الفرق؟

إنه يتّضح الفرق بأن نعلم أن الجعل قد يكون ابتدائيّاً وقد يكون غير ابتدائي، فأمّا الجعل المتعلّق بأئمة الهدى، فهو جعل ابتدائي من الله سبحانه، لما ذكرنا من أنه مقتضى قاعدة اللّطف، وأمّا الجعل المتعلّق بأئمة الضّلال فليس بابتدائي، فلنذكر الآية ونتأمّل فيها، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[1].

إن الدّعوة إلى النّار هي الدّعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي، لكونها هي التي تتصوّر لهم يوم القيامة ناراً يعذّبون فيها، أو المراد بالنّار ما يستوجبها مجازاً من باب إطلاق المسبّب وإرادة سببه.

ومعنى جعلهم أئمّة يدعون إلى النار، تصييرهم سابقين في الضّلال يقتدي

(١) سورة القصص، الآية: ٣٦ ـ ٤٢.

بهم اللّاحقون، ولا ضير فيه، لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود، وليس من الإضلال الإبتدائي في شيء[١].

إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ...﴾

هذا، وممّا يؤكّد أن هداية الأنبياء إرائة الطريق، وهداية الأئمّة إراءة الطريق والإيصال إلى المطلوب: ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ في كتب الفريقين ـ بذيل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢].

حيث جاء فيها كلمة «إنما» الدالّة على الحصر، ووقع فيها المقابلة بين «الإنذار» وهو يلازم إرائة الطريق فقط و«الهداية»....

فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ـ لمّا نزلت الآية ـ وضع يده على صدره وقال:

أنا المنذر، ولكلّ قوم هاد. وأومأ بيده إلى منكب علي فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون بعدي[٣].

ومن أسانيده الصحيحة:

ما في مسند أحمد ـ من زيادات ابنه عبدالله ـ بسنده عن عبدخير عن علي في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: رسول الله المنذر، والهادي رجل من بني هاشم[٤].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٦ / ٣٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٣) الدرّ المنثور ٤ / ٤٥.

(٤) مسند أحمد ١ / ١٢٦.

قال الحافظ الهيثمي: رواه عبدالله بن أحمد والطبراني في الصغير والأوسط. ورجال المسند ثقات[١].

وما في المستدرك بإسناده عن عبّاد بن عبدالله الأسدي عن علي ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ قال علي: رسول الله صلّى الله عليه وآله المنذر وأنا الهادي. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٢].

فأئمة الهدى بعد رسول الله هم علي وولده الأطهار، وأتباعهم هم المهتدون، وأمّا غيرهم فهم هالكون، لأنْ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

ستفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والباقون هالكون[٣].

وَمَصَابِيحِ الدُّجَى

«المصابيح» جمع «المصباح» وهو في اللّغة: السّراج الثاقب المضئ[٤]، فالمصباح ما يكون مضيئاً بنفسه لا ما يكون واسطةً في الإضائة، فالشّمس تسمّى بالمصباح لأنّها مضيئة بذاتها، وأمّا الأضوية المستعملة الآن في البيوت -مثلاً- فليست كذلك فلا تسمّى بالمصابيح، لأنها تستمد نورها من الأجهزة المولّدة للكهرباء.

و«الدجى» الظُلمة.

---

(١) مجمع الزوائد ٧ / ٤١.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٩.

(٣) بحار الأنوار ٣٦ / ٣٣٦، الصراط المستقيم ٣ / ٣.

(٤) مجمع البحرين ٢ / ٣٨٢.

فالله سبحانه وتعالى خلق الأئمّة مصابيح تبدّد الظلمات المعنويّة كما خلق الشمس والقمر والنجوم مصابيح تبدّد الظلمات في هذا العالم.

الأئمّة مصابيح الظلمات: ظلمة العدم

وأُولى الظلمات هي ظلمة العَدَم، فقد تقرّر في محلّه أن الله عزّوجلّ أخرج الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود بواسطة محمّد وآله الطّاهرين، فلولا هم لما خلق آدم والعالَم، والأحاديث الناطقة بهذا المعنى في كتب الفريقين كثيرة، تجد بعضها وكذا كلمات العلماء على ضوئها في مطاوي بحوث هذا الكتاب.

ظلمة الشرك

الظلمة الثانية: ظلمة الشرك، كما نقرأ في زيارة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله:

الحمد لله الذي استنقذنا بك من الشرك والضلالة[١].

وأي ظلمة هي أشد من ظلمة الشرك....

ونقول في زيارة أبي عبدالله الحسين الشهيد:

وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة[٢].

كما سنقرأ في الزيارة الجامعة:

وأنقذنا من شفا جرف الهلكات....

---

(١) الكافي ٤ / ٥٥١.

(٢) تهذيب الأحكام ٦ / ١١٣، مصباح المتهجّد: ٧٨٧.

ظلمة الجهل

الظلمة الثالثة: ظلمة الجهل، فإنّ «الجهل» أُمّ الشرور والضلالات وأصل كلّ الظلمات، والله سبحانه أخرج هذه الأُمة بمحمّد وأهل بيته من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وإنّ جميع العلوم النافعة إنما انتشرت بين المسلمين بواسطة علي وأبنائه الطاهرين.

ظلمة الفتنة

والظلمة الرابعة: ظلمة الفتنة، ومن الخطورة بمكان، ولا تنجو منها أُمة من الأُمم، وقد ابتليت بها الأُمة الإسلاميّة كثيراً ولا تزال وستبقىٰ في معرض الفتن....

إن الفتنة هي الاختبار، ولكنّه قد يكون شديداً، بمعنى أن الطرق تكثر فيختفي طريق الحق، والأهواء تختلف، فلا يدرى أيّها الصحيح، فتكتنف الظلمة الطريق الحق والصراط المستقيم ويضيع الرأي الصحيح بين الآراء، ويقع الإنسان في الحيرة ولا يهتدي إلى الحقيقة... وفي مثل هذه الحالة لابدّ من اللّجوء إلى الثقلين:

القرآن... فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن[١].

وذلك لأن القرآن كما وصف نفسه فقال:

﴿إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾[٢].

---

(١) الكافي ٢ / ٥٩٨ ـ ٥٩٩، وسائل الشيعة ٦ / ١٧١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

وأهل البيت... فقد قال رسول الله:

ستكون بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا عليّ بن أبي طالب[١].

وهذا الحديث ـ وإنْ ناقش في سنده بعض الناس ـ معتضد بالحديث الصحيح:

علي مع القرآن والقرآن مع علي[٢].

وبالحديث المتواتر:

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا...[٣].

وهذا الحديث ـ المعروف بحديث الثقلين ـ هو وصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله للأمّة بصورة عامّةٍ، ومثله بعض الأحاديث الاخرى.

وقد أُوصى رسول الله أشخاصاً من أصحابه بلزوم علي أمير المؤمنين في جملة وصاياه الخاصّة، ومن ذلك أنه قال لعمار بن ياسر رضي الله عنه:

يا عمّار، إذا رأيت عليّاً سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره، فاسلك مع علي ودع الناس[٤].

وهي وصيّة مفصّلة أوردتها الكتب والمصادر المعتبرة، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن النبي صلّى الله عليه وآله قد أخبر عماراً على مرأىً ومسمع من

(١) الاستيعاب ٤ / ١٧٤٤، أسد الغابة ٥ / ٢٧٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٢ / ٤٧٦، الصواعق المحرقة ٢ / ٣٦١.

(٣) انظر: نفحات الأزهار، الأجزاء ١ ـ ٣.

(٤) تاريخ بغداد ١٣ / ١٨٦، كنز العمال ١٢ / ٢١٢، فرائد السمطين ١ / ١٧٨، مناقب علي للخوارزمي: ٥٧.

الرأي العام قائلاً: «تقتلك فئة باغية»[١].

لقد كان نتيجة أمره صلّى الله عليه وآله عمّاراً بملازمة أمير المؤمنين عليه السّلام وسلوك طريقه، ثم إخباره بهوية من يقتله، أن يكون عمار ميزاناً لمعرفة الحق من الباطل ولا جدال في ذلك.

فلما جاء يوم صفين واستعرّ أوار الحرب، كان بعض الناس يراقبون عماربن ياسر رضوان الله عليه ويترقّبون خروجه في احدى الفئتين، لأنّ الشائعات التي أشاعها معاوية وأصحابه ضدّ الإمام علي عليه السّلام قد أوقعتهم في الحيرة وسلبتهم القدرة على التمييز بين جبهة الحق وجبهة الباطل رغم وجود أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام، الذي هو ميزان العمل والفاروق بين الحق والباطل.

فما كان من أولئك الناس الذين التبست عليهم الأُمور وتشابهت طرقها، إلّا أن يميلوا إلى جهة أمير المؤمنين قبل وبعد شهادة عمّار، وقاتلوا ضدّ معاوية ونجوا بذلك من ضلالة الفتنة.

وما ذلك إلّا ببركة وصيّة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله إلى عمّار، لتظهر مصداقيّة «أئمّة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ».

ظلمة الذنوب

والظلمة الخامسة: ظلمة الذنوب، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام هم السّبب لخروج المؤمنين من ظلمة الذنوب إلى نور التوبة، فقد ورد بتفسير قوله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم ٨ / ١٨٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٣ / ٤٢٩، البداية والنهاية ٣ / ٢٦٤، وبحار الأنوار ٢٣ / ٢٢ مع اختلافٍ بسيط في بعض الألفاظ، ومن ذلك: عن أبي سعيد الخدري قال: أخبرني من هو خير منّي: أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لعمار حين جعل يحفر الخندق وجعل يمسح رأسه ويقول: أبشر آبن سمية تقتلك فئة باغية.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾[١].

عن الشيخ الكليني بإسناده عن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: إنّي أُخالط الناس، فيكثُر عَجَبي من أقوامٍ لا يتولّونكم، ويتولّون فلاناً وفلاناً، لهم أمانة وصِدْق ووَفاء، وأقوام يتولّونكم، وليس لهم تلك الأمانة، ولا الوفاء، ولا الصدق!

قال: فاستوى أبو عبدالله عليه السّلام جالساً، فأقبل عليّ كالغَضْبان، ثمّ قال: «لا دِينَ لِمَنْ دان الله بولاية إمامٍ جائر ليس من الله، ولا عَتَب على من دان بولاية إمامٍ عادلٍ من الله».

قلت: لا دين لأُولئك، ولا عَتَب على هؤلاء؟

قال: نعم، لا دين لأُولئك وَلا عَتَب على هؤلاء ـ ثمّ قال ـ: ألا تسمع لقول الله عزّوجلّ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من ظُلُمات الذُنوب إلى نور التوبة والمَغْفِرَة، بولايتهم كلّ إمام عادلٍ من الله. وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ إنما عنى بهذا أنّهم كانوا على نورِ الإسلام، فلمّا تولّوا كلّ إمام جائرٍ ليس من الله عزّوجلّ، خرجوا بولايتهم إيّاه من نور الإسلام إلى ظُلمات الكُفر، فأوجب الله لهم النار مع الكُفّار، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) الكافي ١ / ٣٠٧ / ٣.

وَ أَعْلاَمِ التُّقَى

يمكن أن يكون إشارة إلى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(١).

وسيأتي الكلام على الآية.

«العلم» لغةً

«الأعلام» جمع «العَلَم» قال الراغب: العَلَم الأثر الذي يعلم به الشيء، كعلم الطريق وعلم الجيش، وسمّي الجبل علماً لذلك، وجمعه أعلام(٢).

وفي المصباح المنير: أعلمت على كذا بالألف من الكتاب وغيره: جعلت عليه علامةً... وجمع العلامة: علامات. وعلّمت له علامةً بالتشديد: وضعت له أمارة يعرفها(٣).

وحاصل ذلك: إن «العلم» هو «العلامة» و«الأمارة»، وهي على قسمين:

فمن ذلك ما هو أمارة وعلامة ذاتاً، أي لا من وضع واضع، كالجبل، فإنه علامة تكوينيّة يعرف بها الطّريق مثلاً، ومن ذلك ما يكون بوضع واضع، كنصب الرّاية مثلاً على المكان المرتفع ليعرف بها الطريق، أو وضع الإسم على الشيء ليعرف به متى ذكر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٣.

(٣) المصباح المنير: ٤٢٧.

«التقى» لغةً

و«التقى» اسمٌ من وقىٰ يقي وقايةً، فهو والتقوى بمعنى واحد، قال الراغب: والتقوى جعل النفس في وقايةٍ مما يخاف... وصار في تعارف الشّرع: حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور...[١].

الأئمّة أعلام التقى بذواتهم وإرشاداتهم

أقول: إنّ الأئمّة عليهم السّلام أعلامٌ للتقى بذواتهم المقدّسة، لأنّهم طاهرون مطهّرون، وكلّ أفعالهم وتروكهم أمارات لمعرفة ما هو موافق للتقوى وما هو منافٍ. وبعبارة اخرى، إنهم بذواتهم المقدّسة ميزان ومعيار للتقوى، ولذا قال أمير المؤمنين لمّا سئل عن قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾:

«والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله، نحن ذكرنا الله فلا ننساه، ونحن شكرناه فلا نكفره، ونحن أطعناه فلا نعصيه...»[٢].

وقد عمل الأئمّة على وقاية المجتمع والأفراد من المخاطر والمآثم بأُسلوبين:

أحدهما: تعريف القبائح والمساوئ وبيان آثارها الدنيويّة والاخرويّة حتّى تجتنب ولا ترتكب. وبعبارة اخرى: عملوا على تربية المؤمنين وإيجاد الملكات الفاضلة فيهم لتحول دون التفكير في المعصية.

والآخر: موعظة من ابتلي بشيء من المآثم والمفاسد وإرشاده والعمل على إصلاحه، حتى يقلع عنه ويرجع إلى هداه ويطهر من الآثار السيّئة المترتّبة....

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٣٨/ ٦٣.

فالأئمّة عليهم السّلام بالمعنيين وفي الحالتين أعلام التقى، فمدرسة أهل البيت مدرسة التربية الإسلامية الصّحيحة، ينهل منها الدارسون بمقدار استعداداتهم ليرتقوا سلّم الآدميّة، ولذا ترى التفاوت بين أصحابهم والمتّصلين بهم في المرتبة، كما لا يخفى على من دقق النظر في أحوالهم، ولذا ورد عنهم عليهم السّلام كون الآية المذكورة منسوخةً بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ كما ذكر الطبرسي[١]، ولعلّه من هذا الباب قول سيّد العابدين علي بن الحسين عليه السّلام:

والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله[٢].

ولكن كونهم «أعلام التقى» يفيد بلوغهم أعلى المراتب، وإلّا لما نصبوا لهذا الأمر العظيم... ويشهد بذلك ما ورد بذيل قوله تعالى:

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٣].

فعن أبي عبدالله عليه السّلام قال: النجم رسول الله صلّى الله عليه وآله، والعلامات هم الأئمّة عليهم السّلام[٤].

هم أعلامٌ لكافّة الناس

ثم إن «أعلام التقى» ظاهر في الإطلاق، فهم لشيعتهم ولجميع المسلمين وكلّ من أراد «التقى» «أعلامٌ»، بل ما قصدهم قاصدٌ إلّا ونال شرف الهداية والنجاة، وحياتهم الكريمة حافلةٌ بمشاهد جليلة من هذا القبيل.

---

(١) مجمع البيان ٢ / ٨٠٥، والآية في التغابن: ١٦.

(٢) الكافي ١ / ٤٠١.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٦.

(٤) الكافي ١ / ٢٠٦.

وبالمناسبة نتقل قصّة ظريفة عن والدي المرحوم أعلىٰ الله مقامه ـ وأوردها أيضاً في بعض مدوّناته ـ قال:

كان أحد عبدة الأوثان في الهند قد وقع في مشكلة لم تنفع كلّ السبل للنجاة منها، ولم تسعفه أمواله الطائلة، حتى أرشده شخص إلى أحدِ علماء الشيعة الكبار وهو من السّادة الأجلّاء في الهند. فذهب إلى العالم وقصَّ عليه مشكلته، فما كان من السيد إلّا أن فكّر في نفسه قائلاً: صحيح أن هذا الرجل من عبدة الأوثان، لكنَّ الامام صاحب العصر والزمان واسطة الفيض الإلهي لجميع الخلق ومنهم هذا الرجل، فهو من رعيّة الإمام وعيالاته، فأيّ مانع يمنعه من أن تشمله عناياته، لذلك أرشده إلى أن يرتدي ملابس طاهرة وعلمّه بعض الأُمور وأمره أن يذهب في يوم الجمعة مبكّراً إلى قبور المسلمين الشيعة وينادي هناك:

يا مهدى يا مهدي، يا أبا صالح....

وبينما أخذ الرجل بالنداء والاستغاثة، جاءه رجل وقال له: ماذا تريد؟ وما هي مشكلتك؟

فقصّ عليه مشكلته، وأنه قد وُجّهت له تهمة جنائية سيحكم عليه من جرّائها بالإعدام وغرامة مالية باهضة جدّاً. فأجابه ذلك الرجل: إذهب فقد انحلّت مشكلتك.

وفي يوم انعقاد المحكمة برئاسة نفس القاضي الذي كان قد قرّر الحكم عليه، إذا به يعلن عن براءة الرجل.

وقد كانت هذه الحادثة السّبب لهدايته وجماعةٍ معه.

والتاريخ يذكر الكثير من قبيل هذه القضيّة قد وقعت وكان حلّالها أهل البيت عليهم السّلام، حتىٰ بلغ الأمر إلى حدٍّ كان يراجعهم ألدّ أعدائهم من بني أُمية وبني

العباس، فكانوا يحلّون لهم مشاكلهم.

فهل ترىٰ مجالاً للمقارنة والمقايسة بينهم وبين من ناواهم؟

ألم يرد في الحديث:

لا يقاس بآل محمّدٍ أحد[١].

وَذَوِي النُّهَى

«النهى» لغةً

قال الراغب: النهية العقل الناهي عن القبائح، جمعها: نُهىٰ...[٢].

والظاهر أنه إشارة إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهىٰ﴾.

الوارد في آيتين من القرآن في سورة طه[٣].

رواياتُ في أنهم أُولى النهى

وقد روى الشيخ الصفار بإسناده عن مروان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهىٰ﴾ قال: نحن ـ والله ـ أُولوا النهى[٤].

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧، الاختصاص: ١٢ وغيرهما.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٥٠٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٤.

(٤) بصائر الدرجات: ٥١٨.

النُّهىٰ﴾ قال: هم الأئمّة من آل محمّد صلّى الله عليه وآله، وما كان في القرآن مثلها[١].

وقوله عليه السّلام: «وما كان في القرآن مثلها» لعلّه إشارة إلى ما في الخبر:

عن أبي جعفر عليه السّلام قال: لمّا خلق الله تعالى العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلّا فيمن أُحب[٢].

والنبيّ وآله أحبّ الخلق إلى الله وأكملهم، وهم أصحاب العقل الكامل، وكيف لا يكونون كذلك وهم أئمّة الهدى وأعلام التقى؟

وَأُولِي الْحِجَى

قال في المصباح: الحجا: بالكسر والقصر: العقل[٣].

فهم أصحاب العقل الذي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل. فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل. ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من عقول جميع المجتهدين. وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل. والعقلاء هم أُولوا الألباب الذين قال الله تعالىٰ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٣ / ٧٦٦.

(٢) الكافي ١ / ١٠.

(٣) المصباح المنير: ١٢٣.

(٤) الكافي ١ / ١٣١.

وَكَهْفِ الْوَرَى

«الكهف» لغةً

و«الكهف»: كالمغارة في الجبل إلّا أنّه أوسع منها، فإذا صغر فهو غار، وفي الصحاح: الكهف كالبيت المنقور في الجبل والجمع كهوف، ويقال: فلان كهف أي: ملجأ[١].

و«الورىٰ»: الخلائق.

فالبرىٰ والورىٰ واحد، يقال: هو خير الورىٰ والبرىٰ، أي: خير البريّة، والبريّة: الخلق، والواو تُبدل من الباء[٢].

عموم «الورى»

والورىٰ عام ومطلق.

وعليه، فالأئمّة عليهم السّلام كهف وملجأ للجميع وليس لفئة دون أخرىٰ، خذها من شيعتهم الذين هم أفضل الناس، حتىٰ تنتهي بالمشركين والملحدين و... كلّ ما خلق الله وبرىٰ.

ولا شك في ذلك علىٰ الإطلاق، لأنهم واسطة الفيوضات الإلَـهية لجميع المخلوقات كما أكدّنا سابقاً، فيلزم أن يكونوا ملجأها وكهفها.

إلّا أن من المخلوقات من لجأ إلى كهفهم على أرض الواقع وهم شيعتهم فقط، مثلما لجأ أصحاب الكهف إليه، كما حكىٰ ذلك القرآن الكريم بقوله تعالىٰ:

---

(١) صحاح اللّغة ٤ / ٤٢٥.

(٢) لسان العرب ١٤ / ٧٢.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.[١]

وهل تجد في الأمة الإسلاميّة مصداقاً للفتوّة غير شيعة آل محمّد؟

وهل يوجد في غير الشيعة في الأمة من يحاكي لسان حالهم:

﴿هٰؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا﴾.[٢]

فالشيعة هم الذين اعتزلوا جمهور الأُمّة ولجأوا إلى الأئمّة بقولهم:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللّٰهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

حتىٰ أصبحوا في موقع:

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾[٣].

بل إنّ أمر الأئمّة عليهم السّلام أجلّ وأسمى من ذلك، فهم ملجأ وكهف الأنبياء الذين لجأوا إليهم في أزمنة نبّواتهم حينما داهمتهم الخطوب والفِتن، وهذا ما نصّت عليه مصادر الشيعة والسنّة.

ألا تنظر إلى أبينا آدم في المحنة التي طالته وحوّاء، التي سبّبت هبوطه إلى الأرض، وكان ينشد العفو والمغفرة من الباري تعالىٰ، حتى أدركته العناية والرحمة الربانية، فألهمته التوسّل إلى الله بمحمّد وآل محمّد وهو قوله تعالىٰ:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٤].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

فقد روى العامّة والخاصّة: أنه رأىٰ على ساق العرش أسماء النّبي والأئـمّة عليهم السّلام، فلقّنه جبرئيل: قل: يا حميد بحق محمّد، يا عالي بحق علي، يا فاطر بحقّ فاطمة، يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الإحسان(١).

وماذا تقول في ما جرىٰ على نوحٍ وصنعه السّفينة بأمر الله تعالىٰ ونجاته مع أصحابه ببركة محمّد وآل محمّد عليهم السّلام. فقد روى المحدّثون عن أنس بن مالك عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه تلا قوله تعالى:

﴿وَحَمَلْنٰاهُ عَلىٰ ذٰاتِ أَلْوٰاحٍ وَدُسُرٍ﴾(٢).

وقال:

«الألواح خشب السفينة، ونحن الدُسُر، لولانا ما سارت السفينة بأهلها»(٣).

وهكذا بقيّة أنبياء الله سبحانه، كانت تشملهم بركة أهل البيت عليهم السّلام وتنجيهم مما وقعوا فيه من الفتن والابتلاءات.

ومن أخبار الباب ما رواه الشيخ الصّدوق عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام أنه قال:

«أتى يهودي النبي صلّى الله عليه وآله، فقام بين يديه يحدّ النظر إليه، فقال: يا يهودي! ما حاجتك؟

قال: أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي الّذي كلّمه الله، وأنزل عليه التوراة والعصا، وفلق له البحر، وأظلّه بالغمام؟

فقال له النبي صلّى الله عليه وآله: إنّه يكره للعبد أن يزكّي نفسه، ولكنّي أقول:

---

(١) بحار الأنوار ٤٤ / ٢٤٥.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٦ / ٣٣٢.

إنّ آدم عليه السّلام لمّا أصاب الخطيئة، كانت توبته أن قال: اللهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد، لما غفرت لي، فغفرها الله له.

وإنّ نوحاً عليه السّلام لمّا ركب في السفينة وخاف الغرق، قال: اللهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد، لما أنجيتني من الغرق. فنجّاه الله منه.

وإنّ إبراهيم عليه السّلام لمّا ألقي في النار قال: اللهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد، لمّا أنجيتني منها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً.

وإنّ موسى عليه السّلام لمّا ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد، لمّا أمنتني منها. فقال الله جلّ جلاله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾[١].

يا يهودي! إنّ موسى لو أدركني ثمّ لم يؤمن بي وبنبوّتي، ما نفعه إيمانه شيئاً، ولا نفعته النبوّة.

يا يهودي! ومن ذرّيتي المهدي، إذا خرج نزل عيسى بن مريم لنصرته، فقدّمه وصلّى خلفه»[٢].

كهف الملائكة

ومثلما صار أهل البيت عليهم السّلام كهفاً للأنبياء والناس أجمعين، فهم كذلك كهف للملائكة، وهذا ما يعطيه معنىٰ «الورى» الذي يشمل كلّ ما خلق الله بلا استثناء، حسبما ما تؤكّده لغة العرب.

جاء في مجمع البيان بتفسير قوله تعالى:

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٨.

(٢) بحار الأنوار ١٦ / ٣٦٦.

﴿وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ﴾[١]:

«وروي أن النبي صلّى الله عليه وآله قال لجبرائيل لمّا نزلت هذه الآية: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟

قال: نعم، إني كنت أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لمّا أثنى الله علي بقوله: ﴿ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكينٍ﴾[٢]»[٣].

وقصة المَلَك فطرس معروفة حينما غضب عليه الباري تعالىٰ وانتشلته بركة الحسين سيّد الشهداء عليه السّلام[٤].

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن مفهوم «الورىٰ» يعمُّ الحيوانات أيضاً، وهذا ما تشهد به الروايات والوقائع من أن الأئمّة عليهم السّلام كانوا يعرفون لغة الحيوانات بأسرها وكانت ترجع إليهم في أُمورها[٥].

علم الأئمّة بلغات الحيوانات وحالاتها:

ومن الأخبار في علم الإمام عليه السّلام بلغات الحيوانات وحالاتها: ما روي عن سليمان الجعفري، عن الرّضا عليه السّلام: «إنّ عصفوراً وقع بين يديه وجعل يصيح ويضطرب، فقال: أتدري ما يقول؟ قلت: لا. قال: يقول لي: إن حيّةً تريد أن

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة التكوير، الآية: ٢٠.

(٣) مجمع البيان ٧ / ١٠٧.

(٤) راجع كامل الزيارات: ١٤٠، أمالي الصدوق: ٢٠٠ و ٢٠١، بحار الأنوار ٤٣ / ٢٤٣.

(٥) أورد ابن حمزه في الثاقب في المناقب فصولاً حول كلام الأئمّة عليهم السّلام مع الحيوانات والجمادات، وراجع أيضاً الارشاد ٢ / ٢٢٥، وبحار الأنوار ٤٨ / ٤٧.

تأكل فراخي في البيت، فقم وخذ تلك النسعة[١] وادخل البيت واقتل الحيّة. فقمت وأخذت النسعة ودخلت البيت وإذا حيّة تجول في البيت فقتلها»[٢].

وعن أبي عبدالله عليه السّلام، قال: «قال رسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: استوصوا بالصنانيات خيراً ـ يعني الخطاف ـ فإنّه آنس طير بالناس هم. ثمّ قال رسول الله: أتدرون ما تقول الصنانية إذا هي ترغّمت؟ تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين. حتّى تقرأ أُمّ الكتاب، فإذا كان في آخر ترغّمها قالت: ولا الضالّين»[٣].

فالحاصل من كلّ ذلك: إن كلّ البرايا وبحسب قوانين خلقتها لابدّ وأن يكون لها ما تفزع إليه وتلجأ وتستنجد به، حينما يداهمها ما لا تطيقه، ليكون كهفها الحصين الذي يخرق القوانين الطبيعيّة ولا يتقيّد بحدودها إذا ما لزم الأمر، وهم النّبي والأئمّة عليهم السّلام، حيث لا يحدّهم وجودهم في هذا العالم عن الحضور وتسيير الأُمور في عوالم أخرىٰ، ولا يخضعون لموازين ما قبل وما بعد الموت إذا أرادوا التصرف في هذا الكون.

قبورهم أيضاً «كهف الورى»

فهم «كهف الورى» مع كونهم ميّتين ظاهريّاً بارتحالهم عن عالم الدنيا:

قال الخطيب البغدادي: أنبأنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلّال يقول: ما همّني أمرٌ فقصدت قبر

---

(١) النسعة: سير عريض من جلد، مجمع البحرين ٤ / ٣٩٧.

(٢) وسائل الشيعة ١١ / ٦٣٦.

(٣) وسائل الشيعة ١١ / ٥٢٤.

موسى بن جعفر فتوسّلت به إلّا سهّل الله لي ما أُحبّ»[١].

وقال ابن حجر العسقلاني:

قال الحاكم: سمعت أبا بكر محمّد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا، وهم إذ ذاك متوافرون، إلى زيارة قبر علي بن موسى الرّضا بطوس، فرأيت من تعظيمه ـ يعني ابن خزيمة ـ لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرّعه عندها ما تحيّرنا»[٢].

وما أكثر من يأس منهم الأطباء والأخصائيّون في علاج الأمراض المستعصية، وأخبروهم بعجزهم فتوجّهوا نحو قبر الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السّلام لاجئين إلى كهفه وعارضين شكواهم عليه، فآواهم وشافىٰ أمراضهم ووهبهم حنانه ورأفته، فرجعوا إلى أهليهم سالمين معافين بلطف الرضا عليه السّلام.

هل يمكن أن ينكر أحد هذا الأمر الوجداني الواقعي؟

«كهف الورى» في المشكلات العلميّة

وهم «كهف الورى» في المشكلات العلميّة، فلقد واجه الأكابر من علماءنا أزماتٍ ومآزق خلال مسيرة حياتهم العلميّة، وعجزوا عن حلّها بالمطالعة والمثابرة والتحقيق والتحليل، فما كان منهم إلّا أن لجأوا إلىٰ حرم أمير المؤمنين عليه السّلام فانكشفت لهم الحجب ورست الحلول الناجعة في صدورهم، ورجحت بها

---

(١) تاريخ بغداد ١ / ١٢٠.

(٢) تهذيب التهذيب ٧ / ٣٣٩.

عقولهم، بفضل عناية وبركة باب علم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وهم عليهم السّلام الذين شملوا غير المسلمين بعناياتهم ـ كما في قضيّة الهندي التي ذكرناها آنفاً ـ فكيف بالمسلمين وخاصّة شيعتهم الذين والوهم وعادوا أعدائهم كما سنقرأ:

«فاز من تمسك بكم، وأمِن من لجأ إليكم، وسلم من صدّقكم، وهُدِي من اعتصم بكم».

وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ

وفي هذه الجملة إطلاق وعموم، الإطلاق في طرف «الأرث»، فإنّه لا يختصُّ بشيء دون شيء. والعموم في طرف «الأنبياء» فإنّه يعمّهم كلّهم.

والمهمّ هو فهم مفهوم «الإرث».

الإرث في اللغة

قال الراغب:

الوارثة والإرث: انتقال قنية إليك عن غيرك، من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمّي بذلك المنتقل عن الميت، فيقال للقنية الموروثة: ميراث وإرث[١].

وقال ابن فارس:

أنْ يكون الشيء لقومٍ ثم يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[٢].

---

(١) مفردات غريب القرآن: ٥١٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٦ / ١٠٥.

وقال الفيّومي:

ورث مال أبيه ثم قيل ورث أباه مالاً، يرثه وراثةً... وأورثه أبوه مالاً: جعله له[١].

وقال الطريحي:

التراث ـ بالضم ـ ما يخلفه الرجل لورثته... والميراث مفعال من الإرث أو من الموروث...[٢].

الإرث في الفقه

قال في الروضة:

استحقاق إنسان بموت آخر بنسب أو سبب شيئاً بالأصالة[٣].

وقال في المهذب البارع:

الإرث لغةً: البقاء، قال صلّى الله عليه وآله: إنكم على إرثٍ من أبيكم إبراهيم. أي: على بقية من بقايا شريعته. والوارث باقي، ومنه الوارث في أسمائه تعالى، أي: الباقي بعد فناء خلقه. وسمّي الوارث وارثاً لبقائه بعد موت المورث.

وشرعاً: انتقال حق الغير بعد الموت على سبيل الخلافة. والوارث من انتقل إليه حق الميت خلافةً...[٤].

وقال في المستند:

والمواريث جمع ميراث، من الإرث، وهو في اللّغة: الأصل والبقيّة والأمر

---

(١) المصباح المنير: ٦٥٤.

(٢) مجمع البحرين ٢ / ٢٦٧.

(٣) الروضة البهيّة ٨ / ١١.

(٤) المهذب البارع ٤ / ٣٢٥.

القديم والرماد.

وفي الإصطلاح: حق منتقل من ميّت حقيقةً أو حكماً إلى حيّ كذلك ابتداءً[(١)].

الإرث في القرآن

وقد أُسند الإرث وأضيف في القرآن الكريم إلى الله، كما في قوله تعالى:
﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[(٢)].

فالوارث هو الله، والذي تعلّق به الإرث هو: الأرض ومن عليها.

وأُضيف إلى الأشخاص، كقوله:
﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُودَ﴾[(٣)].

فالوارث هو سليمان، والمتعلّق غير مذكور.

وأُضيف إلى القوم، كقوله:
﴿وَأَوْرَثْنا بَني إِسْرائيلَ الْكِتابَ﴾[(٤)].

فالوارث بنو إسرائيل، والمتعلّق هو الكتاب.

وقوله:
﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا﴾[(٥)].

فالوارث القوم، والمتعلّق: مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) مستند الشيعة ١٩ / ٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥٣.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

وقوله:

﴿أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰارِثُونَ * الَّذينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ﴾(١).

فالوارث المؤمنون، والمتعلّق: الفردوس، وهو الجنة أو مرتبة أو مكان منها.

فظهر من هذه الآيات وأمثالها: أن «الإرث» لا يختصُّ بـ«القنية» أي المال، وأنه صادق مع الانتقال وعدم الانتقال، وأنه لا يعتبر أن يكون الشيء ملكاً لأحدٍ، ولا أنْ يكون ملكاً للمتقدّم فينتقل لغيره بسبب أو نسب، ولا أنْ يكون هناك موت....

وعليه، فإن «الإرث» في القرآن أعمّ ممّا هو في اللّغة والفقه... اللّهم إلّا بالحمل على المجاز أو على غيره بتكلّفٍ....

مواريث الأنبياء وعموم الإرث

ثم إنّ المستفاد من مجموع الآيات والروايات، أن مواريث الأنبياء يمكن أن تكون عدّة أُمور:

١ ـ المقامات والمراتب العالية في القرب من الله تعالىٰ. كوراثة الولاية منهم، ومقام الوساطة في الفيض الإلٰهي، والمعاجز والمناقب... ولا شك أن الأئمّة الطّاهرين عليهم السّلام قد حازوا هذه الأُمور بأجمعها.

٢ ـ الملكات العالية والصّفات الحميدة. فالأئمّة عليهم السّلام قد ورثوا الملكات والصّفات الحميدة والعصمة وباقي المعالي الموجودة عند الأنبياء عليهم السّلام.

٣ ـ الصحف والكتب وسائر الأُمور الخاصّة بالأنبياء، مثل خاتم سليمان وعصى موسى وغير ذلك. وكلّها قد ورثها الأئمّة وهي عندهم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠ ـ ١١.

٤ ـ خصوصيّات امتاز بها بعض الأنبياء والرسل. كنفوذ الكلمة والحكومة الظاهرية والطَّول والقوّة، وقد انتقلت من بعدهم للأئمة عليهم السّلام وأصبحت خاصّة بهم، حيث لزم بتبع ذلك وجوب طاعتهم على اُمم ذلكم الأنبياء.

وبعبارة أوضح، فإن الطّاعة المطلقة المفروضة التي كانت لرسل الله تعالىٰ، قد اجتمعت بالأئمّة من آل البيت عليهم السّلام، وهي ثابتة فيهم دون غيرهم.

٥ ـ الأموال والممتلكات. فكلّ من يخلّف من الأنبياء مالاً فهو يصل إلى وارثه، ولمّا كان الأئمّة عليهم السّلام سلالة النبيين، فهم يستحقّون بالإرث ـ بحسب الموازين ـ ما لو ترك الأنبياء شيئاً من الأموال والأملاك، كما أنّهم ورثة جدّهم الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما تركه من مالٍ.

فالمقام الذي يمتاز به نبيٌّ أو رسول بكلّ خصوصيّاته ـ من الملكات والعلوم والمقامات والقرب من الله تعالىٰ والعصمة والتصرّف في أموال الناس واُمورهم وطاعته المفروضة عليهم ـ يصبح لخليفته الذي يليه، وهي مهمة اُنيطت بالأئمّة عليهم السّلام، وهم المخصوصون بملء الفراغ الناشىء برحيل أنبياء الله عليهم السّلام، لا أن تنتقل إليهم هذه الخصوصيات كانتقال الشيء من ملكيّة الأب المتوفىٰ إلى ملكية الابن الوارث، بل إن المفهوم أعلىٰ مستوىٰ وأكثر شمولية.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الأموال في دنيا الأنبياء، تماماً كما هي في حياة باقي البشر، حيث تنتقل أموالهم إلى ورثتهم، وإلّا لفقدت آيات الإرث محتواها أو يعطل جزء من القرآن.

فعلىٰ سبيل المثال قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ...﴾(١).

وقد ادعىٰ أهل السنّة أن المقصود من الإرث في هذه الموارد هو العلم فقط. ولو كان الأمر كما يقولون، فهل بإمكان الموالي أنْ يغتصبوا علمه حتى يخاف ويطلب من الله أن يهب له وليّاً يرثه؟ هناك الكثير من القرائن في الآيات القرآنية تؤكد بديهية توريث الأنبياء كسائر الناس، وهو ما أوضحناه في دراسةٍ تحقيقية مستقلة، استوعبنا فيها البحث عن إرث النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، وقضية فدك، وحديث أبي بكر الذي انفرد به، وعالجنا ذلك بالآيات القرآنية وأدلة بيّنة وأثبتنا من مصادر أهل السنّة أن رسول الله صلّى الله عليه وآله ترك أموالاً خاصّة به من قبيل السيف والفرس وغير ذلك(٢).

أما مصادرنا الخاصّة، فقد أوردت في هذا الصدد روايات متعدّدة، كالتي نقلها الشيخ الكليني رحمه الله بسنده عن أبان بن عثمان عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال:

لمّا حضرت رسول الله صلّى الله عليه وآله الوفاة، دعا العباس بن عبدالمطّلب وأمير المؤمنين، فقال للعباس: يا عمّ محمّد، تأخذ تراث محمّد وتقضي دينه وتنجز عداته؟

فردّ عليه فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إنّي شيخ كثير العيال قليل المال من يطيقك وأنت تباري الريح؟

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥ ـ ٦.

(٢) يراجع في هذا الخصوص كتاب (مسألة فدك وحديث إنّا معاشر الأنبياء لا نورث) المطبوعة في سلسلة (إعرف الحق تعرف أهله).

قال: فأطرق صلّى الله عليه وآله هنيئة، ثمّ قال: يا عباس! أتأخذ تراث محمّد وتنجز عداته وتقضي دينه؟

فقال: بأبي أنت وأمي، إنّي شيخ كثير العيال قليل المال وأنت تباري الريح.

قال: أما إنّي سأعطيها من يأخذها بحقّها.

ثمّ قال: يا علي! يا أخا محمّد! أتنجز عدات محمّد وتقضي دينه وتقبض تراثه؟

فقال: نعم بأبي أنت وأمّي ذاك علي ولي.

قال: فنظرت إليه حتّى نزع خاتمه من أصبعه فقال: تختم بهذا في حياتي.

قال: فنظرت إلى الخاتم حين وضعته في أصبعي فتمنيت من جميع ما ترك الخاتم.

ثمّ صاح: يا بلال! علي بالمغفر والدرع والرّاية والقميص وذي الفقار والسّحاب والبرد والأبرقة والقضيب.

قال: فوالله ما رأيتها غير ساعتي تلك -يعني الأبرقة- فجيئ بشقة كادت تخطف الأبصار فإذا هي من أبرق الجنّة، فقال: يا علي! إنّ جبرئيل أتاني بها وقال: يا محمّد! إجعلها في حلقة الدّرع واستدفر بها مكان المنطقة.

ثمّ دعا بزوجي نعال عربيين جميعاً أحدهما مخصوف والآخر غير مخصوف، والقميصين: القميص الّذي أسري به فيه والقميص الّذي خرج فيه يوم أحد، والقلانس الثلاث: قلنسوة السفر وقلنسوة العيدين والجمع، وقلنسوة كان يلبسها ويقعد مع أصحابه.

ثمّ قال: يا بلال! علي بالبغلتين: الشهباء والدلدل، والناقتين: العضباء والقصوى والفرسين: الجناح، كانت توقف بباب المسجد لحوائج رسول الله صلّى

الله عليه وآله يبعث الرجل في حاجته فيركبه فيركضه في حاجة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وحيزوم وهو الّذي كان يقول: أقدم حيزوم، والحمار عفير فقال: أقبضها في حياتي[١].

إنفاق الأنبياء والأئمّة ما يملكون في سبيل الله

هذا، وقد روى الشيخ الكليني رحمه الله عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام روايةً اخرى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنْ ورّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظٍّ وافر[٢].

فتمسّك بها بعض أهل السنّة بدعوى كونها مطابقةً لما نسبه أبوبكر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ورواه القوم أنه قال:

«إنا معاشر الأنبياء لا نورث...».

ولكنْ بين الكلامين تفاوت واضح، فلفظ رواية الكليني «لم يورّثوا» ولفظ روايتهم المزعومة «لا نورث»....

إن رواية الكافي تفيد أن الأنبياء بذلوا أموالهم في سبيل الله وأنفقوا ما عندهم لوجه الله في حياتهم، ولم يخلّفوا بعد وفاتهم إلّا العلم، لا أنهم لا يورّثون. وهي نكتة دقيقة رغم غفلة بعض أصحابنا عنها من الذين توهّموا أن الإشكال وارد إن كان سند الرواية صحيحاً. لكننا نؤكد على سلامة سند الرواية من الخدش. فالرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله عُرِف بهذا الخلق من البذل والإنفاق، وأدّب

(١) الكافي ١ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) المصدر ١ / ٣٥.

أصحابه أن لا يكنزوا الأموال. فهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ وهو وصيّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ـ قد نصّت الروايات المعتبرة المتفق عليها علىٰ أنّه:

«ما ترك صفراء ولا بيضاء»(١).

وهذا هو نموذج التربية الإسلاميّة، والخلق المحمّدي الرفيع، وهو يختلف بالكامل عن نماذج صحبت النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله لكنّها لم تستنر بتعاليمه وأخلاقه وتربيته، ضع يدك على أيّ كتابٍ شئت من كتب الأخبار والسيرة، ودع بصرك يجول في متون التاريخ، لترىٰ أنّ طلحة والزبير وعبدالرحمٰن بن عوف وأمثالهم خلّفوا من الأموال التي اكتنزوها ما استصعبوا عدّه، ومن الذهب ما كُسِّر بالفؤوس(٢).

فالأنبياء عليهم السّلام «لم يورّثوا»، لأنهم لم يكتنزوا شيئاً لينتقل إلى وارثيهم، وإنما قدّموا كلّ ما كانوا حصلوا عليه وبذلوه قربةً إلى الله تعالىٰ قبل أن يخرجوا من الدنيا، وهو معنىً يختلف تمام الاختلاف عن معنىٰ «لايورّثون». فشتّان بين المعنيين. فتدبّر.

وهكذا كان ديدن أولياء الله الذين تربّوا في مدرسة الأنبياء والأئمّة عليهم السّلام وتخلّقوا بأخلاقهم، فبذلوا الأموال والممتلكات في سبيل الله، لكي لاينشغلوا بجمعها عن طاعة الله وينوءون بوزر ما سيتركونه للورثة. وما أكثر من شاهدنا ممن كانت لهم الأموال الطائلة في حياتهم، إلّا أنهم لم يتركوا شيئاً يُذكر بعد موتهم، نتيجة إنفاقهم في سبيل الله سبحانه.

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٩٧ح ٥١٠، مسند أحمد بن حنبل ٥ / ١٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٦٥

حكىٰ والدي المرحوم، نقلاً عن والده أنّ استاذه الفقيه الكبير الشيخ محمّد حسين الإصفهاني قد أنفق في سبيل الله كلّ ما ورثه من والده من الأموال الطائلة ـ وكان من كبار التجّار ـ لوجه الله، حتّى أنه لم يكن يمتلك داراً متواضعةً لسكناه.

نعم، لا ينكر أحد ما لوراثة العلوم والملكات الفاضلة المعنويّة من قيمةٍ، وهو ما يفتخر به الأئمّة عليهم السّلام وأصحابهم وكبار علماء مدرستهم.

وَ الْمَثَلِ الأَعْلَى

«المَثَل» لغةً

تأتي كلمة «مَثَل» بثلاثة معاني:

الأوّل: ما قاله الراغب الإصفهاني:

المثل عبارة عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهة، ليُبيّن أحدهما الآخر ويصوّره[١].

والأمثال تُضرب في جميع اللّغات، وهو ينشأ من حدوث قضيّة معيّنة في زمن معين فيطلق فيها قول يذهب مثلاً، ويمتاز بقوة التعبير والوجازة والبلاغة، فيضرب على مرّ العصور على الوقائع المشابهة له، إذ تعطي مفهوماً ينطبق عليه.

ففي المثل: «في الصيف ضيَّعتِ اللّبن» هكذا يقال ـ بكسر التاء ـ إذا خوطب به المذكر والمؤنث والمثنّى والجمع؛ لأنّ أصل المثل إنما خوطِب به امرأة وكانت تحت رجلٍ موسر فكرهته لِكبَرِه، فطلّقها فتزوّجها رجل مملق، فبعثت إلى زوجها الأوّل تستميحه فقال لها: «في الصّيف ضيّعت اللّبن» فذهبت مثلاً[٢].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٦٢.

(٢) لسان العرب: ٨ / ٢٣٢.

والمثل بهذا المعنىٰ يجمع على «أمثال».

وليس هو المقصود في عبارة «المثل الأعلىٰ».

الثاني: وهو الذي يجمع على «الأمثلة» ويؤتىٰ به على سبيل المثال في الدروس الأدبية إذا ما أُريد تقريب المفهوم للأذهان، فمثلاً في مبحث المبتدأ والخبر وتعريفهما يقال: «زيد قائم». فيتبيّن من ذلك أن: زيد مبتدأ، وقائم خبره.

وهو أيضاً غير مقصود في العبارة المذكورة.

الأئمةُ مثلُ العليّ الأعلى

إنّما المقصود هو المعنىٰ الثالث وهو:

«النموذج» وجمعه «مُثُل»، حيث يتبين من خلاله حقيقة وواقعيّة أمر معقول بتمثيله بأمر محسوس، فيُقال: مَثلُهُ كمثل كذا.

فحينما نريد تعريف الجود والسخاء وآثارهما وخصوصيّاتهما، نذكر حاتم الطائي، كنموذج له.

وقد جاء «المثل الأعلى» في موردين من الذكر الحكيم، أحدهما: قوله تعالى في سورة النحل:

﴿لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾[1].

والثاني: قوله تعالى في سورة الروم:

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ فِي السَّماوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

ففي سورة النحل ﴿وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الأَعْلىٰ﴾ وفي سورة الروم ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلىٰ﴾ واللّام في كلتا الآيتين للاختصاص، واشتراكهما بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرى: فإنّ «الأعلى» إسم من أسماء الله الحسنىٰ، لقوله عزّ وجلّ:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذي خَلَقَ فَسَوّىٰ﴾(١).

وقوله:

﴿إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلىٰ﴾(٢).

إذا عرفنا ذلك، يتّضح لنا تطبيق مفهوم «المثل الأعلىٰ» على مصداقه وهم الأئمّة المطهّرون عليهم السّلام، وأنهم مَثَلٌ لله سبحانه وتعالىٰ ومظاهر ذاته الأحديّة، وبمعرفة الإمام وحبّه وإطاعته يُعرف الله تبارك وتعالىٰ وتتم إطاعته، وبالإتيان إليهم تكمن عبادة الباري جلّ وعلا، فهم المعرّف لله، لقول الإمام الباقر عليه السّلام:

«بنا عُبِدَ الله، وبنا عُرِفَ الله» كما في رواية بريد العجلي(٣).

ولقول رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«من أطاع عليّاً فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله»(٤).

أقول:

إن الله تعالىٰ أجلّ وأسمىٰ من أن يُرى أو يُعرف ذاته، لذا جعل الأئمّة

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) سورة اللّيل، الآية: ٢٠.

(٣) الكافي ١ / ١٤٥، بحار الأنوار ٢٣ / ١٠٢.

(٤) معاني الأخبار: ٣٧٣، بحار الأنوار ٣٨ / ١٢٩.

المعصومين المصطَفين عليهم السّلام أُنموذجاً ومظهراً لذاته وصفاته، فمن رآهم فقد تجلّت له صفاته ومصاديق أسماءه الحسنىٰ، وهو المرويّ عن سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السّلام أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله خاطب أمير المؤمنين عليه السّلام بقوله:

«يا علي، أنت حجة الله، وأنت باب الله، وأنت الطريق إلى الله، وأنت النبأ العظيم، وأنت الصراط المستقيم، وأنت المثل الأعلىٰ»[١].

وهي مقامات وصفات حصريّة بالأئمّة عليهم السّلام.

وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنَى

وهو معنىٰ ينحو منحىٰ المعنىٰ السّابق، لكون وجودهم وذواتهم عليهم السّلام هي الدعوة الحسنىٰ بعينها إلى الله سبحانه، وقد يُعبّر عنهم بأهل الدعوة الحسنىٰ وأصحابها، وكلا الوجهين واحد. وهناك وجه ثالث سيأتي توضيحه.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة باب «دعو» ما نصّه:

الدال والعين والحرف المعتل، أصل واحد، وهو أن تُميل الشيء إليك بصوتٍ وكلام يكون منك.[٢]

وهو بيان دقيق وجميل، فكأنك تدعو شخصاً إليك فيلبّي دعوتك ويستجيب إليك، فإذا كانت دعوتك لله تبارك وتعالىٰ بتقديمك حاجاتك إلى ساحة قدسه، والغرض من ذلك أن ينظر إليك جلّ وعلا، لأنّ في هذه النظرة كلّ الخير واللّطف.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢ / ٢٧٩.

«وانظر إلينا نظرة رحيمة» كما في دعاء الندبة[١].

فالأئمّة عليهم السّلام بذواتهم ووجوداتهم دعوة نحو الله تبارك وتعالىٰ في كلّ حالة من حالاتهم، إن سكتوا فهم الدعوة إلى الله، وإن نطقوا فهم الدعوة إليه كذلك، أي يذكّرون الإنسان بالله كي يبقىٰ مواصلاً لذكره في حنايا نفسه وطيّات جوانحه وخلايا جوارحه.

فالأئمّة هم السّبب لرأفة الله بالخلق وعنايته، وهم السبب لإقبال الناس وتوجّههم إلى الله، كما ذكر ابن فارس، وهو وإنْ قال «بصوتٍ وكلام» لكنّ الصّوت والكلام ليس دخيلاً في مفهوم «الدّعوة»، إنّ الصوت والكلام واللّفظ أداة لإظهار الحقيقة، والأئمّة بأنفسهم مظاهر الحقائق. وأيضاً، فإنّ الأئمّة بذواتهم «كلمة الله» كما كان عيسى بن مريم عليه السّلام.

الأئمّة «دعوة»

فالأئمّة بذواتهم ووجوداتهم ـ سواء نطقوا أو سكتوا ـ الدعوة إلى الله، فإذا سكتوا كانوا دعاةً إليه وكان سكوتهم عبرةً لنا، كما أن نطقهم صلوات الله عليهم دعوة إلى الله وتعليم لنا....

وعلى الجملة، فهم الدعوة في جميع حالاتهم، سواء كانوا في السّجن كما كان الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام أو كانوا في خارج السجن، ظاهرين وحاضرين بين الناس أو غائبين، ولذا، فإن الإمام المهدي المنتظر عليه السّلام في هذا الزمان هو «الدعوة الحسنى» وإنْ كان غائباً عن الأنظار.

---

(١) بحار الأنوار ٩٩/ ١١٠.

الأئمّة «دعاة»

والمعنى الثاني لـ«الدعوة الحسنى» هو أن يكون الأئمّة عليهم السّلام أصحاب الدعوة الحسنى، بأنْ يكون المراد هو «الداعي»، وهذا وإنْ كان مجازاً مثل قولنا: زيد عدل، إلّا أنه حمل وجيه ومعنى صحيح... قال الراغب:

الدعاء إلى الشيء: الحثّ على قصده ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[١].

فكلّ من الأئمّة عليهم السّلام داعٍ إلى الله، كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله كذلك. وقال تعالى:

﴿... وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ...﴾[٢].

وسيأتي الكلام على ذلك بشرح: «السّلام على الأئمّة الدّعاة» إن شاء الله.

ويحتمل معنىً ثالث، بلحاظ قول النبي صلّى الله عليه وآله:

أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السّلام[٣].

وأيضاً، فقد ورد بتفسير قول إبراهيم عليه السّلام في دعائه:

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[٤].

عن أبي عبدالله عليه السّلام: «يعني به علي بن أبي طالب عليه السّلام...»[٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٧٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤ / ٣٦٨.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

(٥) كمال الدين ١ / ١٣٩.

معنى «الحسنى»

ثم، ما المراد من وصف «الدعوة» بـ«الحسنى»؟

الدعوة الحسنى، هي الدعوة المطابقة للمصلحة والحكمة، والخالية من كلّ قبح ومنقصة، والبالغة للكمال المحض.

لقد كان الأئمّة كذلك في جميع حالاتهم كما تقدّم، إنهم الحسن التامُّ وتمام الحسن، ومن كان هذا حاله، فإنّ أصل وجوده دعوة يجب الاقتداء به في كافة حالاته، وهذي هي العصمة والمعصوم هو «المثل الأعلى والدعوة الحسنى».

وَحُجَجِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأُولَى

«الحجج» جمع «الحجة» أي البرهان.

ولا يخفىٰ علىٰ ذي لبّ أن من اجتمعت فيه الخصوصيّات المتقدّمة، فعلىٰ القطع واليقين يكون حجّة الله علىٰ أهل الدنيا والآخرة والاولىٰ، أي: هو برهان الله تعالىٰ على وجوده ووجوب طاعته.

فالله جلّ وعلا آتخذ الأئمّة عليهم السّلام برهاناً يحتجّ به على أهل عوالم الدنيا وعوالم ما قبلها وما بعدها، ولايتسنىٰ لأحد أن يواجه برهان الله وحجته.

وجه الحاجة إلى إقامة الحجة

وإذا كان الباري سبحانه وتعالىٰ لايحتاج في محاسبة عباده إلى استدعاء شهود أو ذكر الدليل ليحتج عليهم، لإحاطته بالأُمور وقدرته على مؤاخذتهم بما قدّموا من أعمال، فما هي الحاجة إلى تقديم الحجة والبرهان وإحضار الشهود؟

وهل هناك أحد في عالم الوجود يمكنه الاعتراض على حكمه تعالىٰ وهو الذي:

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1].

وهل لأحد أن يطعن في عدله أو حكمه أو علمه، وهو الذي يحاسب عباده في يوم القيامة، وهو الحكم العدل وليس في حكمه جور أو ظلم؟

فما حاجته إلى الدليل والبرهان؟

هناك في الفقه الإسلامي بحث يدور حول كيفيّة الحكم بين متخاصمين ترافعا إلى الحاكم في ملكيّة شيء مثلاً، فهل للحاكم أن يبتّ في القضيّة ويحكم بينهما حسب علمه بأحقيّة أحدهما وبطلان ادّعاء الآخر، أم ينظر في النّزاع حسب الأدلّة والبراهين المقدّمة له؟

فهذا البحث قد استوعبته الكتب الفقهيّة، سواء فيما يخصّ الحقوق الإلٰهية أو فيما يخصّ حقوق الناس[2].

عن هشام بن الحكم عن الإمام الصّادق عليه السّلام نقلاً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

«إنما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان».

ثم قال صلّى الله عليه وآله: «... وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فإنما قطعت له به قطعة من نار»[3].

فهو صلّى الله عليه وآله محيط بالأُمور، عالم بالخفايا، إلّا أنه يقضي حسبما قامت عنده الحجّة الشرعيّة من البيّنات والأيمان.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٢) راجع: كتاب القضاء والشهادات للمؤلف ١ / ١٤١.

(٣) الكافي ٧ / ٤١٤، تهذيب الاحكام ٦ / ٢٢٩، وسائل الشيعة ٢٧ / ٢٣٢.

مقتضى القاعدة نصب الحجة ثم الاحتجاج به

كذلك الله سبحانه، فإنه يعامل العبد بمقتضىٰ قاعدة اللّطف، فيقدّم النّبي أو الإمام كبرهان أو شاهد على أفعال وأقوال العبد، وإذا لزم الأمر فإنّ جوارح العبد تنطق بإذن خالقها تنطق وتشهد عليه[1]. وكلّ ذلك لكي يعي الإنسان ويستحيي من ربه وخالقه، فهو بالرغم من علمه وإحاطته بكلّ ما صدر من العبد، يحاججه حسب قاعدة اللّطف، فيحتج عليه بإرسال الرسل وإيضاح الطريق وإرشاده وتعليمه.

إن مقتضى قاعدة اللّطف توفر ثلاثة أُمور أساسيّة:

١ ـ أن يشرّع الله تعالىٰ شريعة يصلح فيها أُمور الفرد والمجتمع، وينيط مهمّة إبلاغها بشخص أمين.

٢ ـ أن يكون المُؤتمَن على هذه الشريعة علىٰ درجة عالية من المؤهلات لتحمل هذه المسؤولية. وهو الرسول.

٣ ـ أن ينصب بعد الرّسول من يقوم مقامه في الهداية والتزكية والتعليم، حتى لا تخلو الأرض من حجة له على العباد. وهو الإمام.

وبتحقق هذه الأُمور الثلاثة تتم قاعدة اللّطف، ويصحّ الاحتجاج على المكلّفين بأن يقول لهم:

ـ ألم أرسل شريعة؟

ـ بلى، أرسلت.

---

(١) وللمؤلّف رسالة مفردة في هذا الموضوع منتشرة ضمن سلسلة (إعرف الحق تعرف أهله).

ـ ألم أبعث لكم محمّداً صلّى الله عليه وآله ليبلّغكم بها ويدعوكم إلى المعرفة والعمل والطاعة؟

ـ بلىٰ، بعثت، وقد بلّغ وأدّى ما عليه.

ـ لماذا لم تستجيبوا له وتطيعوه؟

ـ ألم أنصب من بعده حججاً يقومون مقامه في وظائفه؟

ـ بلى، نصبت، وما قصّروا.

ـ إذن، من المقصّر؟

هذا هو الإحتجاج.

وفي غير هذه الصّورة، ستكون المحاسبة قبيحة، والعقل يحكم بقبح العقاب من دون بيّنة، وهو ما يقرّه الشرع وهو قوله تعالىٰ:

﴿وَمٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1].

فيتبيّن من هنا شأن ومنزلة الأئمّة المعصومين عليهم السّلام في هذا العالم.

إنّه لولا العصمة لما صلحوا لأنْ يكونوا «حججاً لله» على جميع أهل الأرض.

إنّ كلّ عالمٍ متّقي، بل كلّ فردٍ من أهل التقوى صالحٌ لأنْ يحتجّ بعقيدته وبأعماله على من يعرفه، ولذا يلقّب العالم الصّالح بـ«حجة الإسلام»، ولكنّ المعصوم حجّة لله على جميع الخلائق، ولا يصحّ التعبير بـ«حجة الله» عن أحد إلّا المعصوم.

وبناءً على ما ذكر، فإنّ صلاح الفرد والمجتمع منوط بثلاثة ركائز:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الأولى: ما هو الواجب على الله، وهو تشريع الشريعة وبعث الرسول ونصب الإمام.

والثانية: ما هو الواجب على النبي والإمام، وهو تحمّل المسئوليّة.

والثالثة: ما هو الواجب على المكلّفين، وهو الاتّباع والطّاعة المطلقة للنبي والإمام.

أمّا الله سبحانه، فقد فعل ما كان عليه، وذلك مقتضى لطفه بعباده.

وكذلك النبيّ والأئمّة، فقد قاموا بما كان عليهم من وظيفة الهداية والتزكية والتعليم.

وبقي على الناس أن يعملوا بالشريعة في اصولها وفروعها، ويطيعوا الأئمّة في أوامرهم ونواهيهم، فما كان من ضلال أو فسادٍ في الأفراد أو المجتمع، فإنّما هو بسبب تقصيرهم، وليس عائداً إلى الله وأوليائه... روى بريد بن معاوية عن أبي عبدالله الصادق عليه السّلام أنه قال:

«ليس لله على خلقه أن يعرفوا قبل أنْ يعرّفهم، وللخلق على الله أنْ يعرّفهم، ولله على الخلق إذا عرّفهم أن يقبلوه»[١].

نعم، قد عرّف الله نفسه للخلق، وبعث الأنبياء ونصب الأوصياء لهداية الخلق، قال سبحانه:

﴿لِئَلّاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٢].

بل:

---

(١) كتاب التوحيد: ٤١٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[١].

وحينئذٍ:

﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٢].

وقد سُئل أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام عن هذه الآية فقال:

إنّ تبارك وتعالى يقول للعبد يوم القيامة:

عبدي! أكنت عالماً؟

فإنْ قال: نعم، قال له:

أفلا عملت بما علمت؟

وإنْ قال: كنت جاهلاً، قال له:

أفلا تعلّمت حتى تعمل؟

فيخصمه، فتلك الحجة البالغة[٣].

وتلخّص:

إنّ أصل وجود الأئمّة حجة الله.

وإنّ الله عزّوجلّ يحتجّ بأقوال الأئمّة وأفعالهم على العباد....

أمّا على أهل الدّنيا

وهو هذا العالم الذي نعيشه، وقد سمّي بالدنيا لدنوّه أو لدناءته... فالأمر واضح، فقد كان وجود الأئمّة بين أهل هذا العالم دليلاً وبرهاناً على وجود الله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ٢ / ٤٨٢.

وبهم عرف سبحانه وتعالى، وبهم يحتجّ على العباد، كما أنّ حالاتهم وصفاتهم وسائر آثار وجودهم أيضاً حجج له عليهم، بحيث لا يتسنّى لبشرٍ أن يكابر أو يماطل أمام الباري جلّ وعلا.

أمّا على أهل الأولى

أي عالم الذر، فإنّ الله عزّوجلّ عرّف الأئمّة هناك وأخذ ميثاق ولايتهم، كما في الروايات المتكثرة، كالخبر عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

إنّ الله عزّوجلّ خلق الخلق فخلق من أحبّ مما أحبّ، وكان ما أحبّ أن خلقه من طينة الجنة، وخلق من أبغض مما أبغض وكان ما أبغض أن خلقه من طينة النار، ثمّ بعثهم في الظلال. فقلت: وأي شيء الظلال؟ فقال: ألم تر إلى ظلك في الشمس شيئاً وليس بشيء.

ثمّ بعث منهم النبيين فدعوهم إلى الإقرار بالله عزّوجلّ وهو قوله عزّوجلّ: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ**﴾[١]، ثمّ دعوهم إلى الإقرار بالنبيين، فأقرّ بعضهم وأنكر بعض.

ثمّ دعوهم إلى ولايتنا، فأقرّ بها والله من أحب وأنكرها من أبغض، وهو قوله: ﴿**فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ**﴾[٢].

ثمّ قال أبو جعفر عليه السّلام: كان التكذيب ثمّ[٣].

فالأئمّة عليهم السّلام في ذلك العالم حجج إلَهيّة على جميع الخلائق حتى

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.

(٣) الكافي ١/ ٤٣٦.

الأنبياء والملائكة، وقد ذكرنا في الكتاب طرفاً من الأدلّة على ذلك من الأخبار.

وأمّا على أهل الآخرة

فإنّ الأئمّة في ذلك العالَم شهود....

وإليهم يفوّض أمر الحساب.

وأمير المؤمنين عليه السّلام «قسيم الجنّة والنار».

ولا يدخل الجنّة إلّا من جاء بجوازٍ منه.

وسيأتي بيان كلّ ذلك في المواضع المناسبة من الكتاب، إن شاء الله تعالى.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَى

مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَسَاكِنِ بَرَكَةِ اللَّهِ

وَمَعَادِنِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَحَفَظَةِ سِرِّ اللَّهِ

وَحَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَأَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ

وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَى مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ

«المحال» جمع «المحلّ»، أي: مكان الحلول وموضع الاستقرار، فهو مفهومٌ متقوّم بطرفين:

أحدهما: المكان والمحلّ.

والآخر: المكين والحالّ.

فالمكان هنا هم «الأئمّة» والحالُّ فيه هو «معرفة الله».

وأمّا «المعرفة» فهي كما قال الراغب:

إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثره، وهو أخصّ من العلم، ويضادّه الإنكار[١].

إنّه إذا تفكّر الإنسان في الشيء وتدبّر لأثره، لا يبقى عنده شك ولا شبهة في الشيء، ويكون عارفاً به.

ولمّا كان الله عزّوجلّ لا يمكن إدراكه بذاته، ومن جهة اخرى، لابدّ من معرفته، ولولا المعرفة فلا عبادة ولا طاعة... وجب معرفة الأئمّة، لكونهم الطريق الوحيد إلى معرفة الله، وهذه هي الغاية القصوى من نصبهم....

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٣١.

من عرفهم فقد عرف الله

إنه لا يتسنّى لمن ينشد معرفة الله ـ أصلها أو مرتبة من مراتبها ـ دون الرجوع إلى المحلّ المجعول على نحو التعيين للمعرفة، والمراد من «المحلّ» هو ذوات الأئمّة وأشخاصهم، لا المكان الذي يتواجدون فيه، ولا خصوص أقوالهم الصّادرة عنهم في باب معرفة الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا، فإن من عرف الأئمّة فقد عرف الله، لا بمعنى أنّ الله جالٌّ فيهم، فإنه كفر، بل لأنّهم أسماء الله الحسنى التي بها يعرف، فعن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[١].

نحن ـ والله ـ الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتنا[٢].

وعنه عليه السّلام أنه قال:

من عبدالله بالتوهّم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه، فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين حقّاً[٣].

إنّ الأئمّة عباد الله المكرمون ومخلوقاته المصطفون، ولكن الله إنما يعرف بمعرفتهم، كما قال مولانا أبو عبدالله الحسين الشهيد عليه السّلام:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) الكافي ١ / ١١١.

(٣) الكافي ١ / ٨٧.

«أيها الناس، إن الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه آستغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه.

فقال له رجل: يا بن رسول الله، بأبي أنت وأمّي، فما معرفة الله؟

قال: معرفة أهل كلّ زمانٍ أمامهم الذي تجب عليهم طاعته»(١).

وصدر هذه الرواية يؤيّد تفسير ﴿يَعْبُدُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(٢) بـ«ليعرفون».

وقوله عليه السّلام: «ما خلق الله العباد إلّا ليعرفوه» وعبارته دالّة على الحصر، ظاهر في كون العبادة فرع المعرفة ـ كما ذكرنا من قبل ـ، ومن الواضح أنه كلّما ازدادت المعرفة ازدادت العبادة والطّاعة، وقد جاءت الزيارة الجامعة للكشف عن علوّ مقامات الأئمّة عليهم السّلام في خصلتين: المعرفة والطاعة.

لكنهم كلّما حباهم الله تعالى بقربٍ منه ومقام رفيع عنده ازدادت عبوديّتهم له، فتدبّر في ما سيأتي في الزيارة من:

«عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن وطهّركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً. فعظّمتهم جلاله وأكبرتم شأنه ومجّدتم كرمه وأدمتم ذكره ووكّدتم ميثاقه وأحكمتم عقد طاعته...».

وتأمّل في تفرّع «فعظّمتم...» إلى قوله «وأحكمتم عقد طاعته» «على «عصمكم آلله من الزلل...» و سيأتي بيانه في محلّه إن شاء الله.

لقد بلغ الأئمّة بعد النبي صلّى الله عليه وآله في المعرفة والطّاعة ما لم يبلغه

(١) علل الشرائع ١ / ٩، ح ١، تفسير نور الثقلين ٥ / ١٣٢، ح ٥٨، تفسير الصافي ٥ / ٧٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

أحدٌ من العالمين، فكانوا ـ هم دون غيرهم ـ الذين من عرفهم فقد عرف الله... ولذا ورد عنهم أنه:

بنا عرف الله وبنا عبد الله[١].

فهم السّبب لمعرفة الله وعبادته، كما أن أقوالهم وتعاليمهم هي السّبب لذلك....

وهل ترى في هذا الذي قلناه من غلوّ؟

وعلى الجملة، فإنّ بواسطة الإمام نعرف الله... ولذا قال أبو عبدالله عليه السّلام:

الإمام عَلَمٌ فيما بين الله عزّ وجلّ وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً[٢].

لأن من عرف الإمام كان مؤمناً بالله، وإذا آمن به عبده، ومن أنكره فقد أنكر الله، ومن أنكره كان كافراً.

وقد تقدّم أنّ الأئمّة من أهل البيت «أئمّة الهدى» و«مصابيح الدجى» و«أعلام التقى» حيث تجلّى بشكلٍ واضح حقيقة أن الإمام هو المنصوب من قبل الله لأن يكون الواسطة بينه وبين خلقه والدليل عليه، من تبعه عرف الله وعبده ونجا، ومن تخلّف عنه هلك وغوى.

إنّ أئمّة أهل البيت أعلام وأدلّاء وهداة لكافّة الخلائق، ولا ينحصر نور هدايتهم بالشيعة ولا بالمسلمين فقط، وإنما هم هداة للخلق أجمعين، لأنهم

---

(١) بحار الأنوار ٤٦ / ٢٠٢.

(٢) كمال الدين ٢ / ٤١٢.

«حجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى»، وليس لأحد بعد ذلك حجة على الله، بل الحجة التامّة لله على الخلق من الأوّلين والآخرين.

وَ مَسَاكِنِ بَرَكَةِ اللَّهِ

«المساكن» جمع «المسكن» وهو اسم مكان من «السكون» والاستقرار، وإطلاق المسكن على الدار التي يعيش بها فيها الإنسان مدّةً مجاز أو مسامحة في التعبير، بل الدار منزلٌ. فبين المسكن والمنزل والمأوى... فرق لا يخفى.

«البركة» لغة

و«البركة» ـ كما قال الراغب ـ: ثبوت الخير الإلّهي في الشيء[١].

وفي المصباح المنير: البركة الزيادة والنماء...[٢].

فأهل البيت عليهم السّلام مساكن الخير الالّهي المتزايد والنامي....

لقد تكرر ذكر «البركة» في القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾[٣].

وصف الماء بـ«المبارك»، ثم قال في آية أخرى:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٤.

(٢) المصباح المنير: ٤٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

فالماء المبارك نزل من السّماء وأسكن في الأرض لأنْ يكون سبباً لزيادة الخير والنفع الناس كما قال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾[١].

بل قال في آية أخرى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٢].

ثم فسّر «الماء المعين» في قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[٣].

بالإمام عليه السّلام... فعن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام في هذه الآية: إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد؟[٤]

فالأئمّة عليهم السّلام مساكن الخير الإلّهي بجميع أنواعه وأصنافه، وهم السبب للحياة الماديّة والمعنويّة. يقول الراغب الإصفهاني في مفهوم «الخير»:

ولمّا كان الخير الإلّهي يصدر من حيث لا يحسّ وعلى وجهٍ لا يحصى ولا يحصر، قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك وفيه بركة[٥].

فهذا شرح: ومساكن بركة الله.

وقد يكون إشارةً إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الملك، الآية: ٣٠.

(٤) الكافي ١ / ٢٧٤، كتاب الغيبة للنعماني: ١٧٦.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٤٤.

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾(١).

وقد روى الشيخ الكليني بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

مرّ أمير المؤمنين عليه السّلام بقومٍ فسلّم عليهم، فقالوا: عليك السّلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه. فقال لهم أمير المؤمنين: لا تجاوزوا بنا مثل ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السّلام. إنما قالوا ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾(٢).

هذا، وقد أُضيفت «البركة» إلى «اسم الجلالة» المستجمع لجميع الكمالات، ولعلّه للإشارة إلى أنّ عندهم جميع الخيرات والكمالات الإلهيّة، وأنهم السّبب لنموّها وتزايدها بين الخلائق.

ومن الواضح أن كلّ من كان اتّصاله بهم أزيد وأشدّ، كان انتفاعه من بركاتهم وفيوضاتهم أكثر وأنفع....

وَمَعَادِنِ حِكْمَةِ اللَّهِ

«المعدن» لغةً

«المعادن» جمع «المعدن»، وقد تقدّم في «معدن الرّحمة»، قال في المصباح: عدن بالمكان عدْناً وعدوناً ـ من بابي ضرب وقعد ـ: أقام ومنه. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنّات إقامةٍ، واسم المكان: معدن ـ مثال مجلس ـ لأن أهله يقيمون

(١) سورة هود، الآية: ٧٣.

(٢) الكافي ٢ / ٤٧٢.

عليه الصيف والشتاء. أو: لأن الجوهر الذي خلقه فيه عَدَنَ به.

قال في مختصر العين: معدن كلّ شيء حيث يكون أصله[١].

وقال الراغب: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: استقرار وثبات. وعدن بمكان كذا، استقرّ، ومنه: المعدن لمستقر الجواهر[٢].

وعلى الجملة: فالمعدن في اللّغة هو: منبت الشيء وحيث يكون أصله ومستقرّه.

«الحكمة» لغةً

و«الحكمة» في المفردات: إصابة الحقّ بالعلم والعقل[٣].

ويؤيّده ما رواه الشيخ الكليني عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[٤].

قال: الفهم والعقل[٥].

ولنشرح الجملة ضمن نقاط:

١ ـ إن الحكمة من «حَكَمَ» أي: «مَنَعَ»[٦]، والمحكم هو الشيء المضبوط المتقن، يقال: هذا الباب محكم، أي متقنٌ صنعه وممتنع فتحه أو كسره، وهذا

---

(١) المصباح المنير: ٣٩٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٦.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٢٧.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٥) الكافي ١ / ١٥.

(٦) المفردات في غريب القرآن: ١٢٦.

المطلب محكم، أي: يمتنع إبطال دلائله وإيراد الشبهة فيه، والآيات القرآنيّة المحكمات، أي: التي لا شك وشبهة في معناها، والحكم بالشيء، أي: البيان القاطع الفاصل للخصومة... فالمشتقات كلّها ترجع إلى «المنع» و«الامتناع».

٢ ـ إنّ الأُمور الثابتة والمحكمة التي لا يمكن إبطالها بل لا تقبل الجدل، والتي نعبّر عنها بـ«الحقائق»، يتوصّل إليها بأحد طريقين أو كليهما:

أحدهما: الطّريق العلمي، وهو ترتيب مقدّماتٍ تنتهي إلى العلم بالشيء.

والآخر: الطريق العقلي، وهو للوصول إلى ما لا يمكن إثباته بالطريق العلمي.

الحقائق المحكمة عند الأئمّة

٣ ـ ظاهر «معادن حكمة الله» هو وجود جميع الحقائق المحكمة ـ التي في علم الله ـ عند الأئمّة عليهم السّلام، إلّا أنه لمّا كان الأئمّة محدودين، وعلم الله مطلق غير محدود، فلابدّ من أنْ يكون المراد أنّ كلّما يمكن تعلّق العلم به، فالأئمّة عالمون به في أعلى درجات العلم، ولعلّ هذا هو معنى قوله صلّى الله عليه وآله المتفق عليه:

أنا مدينة الحكمة وعلي بابها[١].

وكذا قوله صلّى الله عليه وآله:

أنا مدينة العلم وعلي بابها[٢].

---

(١) انظر: نفحات الأزهار، الأجزاء: ١٠ ـ ١٢.

(٢) المصدر.

الحكمة من الله

٤ ـ إن صريح الآيات الكريمة أنّ كلّ ما عند أحدٍ من الحكمة، فإنما هو من الله: قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ﴾(١).

وقال:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ﴾(٢).

وقال:

﴿وَآتاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٣).

وقال:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ﴾(٤).

فالحكمة عطيّة إلَهية، وهذه العطيّة المحكمة وكلّ الحقائق من المعقولات والمعلومات... عند الأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام وهم المستقرّ والمقام لها، وهي جميعاً مجتمعة عندهم.

فهذا شرح الجملة المذكورة، ويبقى الكلام في المصاديق، وهنا لابدّ من الرّجوع إلى الروايات المفسّرة للآيات:

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

الحكمة في الروايات

فعن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام في قوله تعالى:
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١] قال: هي طاعة الله ومعرفة الإمام[٢].

وفي روايةٍ:

إنّ الحكمة: المعرفة والتفقّه في الدين.

وفي ثالثة:

الخير الكثير معرفة أمير المؤمنين والأئمّة[٣].

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إنّ الله تعالى آتاني القرآن وآتاني الحكمة مثل القرآن[٤].

وكلّ ذلك ـ بمقتضى الحديث السّابق ـ عند أمير المؤمنين عليه السّلام، لكونه باب المدينة.

إذن، معرفة الله وطاعته وأسرار القرآن الكريم، والعلم بملاكات الأحكام، وحقائق الأُمور، وكلّ ما فيه صلاح العباد... كلّ ذلك ثابت ومستقرّ عند الأئمّة، وكلّ من حصل له شيء من ذلك فهو من الأئمّة عليهم السّلام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) الكافي ١ / ١٨٥.

(٣) تفسير القمي ١ / ٩٢.

(٤) تفسير كنز الدقائق ١ / ٦٥٣.

وَحَفَظَةِ سِرِّ اللَّهِ

ممّا لا ريب فيه، أنّ هناك من الحقائق والقضايا ما يفوق قدرة العلم وإدراك العقل البشري، وبالتالي، فمهما ترقّى الإنسان في سلّم التقدّم العلمي والعقلي، يبقى قاصراً عن نيل الكثير من الحقائق في هذا العالم وغيره، وقد لا تزال خافيةً عليه إلى قيام السّاعة.

ما ستره الله عن العباد محفوظٌ عند الأئمّة

إلّا أن كلّ ذلك مودع عند الأئمّة، وهو دون مقامهم العلمي، إذ أنْ علمهم محيط بجميع ما في الكون في أعلى مراتبه، وإنّ جميع ما ستره الله عن سائر أفراد البشر موجود عندهم، وهم الحفظة والأُمناء على تلك الأسرار.

لقد وجد في أصحابهم من كان أهلاً لأنْ يعطوه شيئاً ممّا آتاهم الله من المعرفة والعلم، ثم قاموا بتعليم ما أخذوه ونشر ما استوعبوه، ولكنْ هل كان فيهم من كان أهلاً لأنْ يودَع شيئاً من الأسرار؟

قال أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام لأبي بصير:

يا أبا محمّد، إنّ عندنا ـ والله ـ سرّاً من سرّ الله، وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلّف الله ذلك أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا...[١].

وقد عبّروا عن تلك الحقائق المستورة بـ«الصعب المستصعب» في بعض الأخبار، كقوله عليه الصّلاة والسّلام:

---

(١) الكافي ١ / ٤٠٢.

حديثنا صعب مستصعب، لا يؤمن به إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان[١].

وقد يعبّرون عن ذلك بـ«العلم المكنون»، كقوله عليه السّلام في بعض الموارد:

هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سئلتموني ما أخبرتكم[٢].

وعلى الجملة، فيظهر أنْ هناك حقائق كثيرةً مستورة عن عموم الناس، لا تدركها أفهامهم ولا تبلغها عقولهم، لكن الأئمّة الأطهار من أهل البيت عليهم السّلام يحملون تلك الأُمور كما ورد بتفسير قوله تعالى:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ في إِمٰامٍ مُبينٍ﴾[٣].

فقد روى الشيخ ابن بابويه الصّدوق بإسناده عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه قال: لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه وآله، قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا.

قالا: فهو الإنجيل؟

قال: لا.

قالا: فهو القرآن؟

قال: لا.

قال: فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السّلام، فقال رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) الكافي ١ / ٢٠.

(٢) عوالي اللآلي ٢ / ٣٨.

(٣) سورة يس، الآية: ١٢.

وآله هو هذا. إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كلّ شيء[١].

ويشهد بذلك الحديثان الثابتان عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أنا مدينة العلم وعلي بابها.

أنا مدينة الحكمة وعلي بابها.

وكذا غيرهما من الأحاديث الواردة في كتب الفريقين.

أسرّوا ببعضها لآحادٍ من أصحابهم

فكلّ الحقائق عند النبي وآله الأطهار، وقد أُذن لهم بالكشف عن بعضها ولم يؤذن ذلك بالنسبة إلى البعض الآخر، إذ لا يحتمله إلّا ملك مقرب أو نبيّ مرسل، وإذا أرادوا إعطاء شيء منه لأحدٍ امتحنوه كما قال: أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

ومن هنا كان الإمام علي يشير إلى صدره ويقول:

إن هاهنا لعلماً جمّاً لو أصبت له حملة[٢].

إذن... لقد بيّن الأئمّة عليهم السّلام كثيراً من العلوم والحكم وعلّموها لمن كان لها أهلاً ومنهم انتشرت، ولكنّ كثيراً ممّا كان عندهم لم يجدوا له حملةً، وبقيت عندهم محفوظةً مكتومة، ومن هذا الباب ما روي عن الإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السّلام أنه قال:

إني لأكتم من علمي جواهره	كيلا يرىٰ الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدّم في هذا أبو حسنٍ	إلى الحسين ووصّىٰ قبله الحسنا
ورُبَّ جوهر علمٍ لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا[٣]

(١) معاني الأخبار: ٩٥.

(٢) الخصال ١ / ١٨٦، نهج البلاغة: ٤٩٦.

(٣) المحجّة البيضاء ١ / ٦٥، ينابيع المودّة ١ / ٧٦.

إلّا إذا وجدوا لبعضها حملةً أخبروه ثم أمروه بالكتمان، ولعلّ من هؤلاء الأفراد القلائل: جابر بن يزيد الجعفي، وقد روى عنه الشيخ الكليني بإسناده قال:

حدّثني محمّد بن علي عليه السّلام سبعين حديثاً لم أُحدّث بها أحداً قط ولاأُحدّث بها أحداً أبداً، فلمّا مضى محمّد بن علي عليهما السّلام ثقلت على عنقي وضاق بها صدري، فأتيت أبا عبدالله عليه السّلام فقلت: جعلت فداك، إن أباك حدّثني سبعين حديثاً لم يخرج منّي شيء منها ولا يخرج شيء منها إلى أحدٍ، وأمرني بسترها، وقد ثقلت على عنقي وضاق بها صدري، فما تأمرني؟

فقال: يا جابر، إذا ضاق بك من ذلك شيء، فاخرج إلى الجبّانة واحتفر حفيرةً، ثم دلّ رأسك فيها وقل: حدّثني محمّد بن علي بكذا وكذا، ثم طمّه، فإنّ الأرض تستر عليك.

قال جابر: ففعلت ذلك فخفّ عنّي ما كنت أجده[١].

أقول:

ومع ذلك كلّه، فقد اشتهر جابر بن يزيد الجعفي بهذا الأمر حتّى بين المخالفين، فمنهم من وثّقه حتى قال بعضهم: ما رأيت أورع منه في الحديث، وقال آخر: ما شككتم في شيء فلا شكّوا أن جابراً الجعفي ثقة، وعن الشافعي قال سفيان لشعبة: لئن تكلّمت في جابر الجعفي لأتكلّمنّ فيك. ومنهم من كذّبه لكونه شيعيّاً موالياً لأهل البيت يعتقد برجعتهم[٢].

---

(١) الكافي ٨ / ١٥٧.

(٢) انظر: ميزان الإعتدال ١ / ٣٧٩.

وَ حَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ

«الحمل» لغةً

«الحملة» جمع «الحامل».

قال ابن فارس: الحاء والميم واللّام أصل واحد، يدلّ على إقلال الشيء، يقال: حملت الشيء أحمله حملاً،...[١].

وقال الراغب: الحمل معنى واحد، اعتبر في أشياء كثيرة، فسُوّي بين لفظه في فعلٍ وفُرق بين كثير منها في مصادرها، فقيل في الأثقال المحمولة في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر: حِمل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمل، كالولد في البطن... يقال: حملت الثقل والرسالة والوزر حملاً... وقوله عزّوجلّ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ...**﴾ أي: كُلّفوا أنْ يتحمّلوها، أي يقوموا بحقّها...[٢].

والحمل مفهومٌ يتقوم بـ«الحامل» و«المحمول» سواء حمل الشيء في اليد أو على الرأس أو على الظهر أو في البطن أو في الصّدر.

وهذا المفهوم يتحقّق بحمل الأثقال وإلّا لم يصدق «الإقلال»، وهي على قسمين:

١ ـ الأثقال الماديّة المحسوسة، كما في قوله تعالى:

﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ**﴾[٣].

وكما في قوله تعالى:

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢ / ١٠٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢٥٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ٧.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[١].

٢ ـ الأثقال المعنويّة، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[٢].

وكما في قوله تعالى:

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[٣].

وكما في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[٤].

وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، والمراد من ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يقوموا بحقها كما قال الراغب، فهم لمّا لم يأخذوا بتعاليم التوراة أصبحوا بحيث لا يفرّق بينهم وبين الحيوان الذي يحمل الأسفار وهو لا يعقل ما يحمل وقيمته وأهميته.

المراد من «كتاب الله»

وأمّا «كتاب الله» هنا، فالظاهر أن المراد به ما هو أوسع من القرآن، لأنّ الأئمّة يحملون في صدورهم كلّما جاءت به الرّسل والشرائع التي أشار إليها قوله تعالى:

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٥.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْميزانَ﴾[١].

وعندهم جميع الصحف التي أشار إليها بقوله:

﴿إِنَّ هٰذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ * صُحُفِ إِبْراهيمَ وَمُوسىٰ﴾[٢].

فعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السّلام أنه قال له:

يا أبا محمّد، إنّ عندنا الصحف التي قال الله سبحانه ﴿صُحُفِ إِبْراهيمَ وَمُوسىٰ﴾ قال: قلت: جعلت فداك، وإنّ الصحف هي الألواح؟ قال: نعم»[٣].

فالصحف عندهم، وفيها كتبت ولايتهم:

فعن أبي الحسن عليه السّلام قال: ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولاً إلّا بنبوة محمّد ووصيّة علي[٤].

وعند الأئمّة كلّ ما نزل على رسول الله من القرآن وغير القرآن، كما قال صلّى الله عليه وآله:

إنّ الله تعالى آتاني القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن[٥].

حقائق القرآن عند الأئمّة

نعم، عندهم جميع الحقائق والأسرار القرآنيّة، هذا الكتاب الذي وصفه أمير المؤمنين عليه السّلام بقوله:

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٨ ـ ١٩.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ٥ / ٦٣٨.

(٤) الكافي ١ / ٣٦٣.

(٥) مجمع البيان ٢ / ١٩٤، تفسير الصّافي ١ / ٢٩٩، نور الثقلين ١ / ٢٨٧.

إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه ولا تنقضى غرائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به[١].

هذا الكتاب الذي ورد أنه:

على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق[٢].

ويدلّ على ذلك ما ورد بتفسير كثيرٍ من آياته الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ﴾[٣].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ في صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾[٤].

فعن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «هم الأئمّة عليهم السّلام»[٥].

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السّلام ـ فيما رواه الخاصّة والعامّة ـ:

والله، ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيم أنزلت وأين أُنزلت»[٦].

وقال:

سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس آية إلّا وقد عرفت أبليلٍ نزلت أم بنهار، في سهل أو جبل»[٧].

---

(١) نهج البلاغة: ٦١.

(٢) جامع الأخبار: ٤١، عوالي اللآلي ٤ / ١٠٥، بحار الأنوار ٧٥ / ٢٧٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

(٥) الكافي ١ / ٢١٤.

(٦) كشف الغمّة ١ / ١١٦، كشف اليقين: ٥٥، حلية الأولياء ١ / ٦١، أنساب الأشراف ١ / ٩٩.

(٧) الإستيعاب ٣ / ١١٠٧.

فأين علي عليه السّلام من أُولئك الذين جهلوا مفاهيم ألفاظ القرآن فضلاً عن حقائقه وأسراره، حتى أنهم لم يعلموا معنى قوله تعالى:

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[١].

فقد روى الخاصّة والعامّة أن أبا بكر لمّا سئل عن معنى «الأب» في هذه الآية، قال:

أي سماء تظلّني أم أي أرض تقلّني، أم كيف أصنع إنْ قلت في كتاب الله بما لا أعلم؟ أمّا الفاكهة فنعرفها، وأما الأب، فالله أعلم به»[٢].

وكيف يقاس هذا الجاهل بمفردةٍ من مفردات القرآن، بمن قال على رؤوس الأشهاد: سلوني قبل أن تفقدوني[٣].

وَأَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ

«الوصيّ» لغةً وشرعاً

«الأوصياء» جمع «الوصي». قال ابن فارس:

وصي... أصل يدلّ على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيء: وصلته... والوصيّة من هذا القياس، كأنه كلام يوصىٰ، أي يوصل[٤].

وأضاف صاحب التاج:

---

(١) سورة عبس، الآية: ٣١.

(٢) الدر المنثور ٦ / ٣١٧.

(٣) الإستيعاب ٣ / ١١٠٧.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٦ / ١١٦.

وأوصاه إيصاءً ووصّاه توصيةً: إذا عهد إليه[١].

وفيه وفي اللسان:

الوصي... لقب علي رضي الله عنه[٢].

ثم قال في التاج: سمّي به لاتّصال سببه ونسبه وسمته بنسب رسول الله وسببه وسمته.

هذا كلامه، ولم يؤد المطلب حقّه كما سيظهر.

وفي الفقه كذلك، وفي عبارة الشهيد الأول كفاية حيث قال في كتاب الوصيّة:

هي فعليّة، من وصىٰ يصي، إذا وصل الشيء بغيره، لأن الموصي يصل تصرّفه بعد الموت بما قبله، ويقال: وصي للموصي وللموصى له...[٣].

فالوصي في الحقيقة امتداد للموصي، وبواسطته تستمرّ تصرّفاته، فيقوم «الوصي» مقام «الموصي» وينزّل منزلته....

ونفس هذا المعنى هو المقصود من الكلمة في القرآن الكريم، كقوله سبحانه:

﴿وَوَصّىٰ بِهٰا إِبْرٰاهِيمُ بَنِيهِ﴾[٤].

الوصاية عن النبي هي الإمامة من بعده

أي: عهد إليهم بها... و«العهد» هو «الوصاية»، وإذا قيل «عهد النبيّ» مثلاً كان المراد: «الوصاية» و«الإمامة»، وهذا صريح الأخبار في كتب الفريقين:

(١) تاج العروس ٢٠ / ٢٩٦.

(٢) المصدر ٢٠ / ٢٩٧، لسان العرب ١٥ / ٣٩٤.

(٣) الدروس الشرعية ٢ / ٢٩٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

عن عمرو بن الأشعث قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول: أترون الموصي منّا يوصي إلى من يريد؟! لا والله، ولكن عهدٌ من الله ورسوله صلّى الله عليه وآله لرجل فرجل، حتّى ينتهي الأمر إلى صاحبه.

وعن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إنّ الإمامة عهد من الله عزّوجلّ معهود لرجال مسمّين، ليس للإمام أن يزويها عن الّذي يكون من بعده.

إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السّلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك فإنّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبيّاً إلّا وله وصيٌّ من أهله، وكان لداود عليه السّلام أولادٌ عدّة، وفيهم غلام كانت أُمّة عند داود وكان لها محبّاً، فدخل داود عليه السّلام عليها حين أتاه الوحي فقال لها: إنّ الله عزّوجلّ أوحى إليّ يأمرني أن أتّخذ وصيّاً من أهلي، فقالت له امرأته: فليكن ابني. قال: ذلك أُريد، وكان السابق في علم الله المحتوم عنده أنّه سليمان، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: أن لا تعجل دون أن يأتيك أمري، فلم يلبث داود عليه السّلام أن ورد عليه رجلان يختصمان في الغنم والكرم، فأوحى الله عزّوجلّ إلى داود أن اجمع ولدك، فمن قضى بهذه القضيّة فأصاب فهو وصيّك من بعدك، فجمع داود عليه السّلام ولده، فلمّا أن قصّ الخصمان، قال سليمان عليه السّلام: يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال: دخلته ليلاً، قال: قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك وأصوافها في عامك هذا، ثمّ قال له داود: فكيف لم تقض برقاب الغنم وقد قوّم ذلك علماء بني إسرائيل وكان ثمن الكرم قيمة الغنم؟ فقال سليمان: إنّ الكرم لم يجتثّ من أصله وإنّما أُكل حمله وهو عائد في قابل.

فأوحى الله عزّوجلّ إلى داود: أنّ القضاء في هذه القضيّة ما قضى سليمان به،

يا داود، أردت أمراً وأردنا أمراً غيره. فدخل داود على امرأته فقال: أردنا أمراً وأراد الله عزّوجلّ أمراً غيره ولم يكن إلّا ما أراد الله عزّوجلّ، فقد رضينا بأمر الله عزّوجلّ وسلّمنا.

وكذلك الأوصياء عليهم السّلام، ليس لهم أن يتعدّوا بهذا الأمر فيجاوزون صاحبه إلى غيره»(١).

ولمّا أُريد من عمر بن الخطاب أن يوصي بالخلافة لأحدٍ من بعده، قال:

إنْ أعهد، فقد عهد من هو خير منّي، يعني أبا بكر، وإنْ اترك، فقد ترك من هو خير منّي، يعني رسول الله صلّى الله عليه وآله(٢).

ولكنّ أبا بكر لم يكن له من الأمر شيء حتى يعهد لأحدٍ من بعده، أمّا رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقد عهد إلى علي عليه السّلام، وهو وصيّه بأمرٍ من الله.

وهكذا كانت السنّة التي سارت عليها جميع الرسالات، فإنّهم ما فارقوا أُممهم إلّا بعد تعيين الوصي والإمام من بعدهم، كي يبقى ركب النبوّات ونهج الشرائع الإلهيّة مستمرّاً:

روى الشيخان الصّدوق والطوسي بإسنادهما عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أنا سيّد النبيين ووصيي سيّد الوصيين وأوصياؤه سادة الأوصياء.

إنّ آدم عليه السّلام سأل الله عزّوجلّ أن يجعل له وصيّاً صالحاً، فأوحى الله

---

(١) الكافي ١ / ٢٧٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١ / ٢١٢، تاريخ الخلفاء ١ / ١٤.

عزّوجلّ إليه أنّي أكرمت الأنبياء بالنبوّة، ثمّ اخترت خلقي فجعلت خيارهم الأوصياء.

فقال آدم عليه السّلام: يا ربّ! فاجعل وصيي خير الأوصياء.

فأوحى الله عزّوجلّ إليه: يا آدم! أوص إلى شيث وهو هبة الله بن آدم.

فأوصى آدم إلى شيث، وأوصى شيث إلى ابنه شبان وهو ابن نزلة الحوراء الّتي أنزلها الله عزّوجلّ على آدم من الجنّة فزوّجها شيثاً، وأوصى شبان إلى ابنه مجلث، وأوصى مجلث إلى محوق، وأوصى محوق إلى غثميشا، وأوصى غثميشا إلى أخنوخ وهو إدريس النبي عليه السّلام، وأوصى إدريس إلى ناخور، ودفعها ناخور إلى نوح عليه السّلام، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر وأوصى عثامر إلى برعيثاشا، وأوصى برعيثاشا إلى يافث.

وأوصى يافث إلى برة، وأوصى برة إلى جفيسة وأوصى جفيسة إلى عمران.

ودفعها عمران إلى إبراهيم الخليل عليه السّلام، وأوصى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، وأوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى بثرياء، وأوصى بثرياء إلى شعيب.

وأوصى شعيب إلى موسى بن عمران، وأوصى موسى إلى يوشع بن نون وأوصى يوشع إلى داود وأوصى داود إلى سليمان، وأوصى سليمان إلى آصف بن برخيا، وأوصى آصف بن برخيا إلى زكريا، ودفعها زكريا إلى عيسى بن مريم عليه السّلام، وأوصى عيسى إلى شمعون ابن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر، وأوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة.

ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ودفعها إليّ بردة، وأنا أدفعها إليك

ياعلي! وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحد حتّى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك.

ولتكفرنّ بك الأمة ولتختلفن عليك اختلافاً شديداً. الثابت عليك كالمقيم معي والشاذ عنك في النار، والنار مثوى للكافرين.(١)

الإمامة لا تنال الظالمين

هذا، وفي القرآن الكريم:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢).

وقد اتفق المفسّرون على أن المراد من «العهد» فيها هو «الإمامة»(٣) والروايات في ذيلها كثيرة:

فعن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «قد كان إبراهيم نبيّاً وليس بإمام، حتى قال الله له: **﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾** فقال الله: **﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**. من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً»(٤).

وعنه عليه السّلام:

ينكرون الإمام المفروض الطاعة ويجحدونه؟ والله، ما في الأرض منزلة عند الله أعظم من منزلة مفترض الطاعة. لقد كان إبراهيم دهراً ينزل عليه الوحي والأمر

---

(١) كمال الدين ١ / ٢١١ ـ ٢١٢، أمالي الطوسي ٢ / ٥٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) تفسير القمي ٢ / ٢٢٦، العياشي ١ / ٥٧، الرازي ٤ / ٤٠، ابن أبي حاتم ١ / ٢٢٣.

(٤) الكافي ١ / ١٣٣.

من الله، وما كان مفترض الطاعة، حتى بدا لله أنْ يكرمه ويعظّمه فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فعرف إبراهيم ما فيها من الفضل فقال ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل ذلك في ذريّتي، قال الله عزّوجلّ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال أبو عبدالله: إنما هو في ذريّتي لا يكون في غيرهم[1].

الأئمّة أوصياء الرّسول

وما كان نبيّنا صلّى الله عليه وآله بدعاً من الرسل، فقد أوصى بأمرٍ من الله عزّوجلّ وعيّن الخلفاء من بعده وعهد بذلك بكلّ وضوحٍ وصراحة، وهذا ما جاء في روايات الفريقين كذلك:

روى الشيخ الكليني بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال:

قال أبي لجابر بن عبدالله الأنصاري: إنّ لي إليك حاجة، فمتى يخف عليك أن أخلو بك فأسألك عنها؟

فقال له جابر: أيّ الأوقات أحببته؟ فخلا به في بعض الأيام.

فقال له: يا جابر! أخبرني عن اللّوح الّذي رأيته في يد أمّي فاطمة عليها السّلام بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله، وما أخبرتك به أمي أنّه في ذلك اللّوح مكتوب؟

فقال جابر: أشهد بالله أنّي دخلت على أمّك فاطمة عليها السّلام في حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله فهنيتها بولادة الحسين عليه السّلام، ورأيت في يديها لوحاً أخضر، ظننت أنّه من زمرّد، ورأيت فيه كتاباً أبيض شبه لون الشمس،

(١) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٣٢٤.

فقلت لها: بأبي وأمّي يا بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله ما هذا اللّوح؟

فقالت: هذا لوح أهداه الله إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابنيّ واسم الأوصياء من ولدي وأعطانيه أبي ليبشرني بذلك.

قال جابر: فأعطتنيه أمّك فاطمة عليها السّلام فقرأته واستنسخته.

فقال له أبي: فهل لك يا جابر! أن تعرضه علي؟

قال: نعم.

فمشى معه أبي إلى منزل جابر فأخرج صحيفة من رق.

فقال: يا جابر! انظر في كتابك لأقرأ [أنا] عليك.

فنظر جابر في نسخته فقرأه أبي فما خالف حرف حرفاً.

فقال جابر: فأشهد بالله أنّي هكذا رأيته في اللّوح مكتوباً:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمّد نبيّه ونوره وسفيره وحجابه ودليله نزل به الرّوح الأمين من عند ربّ العالمين، عظّم يا محمّد أسمائي واشكر نعمائي ولا تجحد آلائي، إنّي أنا الله لا إلَه إلّا أنا قاصم الجبّارين ومديل المظلومين وديّان الدين، إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا، فمن رجا غير فضلي أو خاف غير عدلي، عذّبته عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين، فإيّاي فاعبد وعليّ فتوكّل.

إنّي لم أبعث نبيّاً فأكملت أيّامه وانقضت مدّته إلّا جعلت له وصيّاً، وإنّي فضّلتك على الأنبياء وفضّلت وصيّك على الأوصياء، وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين، فجعلت حسناً معدن علمي بعد انقضاء مدّة أبيه، وجعلت حسيناً خازن وحيي وأكرمته بالشهادة وختمت له بالسّعادة، فهو أفضل من استشهد وأرفع الشهداء درجة، جعلت كلمتي التامّة معه وحجّتي البالغة عنده، بعترته أثيب

وأعاقب، أوّلهم علي سيد العابدين وزين أوليائي الماضين، وابنه شبه جدّه المحمود محمّد الباقر علمي والمعدن لحكمتي.

سيهلك المرتابون في جعفر، الراد عليه كالراد عليّ، حق القول منّي لأكرمنّ مثوى جعفر، ولأسرنّه في أشياعه وأنصاره وأوليائه، أتيحت بعده موسى فتنة عمياء حندس لأن خيط فرضي لا ينقطع وحجتي لا تخفى، وأنّ أوليائي يسقون بالكأس الأوفى، من جحد واحداً منهم فقد جحد نعمتي، ومن غيّر آية من كتابي فقد افترى عليّ.

ويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدّة موسى عبدي وحبيبي وخيرتي في علي وليي وناصري ومن أضع عليه أعباء النبوة وأمتحنه بالاضطلاع بها، يقتله عفريت مستكبر يدفن في المدينة التي بناها العبد الصّالح إلى جنب شرّ خلقي.

حق القول منّي لأسرنّه بمحمّد ابنه وخليفته من بعده ووارث علمه، فهو معدن علمي وموضع سرّي وحجّتي على خلقي، لا يؤمن عبد به إلّا جعلت الجنّة مثواه وشفّعته في سبعين من أهل بيته كلّهم قد استوجبوا النار.

وأختم بالسعادة لابنه علي وليي وناصري والشاهد في خلقي وأميني على وحيي، أخرج منه الداعي إلى سبيلي والخازن لعلمي الحسن.

وأكمل ذلك بابنه «م ح م د» رحمة للعالمين، عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيّوب، فيذلّ أوليائي في زمانه وتتهادى رؤوسهم كما تتهادى رؤوس الترك والديلم، فيقتلون ويحرّقون ويكونون خائفين، مرعوبين، وجلين، تصبغ الأرض بدمائهم ويفشو الويل والزنا في نسائهم أولئك أوليائي حقاً، بهم أدفع كلّ فتنة عمياء حندس وبهم أكشف الزلازل وأدفع الآصار والأغلال، أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

قال عبدالرحمان بن سالم: قال أبوبصير: لو لم تسمع في دهرك إلّا هذا الحديث لكفاك، فصنه إلّا عن أهله[١].

إن مفهوم الوصيّة لا يتحقق إلّا بأطراف:

١ ـ الموصي.

٢ ـ الوصي.

٣ ـ الجهة.

فهو يوصي إلى زيد بأنْ يصرف كذا من أمواله في الجهة المعيّنة.

وقد يكون للموصي أوصياء كلّ منهم لجهةٍ من الجهات.

وللنبي صلّى الله عليه وآله اثنا عشر وصيّاً يقوم كلّ واحدٍ منهم بعد الآخر بوظائف النبوّة، فلا تخلو الأرض من هادٍ للأمّة ورابط بينها وبين الله، ومن حجّة لله على الخلق، حتى قيام السّاعة....

إن الارتباط بين السماء والأرض لم ينقطع بموت النّبي صلّى الله عليه وآله، بل إنّ جميع ما أُنزل عليه من القرآن وأحكام الحلال والحرام والآداب والسنن... باق مستمرّ إلى يوم القيامة، والأئمّة كلٌّ في عهده حافظون لذلك كلّه من الزيادة والنقصان ومبلّغون له للناس، فهو ـ وإنْ رحل عن هذا العالم ـ باقٍ ببقاء الأئمّة من أهل بيته وما جاء به باق ببقائهم، ولعلّ هذا هو السرّ في إضافة «الأوصياء» إلى «نبي الله»، إذْ أُضيف الأئمّة بعنوان الأوصياء إلى جهة نبوته صلّى الله عليه وآله.

ولابدّ من التأكيد هنا على نقطةٍ ـ ولو بإيجاز ـ وهي: إنّ من يكون وصيّ النبي فيقوم من بعده بوظائف النبوّة ويقوم مقامه ويسدّ مسدّة، لابدّ وأنْ يكون واجداً لجميع صفات النبيّ ومراتبه من الولاية والعلم والعصمة وغير ذلك عدا النبوة.

---

(١) الكافي ١ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

الوصيّ لقب أمير المؤمنين عليه السّلام

ثم إنّ من الثابت والمسلّم به أن لقب «الوصي» قد آختصّ في الإسلام بالإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام، فإنه طالما نطق به الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله في خطاباته وكلماته، وبهذا اتفقت روايات السنّة والشيعة، وأدبيات الأئـمّة عليهم السّلام والصّحابة بشكل وافر شعراً ونثراً[١]. وقد سلّطنا الضوء على ذلك مفصّلاً خلال بحثنا حول الوصيّة في كتابنا «تشييد المراجعات»[٢].

وبحث الوصيّة يدور حول ثلاثة محاور:

١ ـ إثبات وصية النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قبل رحيله من الدنيا، وهو بحث أساسي وأحد ثوابت مبحث الإمامة، بحيث تترتب عليه باقي مسائل بحث الإمامة، ولذا لزم اتقان موضوعه بدقة.

٢ ـ إن وصيَّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، وهو ما أوضحناه فيه معنىٰ الوصية والأحاديث الواردة فـيها والشواهد عليها.

٣ ـ إنكار عائشة الوصيّة من خلال آدّعائها أن رأس النبي صلّى الله عليه وآله كان في حجرها حين وفاته، حيث قالت في معرض إنكارها الوصيّة لعلي:

متى أوصىٰ إليه؟ وقد كنت مسندته إلى صدري، فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري وما شعرت أنه مات، فمتى أوصى إليه؟

---

(١) راجع للاطلاع: الكامل ٤ / ١٤، ميزان الاعتدال ٢ / ٢٤٠ و ٢٧٣، تـاريخ مـدينة دمشـق ٤٢ / ٣٩٢، مـناقب الخوارزمي: ٨٥، حديث ٧٤، وقعة صفين: ٤٨١، ينابيع المودّة ١ / ٢٣٥ وشرح نهج البلاغة ١/ ١٤٥.

(٢) راجع: تشييد المراجعات ٤ / ٩٥ ـ ١٨٩، باب عليّ وصـيّ النـبيّ صـلّى الله عـليه وآله وبـاباً حـول عـائشة وإنكارها للوصية.

وفي رواية أخرى:

متى أوصى وقد مات بين سحري ونحري؟[١].

ثم تبعها في ذلك الأبناء الذين اتّخذوها إماماً لهم فأنكروا الوصيّة؛ كابن خلدون وابن عساكر وابن كثير وابن فلان... من النواصب.

وهو ادّعاء باطل من جهتين:

١ ـ إن هذا الخبر كذب محض.

٢ ـ إنّه صلّى الله عليه وآله توفي ورأسه في حجر عليٍّ أمير المؤمنين عليه السّلام حيث أوصاه حينذاك بوصايا.

حديث الثقلين وصيّة النبيّ

إضافة لهذا وذاك، فالنبي صلّى الله عليه وآله طالما كان يكرّر وصيّته بعليٍّ والأئمّة من بعده طيلة فترة نبوّته، فإنه بالإضافة إلى حديث الثقلين الذي ذكره صلّى الله عليه وآله وسلّم في عدّة مواضع بقوله:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٢].

---

(١) صحيح البخاري ٣ / ١٨٦، صحيح مسلم ٥ / ٧٥، مسند أحمد ٦ / ٣٢، سنن ابن ماجة ١ / ٥١٩، شرح مسلم للنوري ١١ / ٨٨، المصنّف ٧ / ٣٠٩، امتاع الاسماع ١٤ / ٤٨٢.

(٢) الموضع الأول: حين رجوعه من الطائف، الصواعق المحرقه: ٦٤.

الموضع الثاني: في حجة الوداع وفي عرفة: المعجم الكبير ٣ / ٦٣ ح ٢٦٧٩، سنن الترمذي ٦ / ٦٢١، جامع الاصول ١ / ٢٧٧، كنز العمّال ١ / ١٤٨،

الموضع الثالث: خطبة يوم غدير خم، مسند أحمد ٣ / ١٧، سنن الدارمي ٢ / ٣١٠، سنن البيهقي ٢ / ١٤٨، البداية والنهاية ٥ / ٢٠٩.

هذا الحديث الذي اعتبره علماء الفريقين من وصايا النّبيّ صلّى الله عليه وآله، في عبارات لهم صريحة في ذلك، وهذه نصوص بعضها:

قال ابن حجر المكّي: «وقد جاءت الوصيّة الصّريحة بهم في عدّة أحاديث، منها حديث: إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي الثقلين، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه آخرون. ولم يصب ابن الجوزي في إيراده في العلل المتناهية، كيف! وفي صحيح مسلم وغيره...»(١).

وقال الحافظ السّخاوي: «قد جاءت الوصيّة الصريحة بأهل البيت في غيرها من الأحاديث، فعن سليمان بن مهران الأعمش...» إلى آخر عبارته(٢).

وقال الحافظ السّمهودي: «الذكر الرابع: في حثّه صلّى الله عليه وآله وسلّم الأمة على التمسّك بعده بكتاب ربّهم، وأهل بيت نبيّهم، وأن يخلفوه فيهما بخير، وسؤاله من يرد عليه الحوض عنهما، وسؤال ربّه عزّوجلّ الأمة كيف خلفوا نبيّهم فيهما، ووصيّته بأهل بيته، وأنّ الله تعالى أوصاه بهم...»(٣).

وفي لسان العرب: «وفي حديث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: أوصيكم بكتاب الله وعترتي»(٤).

الموضع الرابع: حين مرضه الذي توفي فيه في جمع من الناس الذين حضروا في غرفته، سمط النجوم العوالي ٢ / ٥٠٢، كشف الأسرار ٣ / ٢٢١، الصواعق المحرقة: ٩٨.

(١) الصواعق المحرقة ٢ / ٦٥٢.

(٢) استجلاب ارتقاء الغرف ١ / ٣٣٦.

(٣) جواهر العقدين: ٢٣١.

(٤) لسان العرب ١١ / ١٣٧.

التصريح بالوصيّة في حديث الدّار

فإنّ الأحاديث الواردة في أنّ الأئمّة أوصياؤه ـوخاصّةً ما ورد صريحاً في وصاية أمير المؤمنين بلفظ الوصاية وما بمعناها ـ كثيرة، ولعلّ من أشهرها قوله في السّنين الأولى من بعثته، في يوم الإنذار لمّا نزل عليه قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(١).

إنه قال مخاطباً لرجال عشيرته الذين دعاهم ليعرض عليهم الدين ويبلّغهم ما أُمر به من الإيمان بالله وبرسالته:

«أيّكم يكون أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم من بعدي».

وهذه رواية المتقي عن جماعةٍ من الأئمّة:

«عن عليٍّ، قال: لَمَا نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعاني رسول الله فقال: يا عليّ، إنّ أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنّي مهما أُناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُّ عليها، حتى جاءني جبريل فقال: يا محمّد، إنّك إنْ لم تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك.

فاصنع لي صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واجعل لنا عُسّاً من لبن، ثم اجمع لي بني عبدالمطّلب حتى أُكلّمهم وأُبلّغ ما أُمرت به.

ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعبّاس وأبو لهب، فلمّا وضعته

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

تناول النبيّ جشب حزبة من اللّحم، فشقّها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال: كلوا بسم الله.

فأكل القوم حتى نهلوا عنه، ما نرى إلّا آثار أصابعهم، والله إن كان الرّجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدّمت لجميعهم.

ثم قال: إسقِ القوم يا علي، فجئتهم بذلك العسّ، فشربوا منه حتّى رووا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل منه ليشرب مثله.

فلمّا أراد النبيّ أن يكلّمهم بَدرَه أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم. فتفرّق القوم، ولم يكلّمهم النبيّ.

فلمّا كان الغد فقال: يا عليّ، إنّ هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول، فتفرّق القوم قبل أنْ أُكلّمهم، فعد لنا مثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب، ثم اجمعهم لي.

ففعلت ثم جمعتهم. ثم دعاني بالطعام فقرّبته ففعل به كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا، ثم تكلّم النبيّ فقال:

يا بني عبدالمطّلب، إنّي ـ والله ـ ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أنْ أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على أمري هذا؟

فقلت ـ وأنا أحدثهم سنّاً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً ـ أنا يا نبيّ الله، أكون وزيرك عليه.

فأخذ برقبتي فقال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لِعَليّ.

ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل»[١].

فأنت ترى أنّه دعا إلى توحيد الله وإلى رسالته وإلى الإمامة والخلافة من بعده لعلي، منذ اليوم الأوّل من دعوته العلنيّة....

من أحاديث الوصيّة

وقال صلّى الله عليه وآله في حديثٍ له مع سلمان:

«يا سلمان، من كان وصي موسىٰ؟

قال: يوشع بن نون.

قال صلّى الله عليه وآله: فإن وصيي ووارثي عليُّ بن أبي طالب عليه السّلام[٢].

وقد روىٰ هذا الحديث أحمد بن حنبل، فلو كان كاذباً في روايته فهو أمر لا يعنينا، بل يعني اولئك الذين يتّبعون إماماً كاذباً، لكنّ الحديث ليس كذباً، بل إن القوم يحاولون التهرّب من الحقيقة التي هي كالشمس في رابعة النهار، فالحديث صحيح، والنبي صلّى الله عليه وآله ـ وتنفيذاً للخطّة الإلهيّة التي اتبعها في تركيز ثقافة وجود وصيٍّ بعده في الأذهان والتعريف به ـ جعل يكرّر هذا المعنى في مواضع ومناسبات مختلفة، ومن ذلك قوله:

«لكلّ نبيٍّ وصيّ ووارث، وإن عليّاً وصيي ووارثي»[٣].

---

(١) كنز العمّال ١٣ / ١٣٣.

(٢) شواهد التنزيل ١ / ٩٩، مجمع الزوائد ٩ / ١١٣، فضائل الصحابة (احمد بن حنبل) ٢ / ٦١٥، المعجم الكبير ٦ / ٢٢١، ميزان الاعتدال ٤ / ٢٤٠، مناقب علي بن أبي طالب (ابن مردويه): ١٠٣.

(٣) المعجم الكبير ٦ / ٢٢١، وتاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٩٢، ومناقب عليّ بن أبي طالب (ابن مردوديه): ١٠٣، فتح الباري ٨ / ١١٤.

وأخرج أحمد والطبراني قول النبي صلّى الله عليه وآله:

«يا فاطمة، نبيّنا أفضل الأنبياء وهو أبوك، ووصيّنا خير الأوصياء وهو بعلك»[١].

وكذلك قال صلّى الله عليه وآله:

«إنّ وصيي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي ويقضي دَيني علي بن أبي طالب».

رواه الطبراني وابن كثير والهيثمي صاحب مجمع الزوائد[٢].

وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ

ويقع الكلام في هذه الجملة حول الأُمور التالية:

١ ـ معنى الذرية لغةً وعُرفاً.

٢ ـ كيف صار الأئمّة عليهم السّلام ذريّة رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

٣ ـ لماذا أُضيف «الذريّة» إلى «رسول الله» و«الأوصياء» إلى «نبيّ الله»؟

٤ ـ لماذا استخدم لفظ «ذرية» دون «أولاد»؟

«الذريّة» لغةً

قال ابن فارس:

«ذرّ أصل واحد يدلّ على لطافة وانتشار، ومن ذلك الذّرّ: صغار النمل،

---

(١) أمالي الصدوق: ١٥٥، الطرائف: ١٣٤، بحار الأنوار ٣٧ / ٤٢، مجمع الزوائد ٩ / ١٦٦، ينابيع المودة ١ / ٢٤١.

(٢) المعجم الكبير ٦ / ٢٢١، فتح الباري ٨ / ٩١٤، تهذيب التهذيب ٣ / ٩١، شواهد التنزيل ١ / ٩٨، كنز العمال ١١ / ٦١٠.

الواحدة ذرّة... ومن الباب ذرّت الشمس ذروراً إذا طلعت، وهو ضوء لطيف منتشر»[١].

وهو كلام ظريف يتذوّقه أهل الدّقة، مما يعطينا خصوصيتين:

الاولىٰ: اللّطافة والصِّغر.

الثانية: الانتشار.

أقول: المعنىٰ الذي تشتمل عليه كلمة الذرية، لا تعطيه كلمة الأولاد، مهما بدت الكلمتان مترادفتين، وهو ما أوضحه الراغب في مفرداته بما نصّه:

«الذريّة أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان يقع على الصّغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع. قال تعالىٰ: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ**﴾[٢].

وقال: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ**﴾[٣].

وقال: ﴿**إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰامًا قٰالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾[٤].

فالذريّة ـ بناءً على ذلك ـ أخصّ من الأولاد.

كما أن الظّاهر تبادر الأولاد مع الفصل من لفظ «الذريّة»، وكلّما زادت الفاصلة وجد المصداق تطابقاً أكثر.

فظهر أخصيّة «الذريّة» من «الأولاد» من جهتين.

والظاهر أنه لا يعتبر في «الذريّة» صغر السنّ، فمن الممكن أن يعمّر الحفيد

(١) معجم مقاييس اللغة ٢ / ٣٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤، المفردات في غريب القرآن: ١٧٨.

أكثر من جدّه، لأن وجود الفصل بينهما هو المصحّح لإطلاق «الذريّة» عليه، ومن هنا قال الراغب:

وإنْ كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف.

الأئمّة أولاد رسول الله وذريّته

وعلى أيّة حالٍ، فإنه لا ريب في أنّ الأئمّة الطاهرين ذريّة رسول الله، كما يشهد به ما رواه الرازي وسيأتي.

وأمّا الشواهد على كونهم أولاده وأبنائه، فلا تحصى ومن ذلك: قضيّة المباهلة: قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَأَبْنٰاءَكُمْ وَنِسٰاءَنٰا وَنِسٰاءَكُمْ وَأَنْفُسَنٰا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَى الْكٰاذِبينَ﴾[١].

قال الزمخشري: «وروي أنّهم لمّا دعاهم إلىٰ المباهلة قالوا: حتّىٰ نرجع وننظر، فلمّا تخالوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: يا عبدالمسيح! ما ترىٰ؟

فقال: والله لقد عرفتم ـ يا معشر النصارىٰ ـ أنّ محمّداً نبيّ مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيّاً قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لنهلكنّ، فإن أبيتم إلّا إلف دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلىٰ بلادكم.

فأتىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمّنوا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

فقال أُسقف نجران: يا معشر النصارىٰ! إنّي لأرىٰ وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض نصرانيّ إلىٰ يوم القيامة.

فقالوا: يا أبا القاسم! رأينا أن لانباهلك، وأن نقرّك علىٰ دينك ونثبت علىٰ ديننا.

قال: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم. فأبوا.

قال: فإنّي أُناجزكم.

قالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك علىٰ أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا، علىٰ أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حُلّة، ألف في صفر وألف في رجب، وثلاثين درعاً عاديّة من حديد.

فصالحهم علىٰ ذلك، وقال: والذي نفسي بيده، إنّ الهلاك قد تدلّىٰ علىٰ أهل نجران، ولو لاعنوا لمُسخوا قردةً وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتىٰ الطير علىٰ رؤوس الشجر، ولما حال الحول علىٰ النصارىٰ كلّهم حتّىٰ يهلكوا[1].

والأحاديث في أن:

الحسن والحسين ابناي...[2].

وكذا:

---

(١) الكشّاف ١ / ٣٦٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٨١، بحار الأنوار ٣٣ / ١٨٤.

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة ولداي...[١].

كثيرة جدّاً....

الإمام الكاظم وهارون

وفي كتاب الإحتجاج في حديثٍ قال هارون للإمام موسى بن جعفر عليه السّلام:

لِمَ جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو عليّ، وإنّما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنّما هي وعاء، والنبيّ جدّكم من قبل أُمّكم.

فقلت: يا أميرالمؤمنين، لو أنّ النّبيّ نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟

قال: سبحان الله، ولم لا أجبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك؟

فقلت له: لكنّه لا يخطب إليّ ولا أُزوّجه.

فقال: ولم؟

فقلت: لأنّه ولدني ولم يلدك.

فقال: أحسنت يا موسى! ثمّ قال: كيف قلتم إنّا ذريّة النّبيّ والنّبيّ لم يعقّب، وإنّما يعقّب الذكر لا الأُنثى، وأنتم ولد الإبنة ولا يكون ولدها عقباً له؟

فقلت: أسألك بحقّ القرابة والقبر ومن فيه، إلّا أعفيتني عن هذه المسألة.

فقال: لا أو تخبرني بحجّتكم فيه يا ولد علي! وأنت يا موسى يعسوبهم، وإمام زمانهم، كذا أُنهي إليّ، ولست أعفيك في كلّ ما سألتك عنه، حتّى تأتيني فيه بحجّة

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤ / ١٧٩.

من كتاب الله، وأنتم تدّعون معشر ولد علي أنّه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم، واحتججتم بقوله عزّوجلّ: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت: تأذن لي في الجواب؟

قال: هات.

فقلت: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟

فقال: ليس لعيسى أب.

فقلت: إنّما أحلقناه بذراري الأنبياء عليهم السّلام من طريق مريم عليها السّلام، وكذلك ألحقنا بذراري النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من قبل اُمّنا فاطمة.

أزيدك يا أمير المؤمنين؟

قال: هات.

قلت: قول الله عزّوجلّ: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ ولم يدّع أحد أنّه أدخله النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السّلام وفاطمة، والحسن والحسين؛ أبناءنا: الحسن والحسين، ونسائنا: فاطمة، وأنفسنا: عليّ بن أبي طالب عليه السّلام.

على أنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ جبرئيل قال يوم اُحد: «يا محمّد إنّ هذه

لهي المواساة من علي». قال: «لأنّه منّي وأنا منه». فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله ثمّ قال: لا سيف إلّا ذوالفقار ولا فتى إلّا علي، فكان كما مدح الله عزّوجلّ به خليله عليه السّلام إذ يقول: ﴿قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ﴾ إنّا نفتخر بقول جبرئيل أنّه منّا.

فقال: أحسنت يا موسى!...»[١].

إباء النواصب عن قبول الحقيقة

ولكنّ النواصب لا يتحمّلون هذه الحقيقة، فقد روى الشيخ الكليني عن أبي الجارود أنه قال له الإمام أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام:

يا أبا الجارود! ما يقولون لكم في الحسن والحسين؟

قلت: ينكرون علينا أنّهما ابنا رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قال: فأيّ شيء احتججتم عليهم؟

قلت: احتججنا عليهم بقول الله عزّوجلّ في عيسى بن مريم عليهما السّلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دٰاوُدَ وَسُلَيْمٰانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىٰ وَهٰارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيّٰا وَيَحْيىٰ وَعِيسىٰ﴾.

فجعل عيسى بن مريم من ذريّة نوح عليه السّلام.

قال: فأيّ شيء قالوا لكم؟

قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصّلب.

قال: فأيّ شيء احتججتم عليهم؟

قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وآله: ﴿فَقُلْ

---

(١) الإحتجاج على أهل اللّجاج ٢ / ٣٩٢.

تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

قال: فأيّ شيء قالوا؟

قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب «أبناء رجل» وآخر يقول: «أبناؤنا».

قال: فقال أبو جعفر عليه السّلام: يا أبا الجارود! لأعطينّكها من كتاب الله جلّ وتعالى، إنّهما من صلب رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يردّها إلّا الكافر.

قلت: وأين ذلك جعلت فداك؟

قال: من حيث قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾[١] الآية... إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ فسلهم يا أبا الجارود! هل كان يحلّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه[٢].

قضيّة الحجّاج مع يحيىٰ بن يعمر

وروى الفخر الرازي بذيل قوله تعالى:

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[٣].

عن الشعبي قال: كنت عند الحجاج، فأتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبّلاً بالحديد، فقال له الحجاج:

أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذريّة رسول الله؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) روضة الكافي: ٣١٧ـ٣١٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

فقال: بلى.

فقال الحجّاج: لتأتيني بها واضحة بيّنة من كتاب الله أو لأقطعنّك عضواً عضواً.

فقال: آتيك بها واضحة بيّنة من كتاب الله يا حجاج!

قال: فتعجبت من جرأته بقوله: يا حجّاج!

فقال له: ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾؟!

فقال: آتيك بها واضحة من كتاب الله وهو قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فمن كان أبو عيسى قد ألحق بذريّة نوح؟

قال: فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه فقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله.

حلّوا وثاقة وأعطوه من المال كذا[(١)].

أقول:

وكأن الحجاج قد تعلّم هذا الاعتذار من عمر بن الخطّاب، فإنه أنكر موت النبي صلّى الله عليه وآله وجعل يهدّد من قال ذلك بالقتل، فلما جاء أبو بكر وقرأ الآية المباركة:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[(٢)].

سكت عمر وقال:

كأنّي لم أسمع هذه الآية[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي ٢ / ١٩٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٢ / ١٩٥، الدرر لابن عبدالبر: ٢٧٢، الصراط المستقيم ٣ / ١٨، شرح الأخبار ١ / ١٤٦.

إضافة «الذريّة» إلى «رسول الله»

وفي إضافة «الذريّة» إلى «الرسالة» إشارة إلى أن الأئمّة عليهم السّلام هم السبب لبقاء وانتشار الرسالة المحمّدية، لأن الدين الإسلامي خاتمة الأديان، وهو الدين الباقي إلى يوم القيامة، والنبيّ صلّى الله عليه وآله لم يكتب له البقاء، فلابدّ وأنْ يكون للرسالة الإسلاميّة من حملةٍ ينتشرون في البلاد ويبلّغون الرسالة إلى الناس، وقد عرفت تقوّم لفظ «الذريّة» بـ«الانتشار»، فناسب أنْ يأتي هذا اللّفظ دون الأولاد والأبناء، وأنْ يكون مضافاً إلى «الرسالة» دون «النبوّة»، للفرق الواضح بينهما، وهو أن:

كلّ رسول نبيّ وليس كلّ برسول[1].

وفعلاً، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام انتشروا، وأولادهم وذريّاتهم انتشروا في البلاد، وبواسطتهم بلغت الناس معالم الدين الشّريف ومعارفه وأحكامه، وكان كلّ واحدٍ منهم نجماً يُهتدىٰ به وعلماً يسترشد إلى الحق والصراط المستقيم.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

(١) لسان العرب ١ / ١٦٣.

السَّـــــلاَمُ عَــلَى

الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، وَ الْأَدِلاَّءِ عَـلَى مَـرْضَاةِ

اللَّـــهِ، وَ الْـــمُسْتَقِرِّينَ فِـــي أَمْـرِ اللَّـهِ،

وَ التَّامِّينَ فِي مَـحَبَّةِ اللَّـهِ وَالْـمُخْلِصِينَ

فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْـمُظْهِرِينَ لِأَمْـرِ اللَّـهِ

وَ نَـــهْيِهِ وَ عِـــبَادِهِ الْــمُكْرَمِينَ الَّـذِينَ

لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِـأَمْرِهِ يَـعْمَلُونَ

وَ رَحْـمَةُ اللَّـهِ وَ بَـرَكَـاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ

«الدعاة» جمع «الداعي» كالهداة جمع الهادي والرواة جمع الراوي، وهكذا.

يُفهم من هذه الفقرة أمران:

الأول: إن مقام الداعويّة إلى الله من خصائص الأئمّة عليهم السّلام في أي زمان، وليس لأحدٍ غيرهم حظٌّ في ذلك إلّا منهم. فهم الذين شهدت الوقائع والأحداث بأنهم قد أنقذوا الإسلام وأبناءه من الضلال والإنحراف.

والثاني: إنّ الأئمّة لم يدعوا الناس إلى أنفسهم دون الله، ولم يحدّثنا التاريخ أن ذلك قد بدر منهم أبداً.

والظّاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى قوله تعالى:

﴿**قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾[١].

فعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السّلام أنه قال في هذه الآية:

ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما[٢].

وعن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وآله:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) الكافي ١ / ٤٢٥.

إنّ عليّاً باب الهدى بعدي والداعي إلى ربي، وهو صالح المؤمنين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾[١].

الأئمّة هم الدعاة إلى الله

ولا ريب أن الذين اتبعوه وكانوا الدعاة إلى الله من بعده على بصيرة هم علي وأولاده المعصومون، لأنّ جميع ما اعتبر شرطاً أو وصفاً في الداعي إلى الله فهو موجود فيهم دون غيرهم، فالأُمور التي اشتملت عليها الآيتان المذكورتان، وهي: البصيرة والعمل الصالح واتّباع رسول الله، ما اجتمعت إلّا في أمير المؤمنين والأئمّة من بعده، ولذا قال أبو عبدالله عليه السّلام في الآية:

يعني عليّاً، أوّل من اتّبعه على الإيمان به والتصديق له بما جاء به من عند الله، من الأُمة التي بعث فيها ومنها وإليها، قبل الخلق، ممن لم يشرك بالله قط، ولم يلبس إيمانه بظلمٍ وهو الشرك[٢].

ومن كان مثلهم عليهم السّلام في البصيرة؟ وقد قال الراغب في معنى الكلمة في الآية: أي على معرفةٍ وتحقق[٣].

وكذا في الأعمال الصالحات، فإنّه ما من آيةٍ نزلت وفيها: الذين آمنوا وعملوا الصّالحات... إلّا وعلي وأبناؤه على رأسهم....

لقد قام الأئمّة الأطهار عليهم السّلام بواجب الدعوة إلى الله بأحسن الوجوه وأفضل الطّرق، دعوا كلاًّ من الناس حسب إدراكه ومستوى تفكيره، فكان خطابهم للعالم يختلف عن خطابهم للجاهل، كانوا كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٤ / ٧٩٠.

(٢) الكافي ٥ / ١٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٢٧.

إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أنْ نكلّم الناس على قدر عقولهم[١].

فمخاطبتهم للناس تتلاءم وسعة عقولهم وإدراكهم، وبمقدار استيعاب الفرد يفتحون له نافذةً للهداية إلى الله جلّ وعلا، فمرَّةً عن طريق الاستدلال بآية قرآنيّة، ومرّة بطريقٍ عقليٍّ، ولآخر بالبرهان، وقد يتطلب هداية البعض تقديم العون المادّي، وتأمين احتياجاته المعيشية. فهم عليهم السّلام أدرىٰ بالطريقة الأكثر تأثيراً لهداية أفراد المجتمع.

وقد تحمّلوا سلام الله عليهم أنواع الأذىٰ والمشاق في هذا الطريق الشائك، وصبروا على طول المحنة، وقابلوا الإساءات بالإحسان إلى الحدّ الذي كانوا يحلمون عمّن يتطاول عليهم ويرأفون بمن كان يكيل لهم التهم والسباب في الطرق والأسواق من الجهلة، ما كان يدفعهم إلى منع أصحابهم الذين كانوا يهمّون لردع هؤلاء المسيئين باستخدام القوّة.

من قضايا الأئمّة في سبيل الدعوة إلى الله

عن الفضل بن يونس قال: كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري فانحرف عن التوحيد، فقيل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة. فقال: إن صاحبي كان مخلّطاً، كان يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه. قال: ودخل مكة تمرداً وإنكاراً على من يحج، وكان يكره العلماء مسائلته إياهم ومجالسته لهم لخبث لسانه وفساد سريرته، فأتى جعفربن محمّد عليه السّلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه.

ثم قال له: يا أبا عبدالله، إن المجالس أمانات ولابدّ لكلّ من به سعال أن يسعل

(١) الكافي ١ / ٢٣، أمالي الصّدوق: ٥٠٤.

أفتأذن لي في الكلام؟

فقال أبو عبدالله عليه السّلام: تكلّم بما شئت.

فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر وتلوذون بهذا الحجر وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر وتهرولون هرولة البعير إذا نفر، إن من فكّر في الأمر قد علم أن هذا فعل أسّسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أُسّه ونظامه.

فقال أبو عبدالله عليه السّلام: إن من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه، صار الشيطان وليّه يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله تعالى به خلقه ليختبر به طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته وجعله محلّ أنبيائه وقبلة للمصلّين له، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدّي إلى غفرانه منصوب على استواء الكمال ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دخول الأرض بألفي عام وأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عمّا نهى عنه وزجر، الله المنشئ للأرواح والصّور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبدالله فأحلت على غائب.

فقال: ويلك، وكيف يكون غائباً من هو في خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم، وإنما المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن الملك الديّان، فإنه لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة وأيّده بنصره واختاره لتبليغ رسالاته صدّقنا قوله بأن ربّه بعثه وكلّمه.

فقام عنه ابن أبي العوجاء فقال لأصحابه: من ألقاني في بحر هذا، سألتكم أن تلتمسوا إلي خمرة فألقيتموني إلى جمرة.

قالوا: ما كنت في مجلسه إلا حقيراً؟

قال: إنه ابن من حلق رؤوس من ترون»[١].

* وتلك قضيّة أُخرى له رواها الإمام الحسن بن علي بن محمّد العسكري عليهم السّلام في قول الله عزّوجلّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

فقال: الله هو الّذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلُّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من كلّ من دونه وتقطّع الأسباب من جميع من سواه، تقول: بسم الله أي أستعين على أُموري كلّها بالله الّذي لا تحقُّ العبادة إلّا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي.

وهو ما قال رجل للصّادق عليه السّلام: يا ابن رسول الله دلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني، فقال له: يا عبدالله، هل ركبت سفينةً قطّ؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصّادق عليه السّلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث[٢].

* وتلك قضيّة الإمام الحسن عليه السّلام مع الرجل الشّامي، فقد روى ابن شهرآشوب السروي:

---

(١) علل الشرائع ٢ / ٤٠٣.

(٢) كتاب التوحيد: ٢٣١، معاني الأخبار: ٤.

ومن حلمه ما روى المبرّد وابن عائشة أنّ شامياً رآه راكباً فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلمّا فرغ أقبل الحسن عليه السّلام فسلّم عليه وضحك فقال: أيّها الشيخ أظنّك غريباً، ولعلّك شبّهت؛ فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأنّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً.

فلمّا سمع الرّجل كلامه، بكى ثمّ قال: أشهد أنّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ. وحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبّتهم(١).

* وتلك كلماتهم في حلم الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام:

قال الخطيب البغدادي: وكان سخيّاً كريماً، وكان يسمع عن الرجل ما يؤذيه، فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار(٢).

وقال ابن الجوزي: كان يدعى العبد الصالح، وكان حليماً كريماً، إذا بلغه عن رجل ما يؤذيه بعث إليه بمال(٣).

وقال ابن حجر المكي: سمّي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه(٤).

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ / ١٨٤.

(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٩.

(٣) صفة الصفوة ٢ / ١٨٤.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٢١.

وقال ابن طلحة الشافعي: ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعي كاظماً، وكان يجازي المسئ بإحسانه إليه، ويقابل الجاني بعفوه عنه...[١].

ومن قبيل هذه الإحتجاجات الدالّة على إحاطتهم بالعلوم، والقضايا الدالّة على سعة حلمهم، كثير، أوردته كتب الحديث والتاريخ، فكانت طرق الأئمّة عليهم السّلام في هداية أفراد المجتمع تختلف حسب تركيبتهم الذهنية والاجتماعية والمؤثرات النفسيّة والعقليّة التي يتعاملون معها.

ومن شاء فليراجع كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، وأصول الكافي والاحتجاج للطبرسي وغيرها من المصادر.

ومنه يُعلم مقام وشأنيّة هؤلاء الأئمّة المطهّرين عليهم السّلام في دعوة المجتمعات إلى الله سبحانه وتعالىٰ، وهدايتها وسوقها في الجادة الوسطىٰ والسبيل الحق، وإلّا، فإنّ تحمّل الكلام البذيء والصبر على الاعتداءات والإساءات من قبل الجهلة السفهاء والمغفّلين، ليس بمقدور كلّ شخصٍ غيرهم عليهم السّلام، وهم في محلّ المقدرة والاستطاعة على ردّها وكسب الجولة لصالحهم، إلّا أنهم آثروا الخُلُقَ الذي أراده الله لهم وارتضاه منهم، حتىٰ أثمر هذا الصبر عن هداية اولئك المعتدين المغفّلين الذين تطاولوا عليهم.

فالمدرسة التي أسّسها الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام تجاوزت حدود هداية الأفراد، لتتّسع إلى مستوىٰ هداية الامم والمجتمعات على آختلاف مشاربها ومعتقداتها.

فالآلاف الأربعة من العلماء الذين كانوا يأوون إلى منبره عليه السّلام هم من

---

(١) مطالب السئول: ٤٤٧.

جنسياتٍ مختلفة ومناطق متفاوتة من بقاع العالم الإسلامي آنذاك، وكان كلّ شخص من هؤلاء العلماء التلامذة يرجع إلى قومه حاملاً فكر وتعاليم وعقائد أهل البيت عليهم السّلام، ولو أن الأعداء المتسلّطين آنذاك كانوا قد أمهلوا الأئمّة لكانت الأُمور على غير ما عليه الآن. ومن هنا يتبيّن سبب بقاء ودوام تعاليمهم عبر القرون المتطاولة من التاريخ، وكذلك بسبب ما كانوا يحملونه بين جوانحهم من خصال وخصوصيات النبي الأعظم صلّى الله عليه وآله كاملة عدا النبوة بما جاءه من الخطاب الإلّهي:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذيرًا * وَداعِيًا إِلَى اللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجًا مُنيرًا﴾[1].

فهم ورثته في كلّ المهام الرسالية وهو خاتم الأنبياء.

أساليب الأئمّة في دعوة الناس

وتتلخص اساليب وطرق دعوة الناس حسبما نستفيده من القرآن الكريم في ثلاثة طرق:

١ ـ بالحكمة

٢ ـ بالموعظة

٣ ـ بالمجادلة بالتي هي أحسن

وكلّها وردت في قوله تعالىٰ:

﴿ادْعُ إِلىٰ سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٥ و ٤٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

وقد استخدم الأئمّة عليهم السّلام كلّ واحدٍ من هذه الأساليب الثلاثة في موضعه وبحسب ما يقتضيه الموقف، كما كان حال رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك، وكيف لا يكونون كذلك وقد اختصوا بمقام «ومن اتّبعني» في قوله تعالىٰ:

﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[١].

كما جاء في تفسير الآية عن أبي جعفر عليه السّلام:

ذاك رسول الله صلّى الله عليه واله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما عليهم السّلام»[٢].

إنهم الأئمّة وأهل البصائر الذين تتفتح بفضل نورهم وبركتهم بصائر الناس، فهم سبب كلّ هداية في الوجود، وإليهم تنتهي دعوة كلّ عالم ومفكر إلى الحق والهدىٰ، فالدعوة الحسنىٰ منهم، بما يجعلنا نسجّل الولاء لهم والبراءة من كلّ من سوّلت له نفسه تنصيبها إماماً يدعو لها.

كتاب الحجّاج إلى علماء عصره في القضاء والقدر

وممّا يشهد برجوع الهدايات في الإسلام إلى الأئمّة عليهم السّلام:

ما روي من أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي كتب إلى الحسن البصري، وإلى عمروبن عبيد، وإلى واصل بن عطا، وإلى عامر الشعبي، أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضاء والقدر.

فكتب إليه الحسن البصريّ: إنّ أحسن ما انتهى إليّ ما سمعت أمير المؤمنين

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٣/ ٢١٣.

عليّ بن أبي طالب عليه السّلام أنّه قال: أتظنُّ أنّ الّذي نهاك دهاك؟ وإنّما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذاك.

وكتب إليه عمرو بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: لو كان الزور في الأصل محتوماً كان المزوّر في القصاص مظلوماً.

وكتب إليه واصل بن عطا: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: أيدلّك على الطريق ويأخذ عليك المضيق؟

وكتب إليه الشعبيّ: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: كلّ ما استغفرت الله منه فهو منك، وكلّ ما حمدت الله عليه فهو منه.

فلمّا وصلت كتبهم إلى الحجّاج ووقف عليها قال: لقد أخذوها من عين صافية[١].

وَالْأَدِلاَّءِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ

«الدليل» لغةً

«الأدلاء» جمع «الدليل» كالأخلّاء جمع الخليل ونحوه.

قال الراغب:

الدلالة ما يتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة

---

(١) الطرائف ٢ / ٣٢٩، كنز الفوائد ١ / ٣٦٤، متشابه القرآن ١ / ٢٠١.

الإرشادات والرموز والكتابة والعقود في الحساب...[١].

وقال الفيومي:

الدلالة ـ بكسر الدال وفتحها ـ هو ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، واسم الفاعل: دال، ودليل، وهو المرشد والكاشف[٢].

و«المرضات» مصدر من: رضي يرضى، وهو خلاف السّخط، ورضى الله عن العبد أن يراه مؤتمراً لأمره ومنتهياً عن نهيه.

آياتٌ في «مرضات الله»

إنّ الأئمّة الطاهرين هم الأدلّاء للناس على ما يرضي الله ورسوله، ولو أن الإنسان يتقصّى هداهم ويطبّق تعاليمهم التربوية لَبلَغ مرتبة رضا الله لا محالة، وهو ما دعينا إلى تحصيله والوصول إليه، إذ قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقد أفادت الآية أنّ كسب رضا الله بامتثال أوامره والاجتناب عن نواهيه هو شرط الإيمان، والأئمّة عليهم السّلام هم الأدلّاء على معرفة الله ورسوله، ومعرفة ما أتى به الرّسول ونهى عنه، وهم الأدلّاء على العبادة والطّاعة، وفي ذلك رضى الله الذي هو أكبر النعم والتوفيقات الإلَهية، كما قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٧١.

(٢) المصباح المنير: ١٩٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

وقد وصف رضوان الله ومرضاته بالفوز العظيم في آية أخرى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

وهذا المقام السّامي والشأن الرفيع لا يحصل إلّا بدلالة الأئمّة الطّاهرين ولا يكون إلّا لمن تبعهم واهتدى بهداهم.

ويشهد بذلك أيضاً ما ورد بذيل قوله تعالى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلٰا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

من أن «حزب الله» هم أمير المؤمنين وأتباعه، وقد جاء وصفهم بذلك في أحاديث الفريقين، ففي البرهان:

عن علي بن إبراهيم: قوله تعالى ﴿أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ يعني الأئمّة....

وعن أبي نعيم الإصفهاني بإسناده عن علي قال قال سلمان: ما طلعتُ على رسول الله إلّا وضرب بين كتفي وقال: يا سلمان، هذا وحزبه هم المفلحون(٣).

وعلى الجملة، فإن بلوغ هذه المرتبة يتطلّب الإطاعة والاتباع للنبيّ وآله الأطهار، وإلّا

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لٰا يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ﴾(٤).

وعاقبة الفاسقين النار، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا يَمَسُّهُمُ الْعَذٰابُ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ٢٤ / ٢١٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٤٩.

وهذا ما يعكس جوهر دور الأئمّة عليهم السّلام وتأثيره على أصحاب النّفوس المستعدّة لأن تشملهم هدايتهم وتتوجه إليهم عنايتهم، فيخرجون من حضيض الفسق والتردّي في ظلمات المعاصي، إلى مستوى رضا الباري جلّ وعلا، ولا ينال ذلك إلّا من سلّم لهم تسليماً، فإنّه من هذه المرحلة تبدأ عمليّة الإرتفاء إلى المراحل العالية، حتى يكون أهلاً لأن يُنادى بقوله تعالى:

﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعي إِلىٰ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[1].

ثم يكون ممّن وصف حاله في قوله عزّوجلّ:

﴿فَهُوَ في عيشَةٍ راضِيَةٍ * في جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾[2].

مبيت أمير المؤمنين ابتغاء مرضات الله

وحياة أئمتنا عليهم السّلام كلّها في مرضات الله، وقد وصف الله عزّوجلّ مبيت مولانا أمير المؤمنين على فراش رسول الله في ليلة هجرته بأنه كان ابتغاء مرضات الله، قال تعالى:

﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ﴾[3].

كما ذكر المفسّرون والمحدّثون من الفريقين:

عن علي بن الحسين عليه السّلام في قوله عزّوجلّ: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ﴾ قال: نزلت في علي عليه السّلام حين بات على فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله[4].

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الحاقّة، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٤) بحار الأنوار ١٩ / ٥٤.

وعن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر رضي الله عنه: أن عليّاً وعثمان وطلحة والزبير وعبدالرّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، أمرهم عمر بن الخطاب أن يدخلوا بيتاً ويغلق عليهم بابه ويتشاوروا في أمرهم، وأجّلهم ثلاثة أيام، فإن توافق خمسة على قول واحد وأبىٰ رجل منهم قتل ذلك الرجل، وإن توافقوا أربعة وأبى إثنان قتل الإثنان، فلما توافقوا جميعاً على رأي واحد، قال لهم علي بن أبي طالب:

«إني أحبّ أن تسمعوا منّي ما أقول لكم، فإن يكن حقاً فاقبلوه وإن يكن باطلاً فانكروه».

قالوا: قل.

وذكر فضائله عليه السّلام ويقولون بالموافقة وذكر عليه السّلام في ذلك: «فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ﴾ لمّا وقيت رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلة الفراش غيري؟ قالوا: لا[1].

وروى السيد الرضي بإسناد مرفوع قال: قال ابن الكوا لأمير المؤمنين: أين كنت حيث ذكر الله نبيّه وأبا بكر فقال: ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا﴾.

فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: «ويلك يابن الكوا، كنت على فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد خرج عليّ ريطته، فأقبلت قريش مع كلّ رجل منهم هراوة فيها شوكها، فلم يبصروا رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث خرج، فأقبلوا عليّ يضربونني بما في أيديهم حتى تنفط جسدي وصار مثل البيض، ثم انطلقوا

(١) أمالي الطوسي: ٥٥١، إرشاد القلوب ٢ / ٢٦٢، بحار الأنوار ٣١ / ٣٨٠.

يريدون قتلي، فقال بعضهم: لا تقتلوه الليلة ولكن أخّروه واطلبوا محمّداً.

قال: فأوثقوني بالحديد وجعلوني في بيت واستوثقوا مني ومن الباب بقفل، فبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً من جانب البيت، يقول: يا علي، فسكن الوجع الذي كنت أجده وذهب الورم الذي كان في جسدي، ثم سمعت صوتاً آخر، يقول: يا علي، فإذا الحديد الذي في رجلي قد تقطع، ثم سمعت صوتاً آخر يقول: يا علي، فإذا الباب قد تساقط ما عليه وفتح، فقمت وخرجت، وقد كانوا جاؤا بعجوز كَمْهَاءَ لا تبصر ولا تنام تحرس الباب، فخرجت عليها وهي لا تعقل من النوم»[1].

وعن عمار بن ياسر، وذكر حديث مهاجرة النبي صلّى الله عليه وآله إلى المدينة ومبيت أميرالمؤمنين عليه السّلام على فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أن قال.

فحدّثنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ونحن.

وعن عمار بن ياسر ـ وذكر حديث مهاجرة النبي صلّى الله عليه وآله إلى المدينة ومبيت أمير المؤمنين عليه السّلام على فراش رسول الله ـ فحدّثنا رسول الله ونحن معه بقباء عما أرادت قريش من المكر به، ومبيت علي عليه السّلام على فراشه قال: «أوحى الله عزّوجلّ إلى جبرائيل وميكائيل عليهما السّلام إني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه فأيّكما يؤثر أخاه؟ وكلاهما كرها الموت، فأوحى الله إليهما عبداي، ألا كنتما مثل وليي علي؟ آخيت بينه وبين محمّد نبيي فآثره الحياة على نفسه ثم ظلّ ـ أو قال: رقد ـ على فراشه يقيه بمهجته، إهبطا إلى الأرض كلاكما فاحفظاه من عدوه، فهبط جبرائيل فجلس عند

---

(١) بحار الأنوار ٣٦/ ٤٣ و ٤٤، خصائص الأئمّة: ٥٨.

رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجعل جبرائيل عليه السّلام يقول: بخٍ بخٍ، من مثلك يابن أبي طالب والله يباهي بك الملائكة؟ قال: فأنزل الله عزّوجلّ في علي عليه السّلام وما كان من مبيته على فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾[١].

نعم، كانت حياتهم في مرضات الله، وكانوا عالمين بما يوجب رضاه وسخطه، وإلّا ما كانوا الأدلّاء على ذلك والمرشدين إليه.

الفرق بين «الداعي» و«الهادي» و«الدليل»

ومما ذكرنا ظهر الفرق بين «الدّعاة» و«الهداة» و«الأدلّاء»، لأن الدّعاء بمعنى النداء، وليس فيه جهة الهداية والدلالة، والهداية وإنْ كان فيها دلالة إلّا أنها أعمّ منها، لأنّ الدلالة كما قال الراغب:

ما يتوصّل به إلى المعرفة الشيء بحيث لا يبقى معها شكٌ أو شبهة، كدلالة الألفاظ على المعاني....

وإنْ كان مفهومها عامّاً من جهة أخرى، كما قال:

سواء كان ذلك بقصدٍ ممّن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسانٍ فيعلم أنه حي[٢].

الأئمّة أدلاء في كلّ الأحوال

لكنّ الأئمّة عليهم السّلام أدلّاء على مرضات الله في كلّ أحوالهم، في حال النطق أو السكوت، في حال القيام أو القعود، في حال كونهم في الحبس أو في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٧١.

حال الغيبة عن الأبصار....

إن وجود الإمام دلالة على مرضاة الله، وهذا شأن من توفّرت فيه ثلاثة جهات:

١ ـ العلم بما يوجب رضا الله والقرب أو سخطه والبعد منه.

٢ ـ كونه حائزاً لأعلى مراتب الرضا والقرب من الله.

٣ ـ العصمة من الخطأ والسّهو والنسيان.

وهذه الجهات لم تجتمع في أحدٍ إلّا في أئمّة أهل البيت، فلا جرم كانوا هم «الأدلّاء على مرضات الله»، وهم المظاهر التامّة لأسمائه الحسنى... وكان أعداؤهم أئمّة الضلال والقادة إلى الردى... قال أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام:

«إن الله خَلَقَنا فأكرم خَلْقنا وفضّلنا وجعلنا أُمناءه وحفظته وخزّانَه على ما في السموات وما في الأرض. وجعل لنا أضداداً وأعداءً، فسمّانا في كتابه وكنّىٰ عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبّها إليه، وسمّىٰ أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنّىٰ عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين»[١].

وفي نصٍّ آخر يقول عليه السّلام:

«نحن أصل كلّ خير، ومن فروعنا كلّ برّ، ومن البرّ التوحيد والصّلاة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير وتعاهد الجار والإقرار بالفضل لأهله، وعدوّنا أصل كلّ شر ومن فروعهم كلّ قبيح وفاحشة»[٢].

---

(١) تفسير كنز الدقائق ١ / ٦١٢، بحار الأنوار ٢٤ / ٣٠٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٤ / ٣٠٢.

وَالْمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ

«الإستقرار» لغةً

«المُستقر» هو الثابت والساكن بأمانٍ واطمئنان.

قال الرّاغب:

قرَّ في مكان يقِرّ قراراً، اِذا ثبت ثبوتاً جامداً[١].

أي: لا تطرأ عليه حالة الانتقال من مكان إلى آخر.

وقوله: «جامد» أي ليس مشتقّاً من شيء و لا يقبل التغيير من هيئة إلى هيئة، فهو هو بنفسه.

ومن هنا عبرّ القرآن الكريم عن الآخرة بـ«دار القرار» لأن أهل الجنّة لا يخرجون منها بل «هم فيها خالدون» قال تعالىٰ في وصف الآخرة:

﴿يٰا قَوْمِ إِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا مَتٰاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دٰارُ الْقَرٰارِ﴾[٢].

وكذلك، أهل النار لا يخرجون منها كما قال في وصف النار:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا وَبِئْسَ الْقَرٰارُ﴾[٣].

إذن، فالشيء المستقرّ يقابله الشيء المتحرّك الذي ليس له قرار.

ومن هذا الباب تقسيم الإيمان إلى قسمين:

١ ـ الإيمان المستقر أي الثابت الذي حكاه القرآن الكريم:

﴿يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٩٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

٢ ـ الإيمان غير الثابت، الذي وصفته الروايات بـ«المستودع». ومصداقه في منطوق الرواية التالية:

«... يصبح الرجل على شريعة من أمرنا، ويمسي وقد خرج منها، ويُـمسي على شريعة من أمرنا، ويصبح وقد خرج منها»(١).

من جانب آخر يأتي الاستقرار على نوعين:

١ ـ الاستقرار الجسمي: وهو ما يرتبط بحركة البدن، كأن يقصد الانسان في حركته الرجوع إلى وطنه أو مقرّه الأصلي، حتىٰ إذا ما وصل كنّ واستقرّ.

٢ ـ الاستقرار الروحي: وهو اطمئنان الإنسان روحيّاً وفكـريّاً تـجاه أمـر أو قضيّة معيّنة، بحيث لا يتزحزح ولا يضطرب ولا يتغير حاله تجاهها.

ما المقصود «بأمر الله»؟

ويفسّر الأمر ـ من خلال الكتب اللّغوية والعلميّة ـ بمعنيين:

١ ـ الأمر الذي يقابل النهي.

٢ ـ الإرادة.

فكونهم عليهم السّلام «المستقرّين في أمر الله» علىٰ المعنىٰ الأوّل، هو أنهم مطيعون لأحكامه ومسلّمون لأوامره ونواهيه، فهم ثابتون على الطاعة والعبودية له، فلا يخالفون ولا يزيدون ولا ينقصون، فهم ثابتون على أوامر الله وكذا نواهيه، كما لو قيل عن زيد: إنه ثابت في أمر والده، فإن المقصود كونه مسلّماً تمام التسليم والاستسلام أمام والده في أوامره ونواهيه، لا يتوانى في تنفيذها كاملةً عن طوع ورغبة.

---

(١) كتاب الغيبة للنعماني: ٢١٤، مسند أحمد بن حنبل ٣ / ٤٥٣، صحيح مسلم ١ / ٧٦.

إلّا أن هذا المعنىٰ في الأئمّة عليهم السّلام أسمىٰ من ذلك؛ كما سيأتي توضيحه تفصيلاً في شرح «والمظهرين لأمر الله ونهيه» إن شاء الله عزّوجلّ.

لكنّ ما يستدعي الدقّة في جملة «والمستقرّين في أمر الله» هو تعدية مادّة الاستقرار بـ«في» الموضوعة في اللغة للظرفية، فالأئمّة مستقرّون في أمر الله، لا يزولون عنه ولا يتحوّلون، وهذا يقتضي أن يكون المراد هو المعنى الثاني للأمر أعني: الإرادة، فيكون المعنى: إنّ الأئمّة ثابتون في إرادة الله. وبعبارة أُخرى: هم مظاهر الإرادة الربّانيّة، فكأنّ إرادته سبحانه ظرفٌ والأئمّة مستقرّون في هذا الظرف؛ ثابتون فيه ولا ينفكّون عنه. وحاصل ذلك: محو إرادتهم في الإرادة الربّانية، وأنّهم لا يشاءون إلّا ما شاء الله... وأين هذا المعنى من ذاك!

وقد تكرّر ذكر هذا المفهوم في الزيارة الجامعة، فسيأتي فيها: «العاملون بإرادته».

كما ورد في غير واحدٍ من الأدعية والزيارات المأثورة عنهم، كالزيارة الرجبيّة، إذ جاء فيها:

«إرادة الربّ في مقادير أُموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم»[١].

وفي زيارة الإمام الحجة عليه السّلام، نقول:

«ودليل إرادته»[٢].

---

(١) الكافي ٤ / ٥٧٧.

(٢) المزار لابن المشهدي: ٥٦٩، بحار الأنوار ٩١ / ٢.

وَالتَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ

«التمام» لغةً

«التام» هو البالغ حدّ النهاية، قال الراغب:

تمام الشيء: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه[١].

وهذا التعبير أدقُ من تفسير بعضهم «التمام» بـ«الكمال»، لأنّ كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كمل ذلك، فمعناه: حصل ما هو الغرض منه[٢].

فمثال التمام: أنْ يمتلئ الإناء بالماء، بأنْ لا يبقى فيه فراغ.

ومثال الكمال: أنْ تصل الثمرة إلى حدّ النضج.

وفي مقابل التمام والكمال: النقص.

«المحبّة» لغة

و«المحبّة» معناها واضح، وهو متقوّم بالمحبّ والمحبوب، فما معنى محبّة الله؟

قال الطريحي: وأما محبّة العبد لله تعالى، فحالة يجدها في قلبه يحصل منها التعظيم وإيثار رضاه والاستيناس بذكره[٣].

وقال الراغب: محبّة العبد له طلب الزّلفى لديه[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٧٥.

(٢) المصدر: ٧٢٦.

(٣) مجمع البحرين ٢ / ٣١.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٢١٥.

أقول:

إنّ المحبّة محلّها القلب، وهي على أوجه:

فقد تحبّ الشخص أو الشيء للذّةٍ، وقد تحبّه لنفعٍ يعود إليك منه، وقد تحبّه لا لهذا وذاك، وإنما لشيء من الكمال موجودٍ فيه، كحبّك للعالم لأجل العلم....

محبّة الأئمّة لله غير معلّلة

ولقد كانت محبّة الأئمّة لله غير معلّلةٍ، وقد امتلأت قلوبهم بمحبّته ووصلت حدّ التمام ولم يبق فيها مجالٌ لشيء آخر....

لقد كانت محبّتهم له كعبادتهم له، إذ قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[١].

لقد أخذ حبّ الله بمجامع قلوبهم حتى قال الإمام السجّاد زين العابدين:

...إلَهي وسيّدي، وعزّتك وجلالك... لئن أدخلتني النار لأُخبرنّ أهل النار بحبّي لك...[٢].

وقال عليه السّلام:

«إلَهي، لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحُلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ١٧٦.

(٢) الإقبال: ٧٥، البلد الأمين: ٢١٢.

(٣) مصباح المتهجّد: ٥٩١، إقبال الأعمال ١ / ١٦٧.

ثمّ إنّ محبّة سائر الناس لله إنما تعطي ثمرها ويظهر أثرها ـ وهو الزّلفى لديه والقرب منه ـ بالعمل على كسب رضاه وإيثاره على هواه، وبالمداومة على تعظيمه وعبادته، والاستيناس بذكره، فإنّ المحبّة أشبه شيء بالسّلم في الوصول إلى المحبوب، فمن أراد ذلك وجب عليه أن يرتقي الدرجات ويتقدّم شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى المرتبة التي تليق بحاله من القرب الإلّهي.

يشترط تصديق المحبوب

لكنّ ذلك لا يتحقّق بالسير من طرف المحبّ بل يشترط القبول والإقبال من طرف المحبوب أيضاً، ولولا تصديق المحبوب لدعوى المحبّ، وتوفيقه على التوجّه إليه، وتأييده في الحركة نحوه، لذهب سعي المحبّ أدراج الرّياح، ولذا ورد في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال:

إذا أحبّ أحدكم صاحبه أو أخاه فليُعلمه[١].

وذلك، لأنّه إذا أعلمه أحبّه صاحبه، وإذا تحقّق الحبّ من الجانبين حصل المقصود وترتب الأثر المطلوب.

ومن هنا جاء في الخبر:

عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السّلام، فأتاه رجل فسلّم عليه ثمّ قال: يا أمير المؤمنين إنّي والله لأحبّك في الله وأحبّك في السرّ كما أحبّك في العلانيّة، وأدين الله بولايتك في السرّ كما أدين بها في العلانيّة، وبيد أمير المؤمنين عليه السّلام عود فطاطأ به رأسه ثمّ نكت بعوده في الأرض ساعة ثمّ رفع رأسه إليه فقال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله حدّثني بألف حديث لكلّ

---

(١) كتاب المحاسن ١/ ٢٦٦، بحار الأنوار ٧١/ ١٨٢.

حديث ألف باب، وإن أرواح المؤمنين تلتقي في الهواء فتشامّ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. ويحك، لقد كذبت، فما أعرف وجهك في الوجوه ولا اسمك في الأسماء.

قال: ثمّ دخل عليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي أحبّك في الله، وأحبّك في السرّ كما أحبّك في العلانيّة، وأدين الله بولايتك في السرّ كما أدين الله بها في العلانية قال: فنكت بعوده الثانية ثمّ رفع رأسه إليه فقال له: صدقت إنّ طينتنا طينة مخزونة أخذ الله ميثاقها من صلب آدم فلم يشذّ منها شاذّ، ولا يدخل منها داخل من غيرها، إذهب واتّخذ للفقر جلباباً[١].

وعليه، فإن دعوى الحبّ لأهل البيت لا تنتج النتيجة المطلوبة ما لم يُقابَل بالتصديق من طرفهم بمحبّتهم له، وحينئذٍ لابدّ من أن نفكّر في أن حبّهم للأشخاص اعتباطي أو له شروط؟!

حديث الرّاية وحبّ الله عليّاً

أما حبّهم لله وحبّ الله لهم، هذا الحبّ المتبادل المنقطع النظير، فقد شهد به الله ورسوله، وشهد به أعداؤهم والمخالفون لهم أيضاً، ورووا الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك....

ومن تلك الأحاديث ما ورد في يوم خيبر، فإنه ـ بعد أن أعطى رسول الله صلّى الله عليه وآله أبابكر الرّاية، فذهب بها ورجع منهزماً، ثم أعطاه عمر، فرجع منهزماً ـ قال في اليوم الثالث:

سأعطي الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير

(١) بصائر الدرجات: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٥ / ١٤.

فرار، يفتح الله عليه يديه....

فبات الناس طيّبةً أنفسهم أن الفتح يكون غداً، وكلٌّ يريد أنْ يعطى الراية ويرجو أن يكون الفتح على يده، فلما كان الغد تصادر لها أبو بكر وعمر، لكن النبي صلّى الله عليه وآله دعا عليّاً، فقيل له: إنه أرمد، فأرسل إليه فأتي به، فبصق صلّى الله عليه وآله في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الرّاية، ففتح الله على يديه(١).

نعم، لقد كانوا «تامّين في محبّة الله» وعلى رأسهم أمير المؤمنين، وبه فسّر قوله تعالى «والقوم الذين يحبّهم الله ويحبّونه» في الآية المباركة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٢).

ففي مجمع البيان: قيل: هم أمير المؤمنين علي وأصحابه، حين قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين. وروي ذلك عن عمّار وحذيفة وابن عباس، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله.

قال: وروي عن علي أنه قال يوم البصرة: والله، ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم، وتلا الآية المذكورة(٣).

وزعم بعض المفسرين من أهل السنة أنها في أبي بكر، لحربه المرتدين بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله(٤).

---

(١) هذا مجمل حديث الرّاية، وهو في الصحيحين والسنن والمسانيد وسائر كتب الحديث والسيرة وتراجم الصحابة، ولنا فيه رسالة موجزة منتشرة في (سلسلة إعرف الحق تعرف أهله) الرقم (١٧).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٣) الإفصاح في الإمامة: ١٢٥، مناقب آل أبي طالب ٣ / ٤٨، تفسير العياشي ٢ / ٧٩.

(٤) تفسير الطبري ٦ / ٣٨٢، القرطبي ٦ / ٢٢٠، الرازي ١٢ / ١٨.

وقد فندنا هذه المزعمة في بحوثنا وأثبتنا نزولها في أمير المؤمنين والأئمّة الطاهرين والحواريين من أصحابهم، لأنّ عليّاً عليه السّلام هو الذي «يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله» في حديث خيبر، وليس أبا بكر ولا غيره.

ومن الشواهد عليه حديث الطّير المشويّ....

فإنّ النبي صلّى الله عليه وآله أُتي بطائر مشوي ليأكله، فدعا قائلاً: اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك وإليّ يأكل معي من هذا الطائر فجاء علي ودقّ الباب، فقال أنس: من هذا؟ قال: علي، فقال: النبيّ على حاجة فانصرف، وكان رسول الله ما يزال يدعو، فجاء علي فدقّ الباب، فقال أنس: من هذا؟

قال: علي، قال: إن رسول الله على حاجة....

وأخرج النسائي: أن أبا بكر وعمر وعثمان أتوا، فردّهم أنس.

لكنّ عليّاً جاء للمرّة الثالثة، ورفع صوته، فقال رسول الله: أدخله، فدخل علي، فقال رسول الله: لقد سألت الله ثلاثاً أنْ يأتني بأحبّ الخلق إليه وإليّ، فما أبطأ لك يا علي؟ فقال علي: وأنا يا رسول الله، لقد جئت ثلاثاً كلّ ذلك يردّني أنس، فقال رسول الله: يا أنس، ما حملك على ما صنعت؟ قال: أحببت أن تدرك الدعوة رجلاً من قومي...[1].

(١) هذا مجمل حديث الطير، وله أسانيد معتبرة في الأسفار المهمة المعتبرة لأهل السنّة، ولنا فيه رسالة مفردة منتشرة في سلسلة (إعرف الحق تعرف أهله) الرقم (٣٤). ومن شاء التفصيل فليرجع إلى (نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار) الجزء: ١٣.

السرّ في إضافة «المحبة» إلى لفظ «الجلالة»

ولعلّ السرّ في إضافة «المحبة» إلى لفظ الجلالة «الله» دون غيره من أسمائه عزّوجلّ، هو أنّ لفظ الجلالة علم للذات المستجمعة لجميع صفات الكمال كما قال العلماء، ولمّا كان الأئمّة عليهم السّلام هم «التامّين» في محبّة المحبوب المستجمع لجميع صفات الكمال، فإنه يقتضي أنْ تكون ذواتهم المقدّسة في أعلى مراتب الكمال.

وَ الْمُخْلِصِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ

في كلمة «المخلصين» وجهان:

يمكن أن تكون بفتح اللّام، فالجملة إشارة إلى قوله تعالى:

﴿**إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[١].

ويمكن أن تكون بكسر اللّام، فهي إشارة إلى قوله تعالى:

﴿**وَمٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[٢].

وفي كلتا الآيتين ذكر العبادة....

و«الإخلاص» مصدر «خلص» قال في مجمع البحرين: والخالص في اللّغة كلّما صفى وتخلّص ولم يمتزج بغيره...[٣].

فمن تخلص معرفته بالله ويخلص عبادته له ويصفّيها من كلّ أنواع

---

(١) سورة الصّافات، الآية: ٤٠.

(٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.

(٣) مجمع البحرين ٤ / ١٦٩.

الشوائب، يخلصه الله لنفسه، فيكون مخلِصاً ومخلَصاً.

ومن الواضح جدّاً أنّ العبادة فرع المعرفة، والمعرفة أساس الدين، قال أمير المؤمنين:

أوّل الدين، معرفته.

وكمال معرفته، التصديق به.

وكمال التصديق به، توحيده.

وكمال توحيده، الإخلاص له.

وكمال الإخلاص له، نفي الصّفات عنه[١].

الإخلاص في العبادة

فمن العبادة الخالصة لله عن المعرفة الصّحيحة يصل العبد إلى مرتبة المخلَصين، يستخلصه الله لنفسه، ولذا اعتبرت النيّة في العبادات وخلوصها من كلّ شائبة، واستدلّ لذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢].

فيعتبر في العمل العبادي تجريده بشكل مطلق من كلّ ما سوى الله.

ثم إنّ الظاهر أن تكون «في» ـ بناءً على قراءة فتح اللّام ـ سببيّة، كما في الحديث المرويّ: «إنّ امرأةً دخلت النار في هرّة قتلتها»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١.

(٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.

(٣) جامع المقدمات ١ / ٤٩٩.

الإخلاص في التوحيد

وما بلغ أحد مرتبة النبيّ وآله في توحيد الله، ومنهم تعلّم الناس ذلك كما تعلّموا منهم العبادة والطّاعة والإخلاص فيها، لكنّ للمراتب الدانية عنها أيضاً آثار وبركات، إلّا أن على المؤمن أن يسعى من أجل الوصول إلى ما جاء في الحديث عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: قال الله عزّوجلّ: من أهان لي وليّاً فقد أرصد لمحاربتي، وما تقرّب إليّ عبد بشيءٍ أحبّ إليّ مما افترضت عليه. وإنه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتىٰ أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها. إنْ دعاني أجبته وإن سألني أعطيته. وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله كترددي عن موت المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته»[١].

وهذه من الأُمور الواقعيّة التي لا تحتاج إلى سند، يحصل عليها السّائرون في هذا الطريق، والرسول والأئمّة عليهم السّلام على رأسهم، وقد ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنة أيضاً[٢].

وعلّق عليه النووي شارح صحيح مسلم ورتّب عليه آثاراً مفيدة، حيث نقل عن الحافظ القاضي عياض المالكي ما نصّه:

«ومحبّة الله تعالىٰ لعبده تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وتيسير ألطافه وهدايته وإفاضة رحمته عليه. هذه مباديها، وأما غايتها، فكشف الحجب عن قلبه

---

(١) الكافي ٢ / ٣٥٢، المحاسن ١ / ٢٩١، وسائل الشيعة ٤ / ٧٢، بحار الأنوار: ٢٢٦٧.

(٢) صحيح البخاري ٧ / ١٩٠، السنن الكبرىٰ ١٠ / ٢١٩.

حتىٰ يراه ببصيرته، فيكون كما قال في الحديث الصحيح: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[١].

فإذا كان الإنسان العابد وبسبب عبوديّته وطاعته للباري تعالى يصل إلى مرتبة يصفها سبحانه: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، فما ظنّك بالأئمّة الطاهرين عليهم السّلام، الذين عرفوه وعبدوه حق عبادته، وأطاعوه حق طاعته، وأخلصوا في توحيده بجميع جوانب التوحيد ـ الذاتي والصفاتي والأفعالي والعبادي ـ فكانوا حقاً «صفوة الله» الذين اصطفاهم لنفسه، وأودعهم مواريث الأنبياء، وجعلهم خلفاءه في الأرض.

وَالْمُظْهِرِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ

«الظهور» يقابل «الخفاء»، كما أنّ «الشهود» يقابل «الغيبة».

و«أمر الله ونهيه» أي: الأحكام الشّرعيّة الإلَهيّة.

طرق إظهارهم أحكام الله

فالأئمّة هم المظهرون للأحكام الشرعيّة، ومنهم يجب أن يؤخذ وإليهم يجب أنْ يرجع فيها كما يرجع في غيرها، فإنهم هم المصدر لكلّ الحقائق الدينيّة: قال أبو عبدالله الصّادق عليه السّلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة:

شرّقا أو غرّبا، فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً صحيحاً خرج من عندنا أهل البيت[٢].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥ / ١٥١.

(٢) وسائل الشيعة ١٨ / ٢٦.

فالأئمّة هم الواسطة بين الله ورسوله والأُمّة الإسلاميّة في الأحكام الإلَهيّة، من الحلال والحرام وغيرهما من الأحكام، لوضوح أن خفاء الشيخ لا يرتفع إلّا برفع الستار عنه والإطّلاع عليه، فالأوامر والنواهي الإلَهيّة يتحقّق الكشف عنها والتعرف عليها بالأئمّة وهم المظهرون لها.

إنّه وإنْ كانت أُصول الأحكام موجودةً في الكتاب والسنّة، إلّا أنّ الأئمّة عليهم السّلام هم المنصوبون لتبيين مجملاتها وتقييد مطلقاتها، وقد قاموا بدورهم في هذا الباب خير قيامٍ، وأخذت الأُمّة منهم الأحكام بطرق:

أحدها: بالسّماع منهم مباشرةً، فقد علّموا الناس آحاداً أو جماعات، وعقدوا جلسات الدّرس، وبيّنوا الأحكام إمّا ابتداءً وإمّا جواباً على السؤال. ومن الأحكام ما بيّنوه مكتوباً في جواب المكاتبات، حيث أن بعض الرّواة لم يمكنهم الحضور عند الإمام والسؤال منه مباشرةً، فكانوا يكتبون الأسئلة وتأتيهم الأحكام في أجوبة الإمام عليه السّلام.

والثاني: بالإقتداء بأعمالهم، فكم من تكليفٍ من التكاليف الشرعيّة علّموه للناس عملاً؟ فكانوا كجدّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله القائل:

صلّوا كما رأيتموني أُصلّي[١].

والثالث: بالنظر إلى تقريرهم للعمل الواقع في حضورهم وبمشهدٍ منهم، مع قدرتهم على الرّدع عنه، ففي هذه الحالة يكون العمل الذي قرّره حكماً من الأحكام الإلَهيّة.

فالأئمّة عليهم السّلام بلّغوا أمر الله ونهيه بأقوالهم وأفعالهم وبتقريرهم، ولذا كانت «السنّة» في الشريعة الإسلاميّة: قول وفعل وتقرير المعصوم.

---

(١) بحار الأنوار ٨٢/ ٢٧٩، عوالي اللئالي ٣/ ٨٥.

طرق أخذهم الأحكام

وهكذا يكون الأئمّة «المظهرين لأمر الله ونهيه».

ثم إنه قد تقرّر في محلّه أنّ الأئمّة عليهم السّلام يعلمون بالأحكام وسائر معالم الدين ومعارفه عن طريقين:

الأوّل: الإلهام، فإنه وإنْ انقطع الوحي الإلّهي بموت النبي صلّى الله عليه وآله، ولكنّ الأئمّة عليهم السّلام ملهمون ومحدّثون، فقد سئل الرّضا عليه السّلام عن شيء من أمر العالم فقال:

نكت في القلب ونقر في الأسماع، وقد يكونان معاً[١].

وسئل عليه السّلام: علم عالمكم استماع أو إلهام؟ قال:

يكون سماعاً ويكون إلهاماً، ويكونان معاً[٢].

والثاني: الأخذ من النبي صلّى الله عليه وآله، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام يروون عن آبائهم إلى أمير المؤمنين علي عليه السّلام، وهو تلميذ النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقد قال:

أنا مدينة العلم وعلي بابها[٣].

وهو الذي علّمه النبيّ ألف بابٍ يفتح له من كلّ بابٍ ألف باب كما في الحديث المشهور إذا قال عليه السّلام:

علّمني رسول الله ألف بابٍ من العلم يفتح لي من كلّ بابٍ ألف باب[٤].

---

(١) بصائر الدرجات: ٣١٦.

(٢) المصدر: ٣١٧.

(٣) هذا حديث مدينة العلم، المتفق عليه بين المسلمين. انظر: نفحات الأزهار، الأجزاء: ١٠ ـ ١٢.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢ / ٣٦، كنز العمال ١٣ / ١١٤.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

سئل علي عن علم النبيّ فقال: علم النبيّ علم جميع النبيين وعلم ما كان وما هو كأن إلى قيام الساعة. ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأعلم علم النبيّ صلّى الله عليه وآله وعلم ما كان وما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة[١].

ثم إنّ ذلك كلّه قد انتقل إلى الأئمّة، كما روى أبو حمزة الثمالي عن الإمام عن السجّاد عليه السّلام قال:

قلت له: جعلت فداك، كلّ ما كان عند رسول الله فقد أعطاه أمير المـؤمنين بعده ثم الحسن بعد أمير المؤمنين ثم الحسين ثم كلّ إمامٍ إلى أنْ تقوم الساعة؟

قال: نعم مع الزيادة التي تحدث في كلّ سنة وفي كلّ شهر. إي ـ والله ـ وفي كلّ ساعة[٢].

لكنّ الذي في الزيارة الجامعة: «والمظهرين لأمر الله ونهيه» وليس: «الناقلين لأمر الله ونهيه» ولا «الرّاوين لأمر الله ونهيه» ونحو ذلك... فلعلّه للإشارة إلى أن من الأحكام ما ليس في الكتاب والسنّة أصلاً والناس بحاجةٍ إليه، وقد جعل الله الأئمّة عليهم السّلام «المظهرين» لهذه الأحكام كذلك... وتوضيح ذلك:

إنه لا ريب في أن المشرّع هو الله عزّوجلّ:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣].

ثم إن الله قد أكمل دينه في يوم غدير خم، إذ قال:

---

(١) بصائر الدرجات: ١٢٧، بحار الأنوار ٢٦ / ١١٠.

(٢) بصائر الدرجات: ٢٦٩، الاختصاص: ٣١٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[١].

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله في ذلك اليوم:

يا أيها الناس، والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم عن النار إلّا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّ بكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلّا وقد نهيتكم عنه[٢].

تفويض الأحكام إلى النبي والأئمّة عليهم السّلام

ولكنّ الشيخ الكليني عقد باباً بعنوان «باب تفويض الأحكام إلى النبي والأئمّة عليهم السّلام»[٣] وذكر فيه نصوصاً واضحة الدلالة على مشرّعية النبي والأئمّة المعصومين، وسيأتي ذكر بعضها.

فوقع الكلام بين علمائنا الأعلام منذ قديم الأيّام في كتب الكلام والحديث والفقه والاصول، في كيفيّة شرح تلك الأخبار والجمع بينها وما دلّ على أن تشريع الأحكام بيد الله وأنّ النبي قد بلّغ الشريعة كلّها.

أمّا النبيّ صلّى الله عليه وآله، فالظاهر أنّه لا خلاف بينهم في أنّ له الولاية على الأحكام وأنه قد أذن له الله في التصرّف فيها، وقد قال تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) الكافي ٢ / ٧٤، وسائل الشيعة ١٧ / ٤٥.

(٣) الكافي ٢ / ٢٦٥.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣ ـ ٤.

وقال:

﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[١].

وقد وردت الروايات في كتب الفريقين بذيل هذه الآية صريحةً في ولاية النبي صلّى الله عليه وآله على الأحكام، منها:

عن فضيل بن يسار، قال:

سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصِر: «إنّ الله عزّوجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، ثمّ فوّض إليه أمر الدين والأُمّة ليَسوس عباده، فقال عزّوجلّ: ﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان مُسدّداً مؤيّداً برُوح القُدُس، لا يزِلّ ولا يُخْطى، في شيء ممّا يَسُوس به الخلق، فتأدّب بآداب الله، ثمّ إنّ الله عزّوجلّ فرض الصلاة رَكعتين ركعتين، عشر ركعات، فأضاف رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الرّكعتين، وإلى المغرب ركعة، فصارت عديل الفريضة، لا يجوز تركهنّ إلّا في سفر، وأفرد الرّكعة في المغرب فتركها قائمة في السفر والحضر، فأجاز الله عزّوجلّ له ذلك كلّه، فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة.

ثمّ سنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله النوافل أربعاض وثلاثين ركعة مثلي الفريضة، فأجاز الله عزّوجلّ له ذلك، والفريضة والنافلة إحدى وخمسون ركعة، منها ركعتان بعد العَتَمة جالساً تُعَدّ بركعة مكان الوتر.

---

(١) سورة الحشر: الآية: ٧.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

وفرض الله عزّوجلّ في السنة صوم شهر رمضان، وسنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صوم شعبان، وثلاثة أيام في كلّ شهر مثلي الفريضة، فأجاز الله عزّوجلّ له ذلك.

وحرّم الله عزّوجلّ الخمر بعينها، وحرّم رسول الله صلّى الله عليه وآله المُسكر من كلّ شراب، فأجاز الله له ذلك.

وعاف رسول الله صلّى الله عليه وآله أشياء وكَرِهها ولم يَنْهَ عنها نَهي حرام، وإنّما نهى عنها نهي إعافة وكراهة، ثمّ رخّص فيها فصار الأخذ برُخَصهِ واجباً على العباد كوجوب ما يأخذون بنهيه وعزائمه، ولم يُرخّص لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله فيما نهاهم عنه نَهْي حرام، ولا فيما أمر به أمر فرض لازم، فكَثِير المُسْكِر من الأشربة نهاهم عنه نَهْي حرام لم يُرخّص فيه لأحدٍ، ولم يُرخّص رسول الله صلّى الله عليه وآله لأحدٍ تقصير الرّكعتين اللتين ضمّهما إلى ما فرض الله عزّوجلّ بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً، لم يُرخّص لأحدٍ في شيءٍ من ذلك إلّا للمسافر، وليس لأحدٍ أن يرخّص ما لم يُرخّصه رسول الله صلّى الله عليه وآله فوافقَ أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر الله عزّوجلّ، ونهيه نهي الله عزّوجلّ، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالى.

وعن زُرارة: أنّهُ سَمِع أبا جعفر وأبا عبدالله عليهما السّلام يقولان: «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه صلّى الله عليه وآله أمر خلقه لينظُر كيف طاعتهم» ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وعن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السّلام، قال: إنّ الله تبارك وتعالى أدّب نبيّه صلّى الله عليه وآله، فلمّا انتهى به إلى ما أراد، قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ﴾، ففوّض إليه دينه فقال: ﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ

فَانْتَهُوا﴾، وَإنّ الله عزّوجلّ فرض الفرائض ولم يقسم للجدّ شيئاً، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أطعمه السُّدُس فأجاز الله جلّ ذكره له ذلك، وذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ﴾[(١)(٢)].

إنما الكلام في الأئمّة....

هل تثبت الولاية التكوينيّة للأئمة بمعنى: إذن الله تبارك وتعالى لهم بالتصرّف في الكون؟

هل تثبت الولاية التشريعيّة للأئمة بمعنى: إذن الله تبارك وتعالى لهم بالتصرّف في الأنفس والأموال؟

هل تثبت الولاية على الأحكام للأئمة بمعنى: إذن الله تبارك وتعالى بالتصرف في بعض خصوصيّات الأحكام؟

أمّا الولايتان الأولى والثانية، فنرجئ الكلام حولهما إلى موضعهما المناسب من الكتاب، وأمّا الولاية على الأحكام، فهذا هو الموضع المناسب للبحث عنها، فنقول:

إنّ مقتضى الأدلّة العامّة القائمة على ثبوت كلّ ما كان للنبيّ ـ عدا النبوّة ـ لأمير المؤمنين والأئمّة من بعده، والأدلّة المستفيضة الخاصّة بالتفويض، أي الولاية على الأحكام، ثبوت هذا المنصب للأئمة للنبيّ صلّى الله عليه وآله.

فمن الأدلّة العامّة:

١ ـ حديث المنزلة، هذا الحديث المتواتر عند الخاصّة والعامّة، حتى أن

(١) سورة ص، الآية: ٣٩.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٥ / ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

بعض كبار الحفاظ منهم ـ وهو الحافظ أبو حازم[١] ـ قال:

خرّجته بخمسة آلاف إسناد[٢].

يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله لعلي:

أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي[٣].

فقد ثبت في محلّه[٤] دلالة هذا الحديث على أنّ لعلي منازل رسول الله عامّةً إلّا النبوة.

٢ ـ الأحاديث في أنّ الأئمّة ورثوا جميع الأنبياء:

فعن أبي عبدالله عليه السّلام في حديث:

ونحن ورثة النبيين[٥].

وعن أبي الحسن الرّضا عليه السّلام في حديثٍ:

نحن ورثة أُولي العزم من الرسل[٦].

وعن علي بن الحسين عليه السّلام في حديث:

نحن ورثة الأنبياء[٧].

---

(١) هو: الحافظ الكبير أبو حازم عمر بن أحمد العبدوي الأعرج النيسابوري المتوفى سنة ٤١٧، تاريخ بغداد ١١ / ٢٧١.

(٢) شواهد التنزيل ١ / ١٩٥.

(٣) هذا حديث المنزلة المتواتر بين المسلمين.

(٤) أنظر: نفحات الأزهار ج ١٧ ـ ١٨.

(٥) الكافي ١ / ٢٣١.

(٦) الكافي ١ / ٢٢٤.

(٧) بحار الأنوار ٢٣ / ٣١٤.

٣ ـ الأحاديث الواردة في فرض طاعة الأئمّة، كقول أبي جعفر الباقر عليه السّلام:

إن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله[١].

ومن الأدلّة الخاصّة:

ما ورد بسند صحيح عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام أنه قال:

«اِنّ الله عزّوجلّ أدّب نبيه على محبّته فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم فوّض إليه فقال عزّوجلّ:

﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقال عزّوجلّ:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ﴾.

ثم قال: وإن نبي الله فوّض إلى عليٍّ عليه السّلام وائتمنه، فسلّمتم وجحد الناس، فوالله لنحبّكم أن تقولوا إذا قلنا، وتصمتوا اذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله عزّوجلّ، ما جعل الله لأحدٍ خيراً في خلاف أمرنا»[٢].

وعنه عليه السّلام:

إنّ الله عزّوجلّ أدّب نبيّه حتّى قوّمه على ما أراد، ثم فوّض إليه فقال عزّوجلّ:

---

(١) الكافي ١ / ٢١٦.

(٢) المصدر ١ / ٢٦٥.

﴿وَمٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(١).

فما فوّض الله إلى رسوله فقد فوّضه إلينا(٢).

من كلمات أعلام الطّائفة

ثم إنه من المناسب إيراد نصوص عبارات بعض أكابر علمائنا في هذا الموضوع:

الشهيد الثاني

قال الشهيد الثاني رحمه الله في كتاب المسالك:

تحديد حدّ الشرب بثمانين متّفق عليه بين الأصحاب، ومستندهم الأخبار وسيأتي بعضها.

وروى العامة والخاصّة أن النبي صلّى الله عليه وآله كان يضرب الشارب بالأيدي والنعال ولم يقدّروه بعدد، فلمّا كان في زمن عمر استشار أمير المؤمنين في حدّه، فأشار عليه بأنْ يضربه ثمانين.

وعلّله بأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى.

فجلده عمر ثمانين، وعمل به أكثر العامّة(٣).

الوحيد البهبهاني

ويورد المرحوم الوحيد البهبهاني في كتابه الرجالي عدّة معان للتفويض، من ذلك قوله:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) الكافي ١ / ٢٦٨.

(٣) مسالك الإفهام في شرح شرائع الإسلام ١٤ / ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

«الرابع: تفويض الأحكام والأفعال بأن يثبت ما رآه حسناً ويراه قبيحاً فيجيز الله إثباته وردّه، مثل إطعام الجدّ السدس، وإضافة الركعتين في الرباعيات والواحدة في المغرب، وفي النوافل أربعاً وثلاثين سُنّةً، وتحريم كلّ مسكر عند تحريم الخمر. إلى غير ذلك»(١).

فالرّسول أو الإمام يستطيع إقرار حكم يراه صالحاً وينفي آخر لا يرىٰ فيه صلاحاً، فيؤيّد الله حكمه ويقرّه.

وفي حاشيته على كتاب مجمع الفائدة والبرهان للمقدّس الأردبيلي رحمه الله يقول المحقق البهبهاني:

«وقد حقّقنا في تعليقتنا على رجال الميرزا ضعف تضعيفات القميين، فإنهم كانوا يعتقدون ـ بسبب اجتهادهم ـ اعتقادات من تعدّىٰ عنها نسبوه إلى الغلو، مثل نفي السّهو عن النبي صلّى الله عليه وآله، أو إلى التفويض مثل تفويض بعض الأحكام إليه»(٢).

وهو رحمه الله يورد هذا الكلام ردّاً على ادّعاءات بعض المحدّثين القميين الذين كانوا يضعّفون الأحاديث أو الرواة القائلين بالتفويض.

الشيخ البحراني

وأما الشيخ البحراني صاحب الحدائق الناضرة، وهو فقيه عالم ومحدّث كبير، فيقول في بحث منزوحات البئر ما نصّه:

«احتمل بعض محققي المحدّثين من المتأخرين كون هذا الاختلاف من

---

(١) الفوائد الرجاليّة: ٣٩ ـ ٤٠، التعليقة على منج المقال: ٢٢.

(٢) الحاشية على مجمع الفائدة والبرهان: ٧٠٠.

باب تفويض الخصوصيات لهم عليهم السّلام، لتضمّن كثير من الأخبار أن خصوصيّات كثير من الأحكام مفوّضة إليهم عليهم السّلام، كما كانت مفوضة إليه صلّى الله عليه وآله»(١).

السيد عبد الله شبّر

ومما قاله في هذا الصّدد الفقيه والمحدّث السيد عبدالله شبّر في كتاب مصابيح الأنوار:

«والأخبار بهذه المضمون كثيرة، رواها المحدّثون في كتبهم، كالكليني في الكافي والصفّار في البصائر وغيرهما: أنّ الله سبحانه فوّض أحكام الشريعة إلى نبيّه بعد أن أيّده واجتباه وسدّده وأكمل له محامده وأبلغه إلى غاية الكمال»(٢).

الشيخ محمّد حسن النجفي

وهو مصنف كتاب جواهر الكلام، وله شأن عظيم، فيقول:

«بل في المسالك: روىٰ العامّة والخاصّة أن النبيّ صلّى الله عليه وآله كان يضرب الشارب بالأيدي والنّعال، ولم يقدّره بعدد، فلما كان في زمن عمر استشار أمير المؤمنين عليه السّلام في حدّه فأشار بأن يضربه ثمانين، معلّلاً له... وكأن التقدير المزبور عن أمير المؤمنين عليه السّلام من التفويض الجائز لهم»(٣).

المجلسيّان

وفي هذا الخصوص، قال المجلسي الأوّل رحمه الله:

---

(١) الحدائق الناضرة ١ / ٣٦٥.

(٢) مصابيح الأنوار ١ / ٣٦٩.

(٣) جواهر الكلام ٤١ / ٤٥٧.

«كما يظهر من الأخبار الكثيرة الواردة في التفويض إلى النبي والأئمّة عليهم السّلام»[١].

أما المجلسي الثاني فيقول:

«وألزم على جميع الأشياء طاعتهم حتىٰ الجمادات من السماويات والأرضيات كشقّ القمر وإقبال الشجر وتسبيح الحصىٰ وأمثالها ممّا لا يحصىٰ، وفوّض أُمورها إليهم من التحليل والتحريم والعطاء والمنع»[٢].

السيّد الگلپايگاني

وكذا قال سيدنا الأستاذ المرحوم السيّد الگلپايگاني رحمه الله، في بحثه في كتاب الحدود، في باب حدّ شارب الخمر، فإنّه أورد الخبر ونقل كلام الشهيد الثاني وصاحب الجواهر ووافقهما على ما قالاه.

وتلخّص:

إنّ هذا وجه آخر لمعنى «المظهرين لأمر الله ونهيه».

هذا كلّه بناءً على أن يكون المراد من «أمر الله ونهيه» هو: الأحكام الشرعيّة.

ويجوز أن يكون المراد من «الأمر» هو الأعم من «التكوين» و«التشريع» فيكون دالّاً على الولايتين: التكوينية والتفويض.

وعلى كلّ حالٍ، فإنه ليس المقصود استقلال الأئمّة بالتصرّف أو كونهم شركاء لله، فإن هذا كفرٌ، بل المقصود أنّ الأئمّة عليهم السّلام قد وصلوا ببركة طاعتهم وعبوديّتهم لله إلى هذه المنازل الجليلة، وهذا ممّا يقع بين الآباء والأولاد

---

(١) روضة المتقين ٥ / ٤٨٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤٢ـ٣٤٣.

والموالي والعبيد كذلك، وقد يبلغ الخادم لدى سيّده ـ على أثر خدمته له وحسن تصرّفه في إنجاز أعماله ودرايته للأُمور ـ مرحلةً من القرب حتى يكون أمينه على أسراره ويسلّمه مقاليد أُموره، ويأذن له بالتصرّف في أمواله، من غير أن يراجعه في ذلك، ثقةً به واعتماداً عليه....

وقد قرأنا في الروايات: أن الله تعالى قد «أدّب» نبيّه حتّى قوّمه على ما أراد «ثمّ» فوّض إليه أمر دينه....

وكذلك الأئمّة المعصومون من أهل بيته....

وهذا ما تؤكّده الرّوايات، وعبارات الزيارة الجامعة، ومنها العبارة التالية:

وَعِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ الَّذِينَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

«العباد» لغةً

«العباد» جمع «العبد».

إنّ الأئمّة عليهم السّلام عباد لله، وعبيد مربون... عبادٌ مكرمون....

ويتضّح معنى «المكرمين» مما ذكرناه بشرح «اصول الكرم». وحاصل ذلك هو: القيمة العالية، كما في موارد استعمال هذه المادّة في القرآن الكريم، كقوله تعالى في وصف كتابه:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة الواقعة: الآية: ٧٧.

وفي وصف ملائكته:

﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(١).

و ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢).

وفي وصف بعض مخلوقاته:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(٣).

وفي وصف شأنٍ رفيعٍ ومرتبةٍ عالية:

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾(٤).

ولذا قال الراغب:

وكلّ شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم(٥).

ومن هذا الباب:

التعبير عن البنت بـ«الكريمة» كما في الخبر:

من زوّج كريمته من شارب الخمر فقد قطع رحمها(٦).

والتعبير عن «العين» بذلك، كما في الخبر:

ما سلب أحدٌ كريمته إلّا عوّضه الله منه الجنّة(٧).

والتعبير عن الأحجار الثمينة بـ«الأحجار الكريمة».

---

(١) سورة الإنفطار: الآية: ١١.

(٢) سورة عبس: الآية: ١٥ و ١٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٧.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٥٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٩.

(٦) الكافي ٥ / ٣٤٧.

(٧) قرب الإسناد: ٣٨٩، بحار الأنوار ٨١ / ١٨٢.

وعلى الجملة، ففي «وعباده المكرمين...» إشارة إلى الآيات المباركة:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

وفي هذه الآيات ثلاثة نقاط:

١ ـ إن المكرّمين عند الله من الأنبياء والأولياء والملائكة ليسوا أبناءً لله، ردّاً على اليهود والنصارى الذين قالوا كما في الآية الكريمة:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ﴾[2].

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ﴾.

٢ ـ إنّ السبب الذي جعلهم «مكرمين» عند الله هو كونهم عباداً له.

٣ ـ إنها تشير إلى عدّة منازل جليلة ومقامات رفيعة:

١ ـ عصمة الأئمّة عليهم السّلام

فالنصّ القرآني يصف عباد الله المكرمين بأنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وفيه تكريس لمفهوم عصمة الأئمّة عليهم السّلام، فهم الذين لا يتقدّمون على الباري بأدنىٰ قول ألبتة، وكلّ قول يلفظونه يأتي بعد قوله تعالىٰ وتبعاً له، فضلاً عن أن يتكلّموا بكلام وينسبونه إلى الله سبحانه. وسيأتينا كلام لأمير المؤمنين عليه السّلام فيما يتعلق بهذا المعنى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

٢ ـ علم الأئمّة عليهم السّلام

توضح عبارة ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ في الآية الشريفة علم الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام، لأنهم لمّا كانوا لا يقدمون على عمل إلّا بأمر من الله، وتنفيذاً لأمره، فذلك يعني أنهم عالمون بأمره، وهذه العلميّة بالأمر تستدعي معرفتهم بإرادة الباري تعالىٰ، وهم يوصلونها إلى مرحلة العمل والتنفيذ.

ومردّ ذلك إلى أنهم تربّوا ودرسوا في المدرسة الإلٰهية التي يختص لها الله تعالىٰ من يشاء من عباده المخلصين، ولم يدرسوا في مدرسة أو يتتلمذوا عند أحد، ولذلك فإن هذه الميزات خاصّة بهم، لعلوّ مقامهم وشرف منزلتهم عند الله العليّ العظيم جلّ جلاله.

٣ ـ عمل الأئمّة وسلوكهم الإلٰهي

ومن جملة ما تفيده الآية المباركة في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ عمل الأئمّة الطاهرين وسلوكهم. وعبارة «بأمره» هنا ليس المقصود منها ما يقابل النهي، إنما المقصود إرادة الباري تعالىٰ، فهم عارفون عالمون بإرادته سبحانه، وكلّ سلوك وعمل يصدر عنهم إنما هو تجسيد للإرادة الإلٰهية، ويتبين ذلك من خلال التأمل في الآية المباركة. ولتوضيح ذلك أقول:

كلّنا بعلم أن جبرائيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السّلام من الملائكة المقرّبين من ربّ العزة والجلالة، ومن الطبيعي جدّاً أن نعزي أعمالهم إلى الباري تعالىٰ، وليس أوضح من عزرائيل عليه السّلام مثالاً على ذلك، فهو الذي يتولّىٰ قبض الأرواح كما يصرّح القرآن الكريم:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[١].

فعمليّة توفّي الأنفس تُنسب له، وفي موضع آخر يُنسب نفس العمل إلى الله جلّ جلاله كما في قوله تعالىٰ:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها﴾[٢].

فتكون النتيجة أن فعل عزرائيل وغيره من الملائكة المقرّبين هو فعل الله تبارك وتعالىٰ، فإذا أراد الله سبحانه، فستظهر إرادته بعملهم.

ولا غرو في أن الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام كذلك، فتمعّن،

٤ ـ شفاعة الأئمّة عليهم السّلام

مقام الشّفاعة الذي خصَّ الله تعالىٰ الأئمّة به هو مقام جليل ومنصب عظيم، وهو موضوع من مواضيع الآية الشريفة من قوله تعالىٰ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضىٰ﴾[٣].

فلو أن شخصاً كانت له حاجة متعسّرة عند أحدٍ كأمير أو وزير أو رئيس، ويطمح أن يقضيَها له، فلا مناص له من توسيط طرف ثالث، له من المكانة والعزّة بمكان تتناسب ومستوىٰ حاجته، ما يؤهّله أن يشفع له عند الرئيس أو الأمير، وإلّا فإن حاجته مردودة. فمن له حاجة عند الله جلّ جلاله، ويرجو قضائها وإنجازها، فما عليه إلّا أنّ يقدّم الوسيلة والواسطة لكي يشفع له فيها، ولابدّ وأن يكون هذا الشفيع ذا منزلة كريمة ومقام محمود عند الله تبارك وتعالىٰ.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

فالنبيّ والأئمّة هكذا، وهم لا يشفعون إلّا لمن يعلمون حق اليقين أنه موضع رضىٰ الله سبحانه، فهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ، وذلك لشدّة ارتباطهم بالله تعالىٰ وعلمهم بما يرضاه وما لا يرضاه.

فإذا أحجموا عن الشفاعة في قضيّة معيّنة فذلك يعني أنهم عالمون بعدم أهليّتها لرضا الباري تعالىٰ، لأنهم لا يسبقونه في أمر لا يرتضيه، فعليه، لا يطلبون منه تعالىٰ إمضاء ذلك الأمر. وهذا ـ والله ـ لشدّة رسوخهم في العبوديّة له فهم ﴿**مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾.

فالمقام مقام عبوديّة مطلقة، لا اُلوهيّة ولا بنوّة لله، وخطاب الآية خطاب تقريع وتفنيد لادّعاءات اليهود والنصارىٰ الباطلة السقيمة أن جلعوا للرحمٰن ولداً، حينما رأوا من النبي عيسىٰ عليه السّلام اُموراً خارقة وفوق قدرة البشر، فالذي صدر منه كان ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ وببركة عبوديّته له، وقد صدر عن الأئمّة المعصومين ما صدر عن النبي عيسىٰ، دون أن يدّعوا الربوبيّة ولن يدّعوها، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ**﴾.

روىٰ الشيخ أبو جعفر الطوسي طيب الله ثراه في مصباح المتهجّد خطبة لأمير المؤمنين عليه السّلام ـ وهي باعتقادنا قطعيّة الصّدور ـ قائلاً:

«إتفق في بعض سني أمير المؤمنين عليه السّلام الجمعة والغدير، فصعد المنبر على خمس ساعات من نهار ذلك اليوم، فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال:

وإن الله تعالىٰ اختصّ لنفسه بعد نبيّه صلّى الله عليه وآله من بريّته خاصّةً، علاهم بتعليته وَسَما بهم إلى رتبته، وجعلهم الدعاة بالحقّ إليه والأدلّاء عليه، لقرنٍ قرن وزمن زمن أنشأهم في القدم قبل كلّ مذروٍّ ومبروٍّ، وأنواراً أنطقها بتحميده، وألهمها شكره وتمجيده، وجعلها الحجج على كلّ معترفٍ له بملكة الربوبيّة

وسلطان العبوديّة، وآستنطق بها الخرسات بأنواعِ اللّغات، بخوعاً له بأنه فاطر الأرضين والسّماوات، وأشهدهم خلقه وولّاهم ما شاء من أمره، جعلهم تراجم مشيّته وألسن إرادته، عبيداً لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ، وهم من خشيته مشفقون...»[1].

وما أروع ما عبّر عنه استاذنا المرحوم الميرزا كاظم التبريزي في تعبير مستوحىٰ من «تراجمة وحيه» بقوله: إن حنجرة الأئمّة عليهم السّلام، مذياع الله تعالىٰ. فكلّما كان ما يخرج من هذه الحنجرة هو كلام الله سبحانه، وهل ذلك إلّا العصمة؟ فهم عليهم السّلام ألسنة الإرادة الإلٓهية، لكنّهم عبيده الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهو سبحانه ﴿**يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمٰا خَلْفَهُمْ**﴾.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

(١) مصباح المتهجد: ٧٣٥، مصباح الكفعمي: ٦٩٦، بحار الأنوار ٩٤ / ١١٣.

السَّـــــلاَمُ عَـــلَى

الْأَئِـــــمَّةِ الدُّعَـــاةِ وَ الْـــقَادَةِ الْـــهُدَاةِ

وَ السَّـــــادَةِ الْـــوُلاَةِ وَ الذَّادَةِ الْـــحُمَاةِ

وَ أَهْـــلِ الذِّكْـــرِ وَ أُولِـي الْأَمْـرِ وَ بَـقِيَّةِ

اللَّـــهِ وَ خِـيَرَتِهِ وَ حِـزْبِهِ وَ عَـيْبَةِ عِـلْمِهِ

وَ حُـجَّتِهِ وَ صِـرَاطِـهِ وَ نُـورِهِ وَ بُـرْهَانِهِ

وَ رَحْـمَةُ اللَّـهِ وَ بَـرَكَـاتُهُ

السَّلاَمُ عَلَى الْأَئِمَّةِ الدُّعَاةِ

قد تقدم أن «الدعاة» جمع «الداعي»، كالقضاة جمع القاضي.

ومفهوم «الدعوة» يتقوم بالدّاعي والمدعوّ ومورد الدّعوة، فالدّاعي هم الأئمّة، والمدعوّ عموم البشر، ومورد الدعوة هو الإيمان بالله ورسوله والعمل الصّالح.

والأئمّة مضطلعون بجميع المهام والمسؤوليّات التي حملها الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ـ إلّا النبوّة ـ فلا بدّ من توفرّ جميع مقامات الرسول صلّى الله عليه وآله فيهم؛ لأنهم الامتداد الطبيعي له وهو باقٍ ببقائهم، وهم الحافظون للرسالة واستمراريّتها فنبي الله والمبعوث إلى هذه الأُمة خَلَعَ عليه الباري تعالىٰ مقام «الداعي» بقوله جلّ وعلا:

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1].

فيلزم أن تكون دعوة الداعي ـ النبي أو الإمام ـ إلى معرفة الله سبحانه والإذعان له بالعبوديّة والطاعة مطلقاً، ومن متطلبات هذه اللزوميّة أن يكون الإمام المعصوم ـ الداعي ـ في أعلىٰ وأكمل درجات المعرفة بالله، وأفضل عباده وأعلمهم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

وأحوطهم بمتطلّبات السّعادة البشريّة. وباختصار، لابدّ أن يكون الأئمّة المعصومون عليهم السّلام جامعين لجميع الكمالات المعنويّة التي توزّعت في الأنبياء، وأنْ يكونوا أفضل الخلق من الأوّلين والآخرين، بعد نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله.

وهم الوارثون لخطاب الأنبياء:

﴿وَيٰا قَوْمِ مٰا لي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجٰاةِ وَتَدْعُونَني إِلَى النّٰارِ﴾[1].

وهو لسان حالهم في دعوتهم الإلَهية لنجاة الأمم وتحريرها من المفاسد وهدايتها نحو الخير والجنة. وهذا الخطاب الإلَهي لا يزال يتكرر على مرّ العصور والأزمان، نظراً لوجود دعاة الضلالة وأئمّة الباطل ووقوفهم بوجه دعاة الإصلاح.

وَالْقَادَةِ الْهُدَاةِ

«القادة» جمع «القائد»، وقد مرّ الكلام في معنى «القائد» و«السائق».

و«الهداة» جمع «الهادي».

وهذان الوصفان أيضاً مطلقان، فإن قيادتهم وهدايتهم غير مختصّةٍ بقومٍ دون قوم وزمانٍ دون زمان، إنهم القادة الهداة للبشريّة جمعاء في جميع الأزمنة والأمكنة، بل إنّ سير الكائنات نحو كمالها المطلوب لها إنما هو ببركة وجود الأئمّة، بل إنْ هدايتهم تعمّ سائر العوالم أيضاً.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤١.

المحتاج إلى الهادي لا يكون هادياً

ومن الواضح جدّاً أنْ من يكون بحاجةٍ إلى من يقوده للهدى، لا يصلح لأن يتولّى هداية أحدٍ من الخلق، قال تعالى:

﴿أَ فَمَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدّي إِلاّ أَنْ يُهْدىٰ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١].

فهل يقاس بأهل البيت القادة الهداة من كان لا يهتدي إلى شيء إلّا أن يُهدى، فضلاً عن أولئك الذين يعدّون في أئمّة الضّلال؟

إنّ الأئمّة منصوبون من قبل الله لقيادة الأُمة وهدايتها إلى ما فيه خير وسعادتها في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا...﴾[٢].

وقد ذكرنا سابقاً أن النبي صلّى الله عليه وآله لمّا نزلت الآية:

﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾[٣].

قال:

يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي[٤].

لقد قال هذا وحوله الكثير من الناس الذين كانوا يدّعون ـ ويدّعى لهم ـ الصّلاحيّة والأهليّة لقيادة الأُمّة وهدايتها.

ولا يخفى الإطلاق كذلك في الحديث الشريف....

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية: ٧٣.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٤) الطرائف: ٧٩، كنز العمال ١١ / ٦٢٠.

وَ السَّادَةِ الْوُلاَةِ

«السّادة» جمع «السيّد» و«الولاة» جمع «الولي».

والسيّد في اللّغة كما جاء في مجمع البحرين:

الرئيس الكبير في قومه، المطاع في عشيرته وإنْ لم يكن هاشميّاً[١].

لكنّ المسلمين يطلقون لقب «السيّد» في بعض البلاد، ولقب «الشريف» في بعضٍ و«الحبيب» في بعض آخر، على بني هاشم، خاصّة ذريّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، لِما لهم من الشرف والمجد بانتسابهم إليه، فهم محترمون بين الناس، وإذا كانت السّيادة شأن كلّ من انتسب إلى نبيّنا، فكيف يكون شأن سادتهم الأئمّة الأطهار؟

إشارةُ إلى الولاية التشريعيّة

والأئمّة لهم مقام آخر، وهو حقّ الولاية على الناس، أي: إنهم أحق وأولى بالتصرّف في أموالهم وأنفسهم منهم، فهم وحدهم «السّادة الولاة» على الإطلاق، ومن كان كذلك، وجبت إطاعتهم إطاعةً مطلقةً، والكون معهم من دون تقدّم عليهم ولا تأخر عنهم أبداً، وعلى الجملة، فإن الأئمّة عليهم السّلام هم «أُولوا الأمر» في قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٢].

فعن سليم بن قيس قال: سمعت عليّاً يقول، وأتاه رجل فقال له: ما أدنى ما

---

(١) مجمع البحرين ٢ / ٤٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العَبْدُ ضالاًّ؟

فقال له: قد سألتَ فافْهَم الجواب، أمّا أدنى ما يكون به العبد مؤمناً أن يُعرّفه الله تبارك وتعالى نَفْسَه فيُقرّ له بالطاعة، ويُعرِّفَه نبيّه صلّى الله عليه وآله فـيُقرَّ له بالطاعة، ويعرّفه إمامه وحُجّته في أرضه وشاهده على خلقه فيُقرّ له بالطاعة.

فقلت: يا أمير المؤمنين، وإنْ جَهِل جميع الأشياء إلّا ما وَصَفْتَ! قال: نعم، إذا أُمِر أطاع، وإذا نُهِي انتهى.

وأدنى ما يكون به العبد كافراً مَن زعم أنّ شيئاً نهى الله عنه أنّ الله أمـر بـه ونصبَه ديناً يتولّى عليه، ويَزْعُم أنّه يعبُدُ الذي أمره به وإنّما يَعْبُد الشيطان.

وأدنى ما يكون العَبد به ضالاًّ، أن لا يعرف حُجّة الله تبارك وتعالى وشاهِدَه على عباده الذي أمر الله عزّوجلّ بطاعته وفرض ولايته.

قلت: يا أمير المؤمنين، صِفْهُم لي.

قال: الذين قَرَنهم الله تعالى بنفسه ونبيّه، فقال: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾.

فقلت: يا أمير المؤمنين، جعَلني الله فِداك، أوضِحْ لي.

فقال: الذين قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في آخر خُطبَتِه يوم قبَضَه الله عزّوجلّ إليه: إنّي قد تركتُ فيكم أمْرَين، لن تَضِلّوا بعدي إن تمسّكتم بهما: كتاب الله عزّوجلّ، وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عَهِدَ إليّ أنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا عليّ الحوض كهاتين ـ وجمع بين مُسبّحتيه ـ ولا أقول كهاتين ـ وجمع بين المُسَبِّحة والوسطى ـ فَتَسْبِق إحداهما الأُخرى، فتمسّكوا بهما لا تَـزِلُّوا، ولا تَضِلُّوا، ولا تتقدّموهم فتَضِلّوا»[١].

(١) تفسير البرهان ٢ / ١٠٧.

وهذا طرف من ولايتهم... وهو الولاية التشريعيّة، ونعني بها أولويّتهم بالناس من أنفسهم كما كان لجدّهم الرسول الأكرم إذ قال تعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[١].

ثم قال رسول الله في يوم غدير خم:

ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه[٢].

وسيأتي تفصيله في محلّه.

والطرف الآخر: الولاية التكوينيّة، حيث كلّ فرضت طاعتهم على كلّ شيء من الأشياء، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلىٰ ما آتاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكًا عَظيمًا﴾[٣].

وقد ورد في النصوص الصحيحة أن «الملك العظيم» هو الطاعة المفروضة.

وسيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

وَالذّادَةِ الْحُماةِ

«الذادّة» جمع «الذائد» قال في المفردات:

ذدته عن كذا أذوده. قال تعالى ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ﴾ أي: تطردان[٤].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٢) وهذا هو حديث الغدير المتواتر، وقد بحثنا عنه سنداً ودلالةً في كتابنا الكبير، الأجزاء: ٦ ـ ٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ١٨٣، لسان العرب ٣ / ١٦٧.

و«الحماة» جمع «الحامي».

وكلا المفهومين من المفاهيم ذات الإضافة، فمن يذود الأئمّة وعمّن؟ ومن يحمون وعن أيّ شيء؟

حفظ الدين وأهله

إنّ أهم الأُمور عند الأئمّة عليهم السّلام هو حفظ «الدين الإسلامي» و«الأُمة الإسلامية»، فهم يذودون عن الدين الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّ أنواع التحريف والتلاعب وجميع الأهواء والبدع ويحفظون الأُمّة ويحمونهم من أذى الظالمين وإضلال الكفّار والمنافقين، هؤلاء الذين يطردهم أمير المؤمنين عليه السّلام عن الحوض ويمنعهم من الاختلاط بالمؤمنين في الآخرة، كما قال:

أنا أذود عن حوض رسول الله صلّى الله عليه وآله بيديّ هاتين القصيرتين الكفار والمنافقين، كما تذود السّقاة غريبة الإبل عن حياضهم[1].

ومن هذا الخبر وأمثاله يظهر: أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام هم الذادّة عن المؤمنين في دار الدنيا والحماة للدين وأهله من ضرر الكفار والمنافقين في هذا العالم، وأنّهم الميزان الحقيقي لأعمال الناس وعواقب أعمالهم في العالمين، وهذا ما توافرت عليه روايات المسلمين[2].

وعلى الجملة، فكما أنّ من يريد تربية زَهرةٍ، يلزم عليه أن يهيّأ الظروف الملائمة لنموّها، بأنْ يطرد عن التربة ما فيه الضّرر عليها ويحميها من الحرّ والبرد... كذلك الأئمّة عليهم السّلام، فإنهم نصبوا لحفظ الدين ولتربية المؤمنين

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩ / ١٣٥.

(٢) أمالي الطوسي: ٢٤٨، المسترشد في الإمامة: ٢٦٥، المعجم الأوسط ٥ / ٢٢٥.

وهداية الناس، فهم الذين يذودون عن الدّين ويحمون الأُمّة ويصونونها من المفاسد الاعتقاديّة والأخلاقيّة.

إنّ التربية الصّالحة الكاملة تتحقّق بتكامل الإنسان في الأبعاد الثلاثة:

١ ـ البعد الفكري، بحمايته من الانحرافات العقائديّة.

٢ ـ البعد العملي، بتعليمه الأحكام الإلهيّة العمليّة.

٣ ـ البعد الأخلاقي، بتزكيته من الصّفات السيّئة.

إن الوصول بالإنسان إلى مرحلة الكمال هو الهدف من بعثة النّبي صلّى الله عليه وآله كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾[1].

وقد نصب الله الأئمّة من بعده لاستمرار تحقيق الغاية التي بُعث من أجلها....

وَأَهْلِ الذِّكْرِ

وهذا إشارة إلى «أهل الذكر» في القرآن الكريم، قال الله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ﴾[2].

وقال في سورة النحل:

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٣.

فأهل الذكر في القرآن ـ وخاصّةً في الآية الثانية ـ هم الأئمّة من أهل البيت قطعاً، وبه روايات كثيرة وسيأتي نصوص منها... وذلك، لأنّ:

«الذكر» إمّا القرآن وإمّا النبيّ والأئمّة أهله

«الذّكر» إمّا هو القرآن الكريم، كما قال عزّوجلّ:

﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمجْنُونٌ﴾[١].

وإمّا هو النبي صلّى الله عليه وآله، كما قال سبحانه:

﴿قَدْ أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللّٰهِ﴾[٢].

ولا شك أن الأئمّة هم أهل القرآن وأهل النبيّ.

بل ليس أهل القرآن إلّا الأئمّة الأطهار من أهل بيت النبيّ، لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَريمٌ * في كِتابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٣].

والمطهّرون هم أهل بيت النبي المقصودون بقوله:

﴿إِنَّما يُريدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرًا﴾[٤].

وأهل بيته هم: علي وفاطمة والحسنان والأئمّة... لأنّه لمّا جمع أهل بيته في نزول الآية، قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أو قال: اللّهم إنّ هؤلاء آل محمّد[٥].

ولذا جاء بتفسير الآية الذكر:

عن أبي جعفر عليه السّلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٠ ـ ١١.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٧٧ ـ ٧٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٥) أنظر: نفحات الأزهار ٢٠ / ٧٨ ـ ٨٥.

﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: الذّكر أنا، والأئمّة عليهم السّلام أهلُ الذّكر...[١].

وعن عبدالرحمن بن كثير، قال: قلت: لأبي عبدالله عليه السّلام: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ قال: الذِكْر: محمّد صلّى الله عليه وآله، ونحن أهله المسؤولون[٢].

وعن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السّلام في قول الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: الذكر: القرآنُ، وآلُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله أهل الذكر، وهم المسؤولون[٣].

وعن الرّيّان بن الصّلت، قال: حَضَر الرضا عليه السّلام مَجْلِسَ المأمون بمَرْو وقد اجتمع في مجلسه من علماء العراق وخراسان، وذكر الحديث إلى أن قال فيه الرضا عليه السّلام: «نحن أهل الذكر الّذين قال الله في كتابه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فنحن أهلُ الذكر، فاسألوا إن كنتم لا تعلمون».

فقالت العلماء: إنّما عنىٰ الله بذلك اليهود والنصارى. فقال أبو الحسن عليه السّلام: «سبحان الله، وهل يجوز ذلك؟ إذن يدعونا إلى دينهم، ويقولون: هو أفضل من دين الإسلام».

فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرحٌ بخلاف ما قالوا، يا أبا الحسن؟ فقال عليه السّلام: «نعم، الذِكرُ: رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أهله، وذلك بيّن في

---

(١) الكافي ١/ ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بصائر الدرجات: ٦٢.

كتاب الله تعالى حيث يقول في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾[1] فالذِكر: رسولُ الله، ونحنُ أهله»[2].

فعلى الأُمة الرجوع ـ بعد رسول الله ـ إلى الأئمّة الطّاهرين في جميع شئونها، وعليهم الإطاعة المطلقة لهم، لأنّ الأمر بالسؤال يستتبع الأمر بقبول الجواب مطلقاً، لأنه مقتضى الإطلاق... وذلك يستلزم أمرين مهمّين جدّاً:

أحدهما: عصمة الأئمّة، إذ لو جاز عليهم الخطأ والسّهو والنسيان لما أُمر بالسؤال منهم والقبول لما يجيبون على نحو الإطلاق.

والآخر، كونهم أعلم من غيرهم، لأنّ الله لا يأمر بالسؤال من الجهال، كما في الرواية:

أمر الله عزّوجلّ بسؤالهم ولم يؤمروا بسؤال الجهّال[3].

ولأنّ العقل لا يجوّز الرجوع إلى المفضول مع وجود الأفضل.

هذا، مضافاً إلى أنّ حياة الأئمّة عليهم السّلام كاشفة عن أنهم لم يُسئلوا عن شيء فجهلوه أو أخطأوا في الجواب أو سهوا، وكم فرق بينهم وبين المناوئين لهم المدّعين لمنازلهم!

ولعلّه مطلق «الذكر»

وأمّا بناءً على أنْ يكون المراد من «الذكر» هو مطلق ذكر الله، فالأئمّة عليهم

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٠ و ١١.

(٢) عيون أخبار الرضا ٢ / ٢١٦، أمالي الصدوق: ٦٢٥.

(٣) الكافي ١ / ٢٩٥، وسائل الشيعة ٢٧ / ٦٦.

السّلام هم المصداق الأتم لـ«أهل الذكر»، ومنهم تعلّم الناس الأذكار والأوراد، وهم العاملون بقوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾(١). وهم:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢) وهم أصحاب القلوب المطمئنة بالذكر، كما قال الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٣).

بل، لقد كانت حياة قلوبهم بالذكر، كما قال عليه السّلام:

بذكرك عاش قلبي(٤).

وَأُولِي الْأَمْرِ

كأنّه إشارة إلى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٥).

فعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السّلام في هذه الآية قال: الأئمّة من ولد علي وفاطمة إلى أنْ تقوم السّاعة(٦).

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٤) مصباح المتهجد: ٥٩١، مصباح الكفعمي: ٥٩٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٦) كمال الدين وتمام النعمة ١ / ٢٢٢.

وفي الاحتجاج أن أمير المؤمنين عليه السّلام قال في خطبةٍ له:

إنّ الله ذا الجلال والإكرام لمّا خلق الخلق واختار خيرة من خلقه واصطفى صفوة من عبادة، أرسل رسولاً منهم وأنزل عليه كتابه وشرع له دينه وفرض فرائضه، فكانت الجملة قول الله عزّوجلّ: ﴿**أَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾. فهو لنا أهل البيت خاصّة دون غيرنا، فانقلبتم على أعقابكم وارتددتم ونقضتم الأمر ونكثتم العهد ولم تضرّوا الله شيئاً، وقد أمركم أنْ تردّوا الأمر إلى الله ورسوله وإلى أُولي الأمر منكم المستنبطين للعلم، فأقررتم ثم جحدتم[1].

«أولوا الأمر» في القرآن الأئمّة المعصومون

ثمّ إنّ الآية المباركة ـ وبقطع النظر عن الروايات ـ تدلّ على أنهم هم أُولي الأمر دون غيرهم، وذلك لِما فيها من الأمر بالطّاعة المطلقة، وهي لا تجوز إلّا للمعصوم، ولا معصوم في الإسلام غيرهم.

وقد اعترف الرازي بدلالة الآية على عصمة أُولي الأمر إذ قال ما نصّه:

إعلم أن قوله ﴿**وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ يدلّ عندنا على أن إجماع الأمة حجّة، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لولم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وإنه

---

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج ١ / ٢٣٤.

محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً».

لكنّه جعل يلفّ ويدور، لعِلمه بعدم عصمة غير الأئمّة الطّاهرين وهو يأبى الاعتراف بالحقيقة... فقال:

«ثم نقول: ذلك المعصوم، إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمة؛ لأنا بيّنا أن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أنا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك، علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم. ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أهل الحلّ والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة[١]».

لكنّا قد ذكرنا في جوابه في بحوثنا سقوط هذا الكلام بوجوهٍ نلخّصها هنا:

أوّلاً: لم تكن الأُمّة عاجزةً عن معرفة الإمام «المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته» بعد رسول الله ثم في الأزمان اللاّحقة إلى الإمام الحادي عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

وثانياً: أنا في زماننا هذا غير عاجزين عن معرفة الإمام المعصوم.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٠/ ١٤٤.

وثالثاً: إنْ صحّ الحديث: «لا تجتمع أُمّتي على الخطأ» فالمعصوم كلّ الأُمّة بالمعنى الحقيقي.

ورابعاً: من أهل الحلّ والعقد؟ ومن يعيّنهم؟

وَ بَقِيَّةِ اللَّهِ

وهذا إشارة إلى قوله عزّوجلّ:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١].

الأئمّة بقية الله في الأُمّة

وقد ورد في النصوص أنّ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السّلام قد وصف نفسه بـ«بقيّة الله»، وذلك لمّا خاطب أهل مدين بأعلى صوته قائلاً:

يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقيّة الله يقول الله ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾...[٢].

ووصف الإمام الكاظم عليه السّلام ولده الرضا لمّا ناوله لأُمّه قال: خذيه فإنه بقيّة الله في أرضه[٣].

وهو لقب الإمام المهدي عجّل الله فرجه كما في الرواية، إذ سئل الإمام أبو عبدالله عليه السّلام عن كيفيّة السّلام على الإمام المهدي، قال:

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٦.

(٢) الكافي ١ / ١٧١.

(٣) عيون أخبار الرضا ١ / ٢٠، كشف الغمّة ٢ / ٢٩٧، بحار الأنوار ٢٤ / ٢١٢.

يقولون: السّلام عليك يا بقية الله. ثم قرأ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾[١].

ولذا ورد في الخبر أنّ أوّل ما ينطق به إذا ظهر هو الآية المباركة، ثم يقول: أنا بقيّة الله وحجّته وخليفته عليكم، فلا يسلّم عليه مسلم إلّا قال: السّلام عليك يا بقيّة الله في أرضه[٢].

الأئمّة خيرٌ للأُمّة

نعم، إنَّ محمّداً وآله الأطهار عليهم الصّلاة والسّلام خيرٌ للمؤمنين، فمن اهتدى بهداهم وتبعهم في أقوالهم وأفعالهم، هدي إلى الصّراط المستقيم، ومن خالفهم كان مصيره إلى الجحيم.

وأيضاً، فهم خيرٌ من غيرهم، لا يعادلهم ولا يساويهم بل لا يقاس بهم أحدٌ من العالمين.

وذلك، لأنّ الله لمّا خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، كان نبيّنا وآله الأطهار أوّل الخلائق أجمعين، فعرفوه وعبدوه، وبهم عرف وعبد، فكانوا في عالم الأنوار أعلاماً للهداية، وحتى الأنبياء كانوا يقتبسون من نور هدايتهم، والملائكة كانوا يتعلّمون منهم آداب الطّاعة والعبادة.

ثم لمّا أرسل الله محمّداً بالهدى ودين الحق رحمةً للعالمين، فوعظ وذكّر وبلّغ وهدى، وأُوذي في هذا السبيل بما لم يؤذ به نبيّ من الأنبياء قبله كما قال: ما أُوذي نبيّ بمثل ما أُوذيت[٣].

---

(١) وسائل الشيعة ١٤ / ١٨، تأويل الآيات الظاهرة ١ / ١٦٢.

(٢) كمال الدين: ٣٣١.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣ / ٤٢، بحار الأنوار ١٩ / ٥٦، كنز العمال ١١ / ٤٦١ باختلاف يسير.

شاركه أمير المؤمنين عليه السّلام في رسالته ودعوته، وعاضده في جميع المواقف وذبّ عنه، ثم قام مقامه في حفظ الدين ونشر تعاليمه... وهكذا كان الأئمّة من بعده.

ولكنّ تحقّق الإرادة الإلٓهيّة وتنجّزها سيكون على يد المهدي، وهو الإمام الثاني عشر من أئمّة أهل البيت الذي وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات بأنْ يستخلفنهم في عهده إذ قال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١].

وعلى الجملة، فإن الأئمّة الأطهار هم بقيّة الله من أوصياء الأنبياء، الذين أبقاهم على وجه الأرض وحكم أنْ تتحقّق على أيديهم الأغراض الإلهيّة التي لم تتحقّق من قبل، فإنه بواسطتهم ستتمّ الهداية العامّة إلى الله على وجه الكمال.

الإمامة باقية في عقب الحسين عليه السّلام

هذا، ويجوز أنْ يكون «بقيّة الله» إشارةً إلى قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّوجلّ: **﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾**، قال: «هي الإمامةُ، جعلها الله عزّوجلّ في عَقِب

(١) سورة النور، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

الحُسَين عليه السّلام باقية إلى يومِ القيامة»[١].

عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السّلام، في قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾، قال: «في عَقِب الحُسَين عليه السّلام، فلم يزل هذا الأمر منذ أُفضي إلى الحسين ينتقل من ولد إلى ولد، لا يرجع إلى أخٍ ولا عمّ، ولم يتمّ يعلم أحدٍ منهم إلّا وله ولد»[٢].

وعن المفضّل بن عمر، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: يابن رسول الله، أخبرني عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾. قال: «يعني بذلك الإمامة جعلها الله في عقب الحسين عليه السّلام إلى يوم القيامة»[٣].

فقلتُ: يابن رسول الله، أخبرني كيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن عليهما السّلام، وهما ولدا رسول الله صلّى الله عليه وآله، وسبطاه، وسيّدا شباب أهل الجنّة؟ فقال: «يا مفضّل، إنّ موسى وهارون نبيّان مرسلان أخوان، فجعل الله النبوّة في صُلب هارون، ولم يكن لأحدٍ أن يقول: [لم فعل ذلك؟ وكذلك الإمامة، وهي خلافة الله عزّوجلّ، وليس لأحد أن يقول:] لِمَ جعلها في صلب الحسين ولم يجعلها في صلب الحسن، لأنّ الله عزّوجلّ الحكيم في أفعاله، لا يُسئل عمّا يفعل وهم يسئلون»[٤].

---

(١) معاني الأخبار: ١٣١.

(٢) علل الشرائع ١/ ٢٠٧.

(٣) الخصال ١/ ٣٠٤.

(٤) المصدر: ٣٠٥.

وَخِيَرَتِهِ

النبي وأهل بيته خيرة خلق الله

قال في المصباح: الخيرة ـ بفتح الياء ـ بمعنى الخيار، والخيار هو الاختيار[١].

فالنبيّ والأئمّة من عترته خيرة الله من خلقه، أي المصطفون المنتجبون....

وفي هذا المعنى أحاديثٌ متواترة عند الفريقين كثيرة، من ذلك قوله صلّى الله عليه وآله:

إنّ الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم[٢].

وَحِزْبِهِ

«الحزب» الطّائفة من الناس، يجمعهم الرأي الواحد، والهدف الواحد.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر «حزب الله» و«حزب الشيطان».

حزب الله في القرآن

أمّا الأول، ففي موضعين:

١ ـ في سورة المائدة، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) المصباح المنير: ١٨٥.

(٢) مسند أحمد ٤ / ١٠٧، صحيح مسلم ٧ / ٥٨، سنن الترمذي ٥ / ٢٤٤، سنن البيهقي ٦ / ٣٦٥.

وَهُمْ رٰاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ﴾(١).

٢ ـ في سورة المجادلة، قال تعالى:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ أُولٰئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدينَ فيهٰا رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولٰئِكَ حِزْبُ اللّٰهِ أَلٰا إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مٰا هُمْ مِنْكُمْ وَلٰا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ... اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰانُ فَأَنْسٰاهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰانِ أَلٰا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰانِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ﴾(٣).

و«حزب الله» و«حزب الشيطان» متقابلان، فأُولئك هم «الغالبون» وهؤلاء هم «الخاسرون».

إنّ المعرّف الأساسي لـ«حزب الله» هو: كونهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا﴾، والمعرّف الأصلي لـ«حزب الشيطان» هو أنهم يتولّون ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ويتبيّن هؤلاء الذين غضب الله عليهم من قوله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنٰافِقينَ وَالْمُنٰافِقٰاتِ وَالْمُشْرِكينَ وَالْمُشْرِكٰاتِ الظّٰانّينَ بِاللّٰهِ ظَنَّ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥ و ٥٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٥ ـ ٢٠.

السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصيرًا﴾(١).

وعليه، فإن «حزب الشيطان» هم أعوان المشركين والمنافقين.

وأمّا «حزب الله» فهم أهل ولاية الله ورسوله **﴿وَالَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾**، وقد ثبت أنّ هذه الآية نازلة بشأن أمير المؤمنين عليه السّلام بسبب تصدّقه على السّائل في حال ركوعه في الصّلاة(٢).

فظهر المراد من «حزب الله» والمراد من «حزب الشيطان» المقابل لحزب الله.

وإلى هنا عرفنا مفهوم «الحزب» ومصداقه... في القرآن.

حزب الله في الرّوايات

وأمّا بالنظر إلى الروايات... فقد روي عن ابن عبّاس:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ يعني يحب الله **﴿وَرَسُولَهُ﴾** يعني محمّداً **﴿وَالَّذينَ آمَنُوا﴾** يعني ويحبّ علي بن أبي طالب **﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾** يعني شيعة الله وشيعة محمّد وشيعة علي هم الغالبون؛ يعني العالون على جميع العباد الظاهرون على المخالفين لهم.

قال ابن عباس: فبدأ الله في هذه الآية بنفسه، ثمّ ثنى بمحمّد، ثمّ ثلّث بعلي.

[ثمّ قال]: فلمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: رحم الله عليّاً اللهمّ أدر الحق معه حيث الدار.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٦.

(٢) أنظر: نفحات الأزهار ٢٠ / ١٨ ـ ٣٩.

قال ابن مؤمن: لا خلاف بين المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السّلام[١].

وعنه: إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

يا علي، شيعتك هم الفائزون يوم القيامة، فمن أهان واحداً منهم فقد أهانك، ومن أهانك فقد أهانني، ومن أهانني أدخله الله نار جهنّم خالداً فيها وبئس المصير.

يا علي! شيعتك هم الفائزون يوم القيامة، فمن أهان واحداً منهم فقد أهانك، ومن أهانك فقد أهانني، ومن أهانني أدخله الله نار جهنّم خالداً فيها وبئس المصير.

يا علي! أنت منّي وأنا منك، روحك من روحي، وطينتك من طينتي، وشيعتك خلقوا من فضل طينتنا، فمن أحبّهم فقد أحبّنا، ومن أبغضهم فقد أبغضنا، ومن عاداهم فقد عادانا، ومن ودّهم فقد ودّنا.

يا علي! إنّ شيعتك مغفور لهم على ما كان فيهم من ذنوب وعيوب.

يا علي! أنا الشفيع لشيعتك غداً إذا قمت المقام المحمود، فبشّرهم بذلك.

يا علي! شيعتك شيعة الله، وأنصارك أنصار الله، وأولياؤك أولياء الله وحزبك حزب الله.

يا علي! سعد من تولّاك، وشقي من عاداك.

يا علي! لك كنز في الجنّة، وأنت ذو قرنيها[٢].

وعن علي عليه السّلام أنه صلّى الله عليه وآله قال له:

يا علي! بكم يفتح هذا الأمر، وبكم يختم، عليكم بالصبر، فإنّ العاقبة

---

(١) شواهد التنزيل ١ /٢٤٦.

(٢) أمالي الصّدوق: ٦٦ و ٦٧، بشارة المصطفى: ٤٢.

للمتقين، أنتم حزب الله، وأعداؤكم حزب الشيطان، طوبى لمن أطاعكم، وويل لمن عصاكم، أنتم حجّة الله على خلقه، والعروة الوثقى، من تمسّك بها اهتدى، ومن تركها ضلّ. أسأل الله لكم الجنّة، لا يسبقكم أحد إلى طاعة الله، فأنتم أولى بها[١].

وعن علي عليه السّلام أنه قال:

نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء، حزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، من ساوى بيننا وبين عدوّنا فليس منّا[٢].

وَ عَيْبَةِ عِلْمِهِ

في مجمع البحرين: العيبة ـ بالفتح ـ مستودع الثياب أو مستودع أفضل الثياب. وعيبة العلم على الاستعارة[٣].

فالأئمّة عليهم السّلام مستودع علم الله.

لقد ذكرنا أنّ الأئمّة عليهم السّلام ورثة علوم النبيّين، وأنّ النبي صلّى الله عليه وآله قد أورثهم كلّ ما علّمه الله عزّوجلّ وهم الأبواب لعلمه، وكلّ ما هو بيد الناس من العلوم الإسلاميّة فهم المعلّمون والناشرون له، ومن أراد شيئاً من العلم فلابدّ وأن يرجع إليهم ويأخذ منهم.

وقد يكون «عيبة علمه» إشارة إلى خصوص العلم الذي لم يظهر لغيرهم، فكانوا هم المستودع له.

---

(١) أمالي المفيد: ١٠٩ و ١١٠، بحار الأنوار ٢٣ / ١٤٢.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢ / ٦٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٥٩، الصواعق المحرقة: ٣٥٤.

(٣) مجمع البحرين ٢ / ١٣٠.

وكيف كان، فإنّ هذه المنزلة تدلّ على شدّة ارتباطهم بالله وقربهم منه، وأنهم قد نالوا ما لم ينله أحد من العالمين.

وَ حُجَّتِهِ

«الحجّة» اسم من الاحتجاج.

إنّ الله يحتجّ على الخلائق بالأئمّة الطّاهرين، فهو يحتجّ بهم، ويحتجّ بما بلّغوه عن الله....

بعث الرّسول ونصب الإمام شرط صحّة المؤاخذة

إنّ الله عزّوجلّ يقول:

﴿وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١).

أي: حتى نقيم الحجّة ونتمّها على النّاس، لا برسول واحد، بل

﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ لِئَلّاٰ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

فلا يقول أحدٌ:

﴿رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ﴾(٣).

بل لله الحجّة البالغة على الخلق أجمعين، كما قال:

﴿قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

وقد ورد بذيل هذه الآية المباركة عن مسعدة بن صدقة عن أبي جعفر عليه السّلام أنه قال:

إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنت عالماً؟

فإن قال: نعم.

قال له: أفلا عملت بما علمت؟

وإن قال: كنت جاهلاً.

قال له: أفلا تعلّمت حتّى تعمل؟

فيخصمه وذلك الحجّة البالغة[1].

ثم إنّ الأئمّة عليهم السّلام حجج لله ظاهرة، والعقل حجّةٌ باطنة، كما في الرّواية عن الإمام الكاظم عليه السّلام:

يا هشام، إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأمّا الظاهرة، فالرّسل والأنبياء والأئمّة. وأمّا الباطنة فالعقول»[2].

وقد قامت الأدلّة النقليّة والبراهين العقليّة على ضرورة وجود الحجة على الأرض في كلّ زمان، وأنّ الأرض لا تخلو من حجة لله أبداً... ونكتفي بواحدةٍ من الروايات في الباب، وفيها الإشارة إلى البرهان العقلي، وهي عن أبي عبدالله عليه السّلام أنه قال للزنديق الذي سأله:

من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟

قال: إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك

---

(١) أمالي المفيد: ٢٢٨، بحار الأنوار: ٢ / ٢٩.

(٢) الكافي ١ /١٦، وسائل الشيعة ١٥ /٢٠٧، بحار الأنوار ١ / ١٣٧.

الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم.

فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين في الحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم مؤيّدون عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته(١).

الإمام المهدي حجّة الله

وأما اعتراض بعض المتكلّمين من العامّة على ذلك بغيبة الإمام الثاني عشر عليه السّلام، فقد أجاب عنه علماؤنا بالتفصيل. قال المحقّق النصير الطوسي:

وجوده لطف وتصرّفه لطف آخر وعدمه منّا.

فقال العلّامة الحلّي بشرحه:

أقول: هذه اعتراضات على دليل أصحابنا مع الإشارة إلى الجواب عنها:

الأول: قال المخالف: كون الإمامة قد اشتملت على وجه اللّطف لا يكفي في وجوبها على الله تعالى بخلاف المعرفة التي كفى وجه الوجوب فيه علينا لانتفاء المفاسد في ظننا، أمّا في حقه تعالى فلا يكفي وجه الوجوب ما لم يعلم انتفاء المفاسد ولا يكفي الظن بانتفائها، فلِمَ لا يجوز اشتمال الإمامة على مفسدة

---

(١) الكافي ١ / ١٦٨.

لا نعلمها فلا تكون واجبة على الله تعالى؟

الجواب: أنّ المفاسد معلومة الانتفاء عن الامامة، لأنّ المفاسد محصورة معلومة يجب علينا اجتنابها أجمع، وإنّما يجب علينا اجتنابها إذا علمناها لأنّ التكليف بغير المعلوم محال، وتلك الوجوه منتفية عن الإمامة فيبقى وجه اللّطف خالياً عن المفسدة فيجب عليه تعالى، ولأنّ المفسدة لو كانت لازمة للإمامة لم تنفك عنها، والتالي باطل قطعاً، ولقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وإن كانت مفارقة جاز انفكاكها عنها فيجب على تقدير الإنفكاك.

الثاني: قالوا: الإمامة أنّما تجب لو انحصر اللطف فيها، فلِمَ لا يجوز أن يكون هناك لطف آخر يقوم مقام الإمامة فلا تتعيّن الإمامة لِلّطفيّة فلا يجب على التعيين؟

والجواب: أنّ انحصار اللّطف الذي ذكرناه في الإمامة معلوم للعقلاء، ولهذا يلتجئ العقلاء في كلّ زمان وكلّ صقع إلى نصب الرؤساء دفعاً للمفاسد الناشئة من الاختلاف.

الثالث: قالوا: الإمام إنّما يكون لطفاً إذا كان متصرّفاً بالأمر والنهي، وأنتم لا تقولون بذلك، فما تعتقدونه لطفاً لا تقولون بوجوبه وما تقولون بوجوبه ليس بلطف.

والجواب: أنّ وجود الإمام نفسه لطف لوجوه، أحدها: أنّه يحفظ الشرائع ويحرسها عن الزيادة والنقصان. وثانيها: أنّ اعتقاد المكلّفين لوجود الإمام وتجويز انفاذ حكمه عليهم في كلّ وقت سبب لردعهم عن الفساد ولقربهم إلى الصّلاح، وهذا معلوم بالضرورة. وثالثها: أنّ تصرّفه لا شكّ أنّه لطف ولا يتم إلّا بوجوده فيكون وجوده نفسه لطفاً وتصرّفه لطفاً آخر.

والتحقيق أن نقول: لطف الإمامة يتم بأُمور:

منها: ما يجب على الله تعالى وهو خل الإمام وتمكينه بالقدرة والعلم والنصّ عليه باسمه ونسبه، وهذا قد فعله الله تعالى.

ومنها: ما يجب على الإمام وهو تحمّله للإمامة وقبوله لها، وهذا قد فعله الإمام.

ومنها: ما يجب على الرعيّة وهو مساعدته والنصرة له وقبول أوامره وامتثال قوله، وهذا لم تفعله الرعيّة، فكان منع اللطف الكامل منهم لا من الله تعالى ولا من الإمام(١).

ثم إنّ ظاهر إطلاق «وحجته» كون الأئمّة حججاً لله على جميع الخلائق.

وَصِرَاطِهِ

قال الراغب: الصّراط الطريق المستقيم(٢).

إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم الطريق المستقيم، الوصل إلى الله، فلعلّ هذه الكلمة إشارة إلى قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هٰذٰا صِراطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾(٣).

وكوننا مأمورين باتّباع الأئمّة عليهم السّلام واضح جدّاً، لأنّهم لا يقولون إلّا ما قاله الله والرسول، وهم استمرار لطريق رسول الله الذي أُمرنا باتّباعه، يقول أبو عبدالله الصّادق عليه الصّلاة والسّلام:

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٣٨٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢٨٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

هو الطريق إلى معرفة الله عزّوجلّ، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، وأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطّاعة، من عرفه في الدنيا وآقتدىٰ بهداه مرّ علىٰ الصّراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه على الصراط في الآخرة فتردّىٰ في نار جهنم[1].

موجز الكلام على حديث أصحابي كالنجوم

إلا أنّ ما يدعو للاستغراب هو أن يدّعي جماعة من أهل السنّة صدور حديث عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله جعلوه محوراً هامّاً في اعتقاداتهم وأعطوه أهميّة بالغة، إذ يروون عنه أنه قال: «أصحابي كالنجوم بأيّهم آقتديتم اهتديتم»[2].

ونحاول بدورنا تسليط الضوء بدراسة نقديّة مختصره لهذا المدّعىٰ، فنقول:

لا يخفىٰ اهتداء الماضين بالنجوم عند قطعهم الطرق في الصحاري والبحار، وهذا الأمر أكّده القرآن الكريم بقوله تعالىٰ:

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3].

فلو آفترضنا صحة صدور الحديث عن نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله، فيكون الصّحابة كلّهم حينئذٍ نجوماً دالّة وهادية إلى الطريق، فلنا أن نتسائل: هل قصد النبي صلّى الله عليه وآله جميع النجوم، ليصبح جميع الصحابة أدلّاء يُقتدىٰ بهم؟

إن واقع الحال لا يَقِرّ بكون جميع النجوم كعلامات، بل هناك نجوم خاصّة يتم الإهتداء بها. فكيف سيصبح والحال هذه كلّ صحابي نجماً هادياً، وطرقهم

---

(١) معاني الأخبار: ٣٢.

(٢) ميزان الإعتدال ١ / ٨٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٦.

ومساراتهم لا تنتهي إلى غاية واحدة وهدف مشترك؟

وعلى ضوء التناقضات الموجودة في سلوكيّات الصحابة، والخلافات والتقاطعات الثابتة بينهم، فإننا نقطع بأحد أمرين: إمّا أن يكون الحديث مختلقاً وكذباً من الأساس، أو أن المراد بالصّحابة هم الأئمّة المعصومون عليهم السّلام.

وممّا يعضد كلامنا باختلاق الحديث هو الاستقراء الحاصل لآراء علماء السنّة تجاه هذا الحديث منذ زمن أحمد بن حنبل، فإنّ أكثر من ثلاثين علماً من أعلامهم يصرّحون بكذب هذا الحديث أو ضعفه، فإذا انتفىٰ هذا الأمر، فما علينا إلّا أن نذعن للأمر الثاني الذي يعطي الحديث معنىً مقصوداً، ألا وهم الأئمّة الإثنا عشر عليهم السّلام، الذين لا يهدون إلّا إلى طريق واحد، كما حكىٰ ذلك إمامنا جعفربن محمّد الصّادق عليه السّلام بقوله: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، و حديث رسول الله قول الله عزّوجلّ[١]».

من خلال هذا الحديث يثبت بالبرهان المعنى المقصود من حديث أصحابي كالنجوم. لأن العلامات متعدّدة إلّا أن الهدف واحد.

فالأئمّة الطاهرون عليهم السّلام هم صراط الله تعالىٰ، لرجوع كلّ ما يصدر عنهم إلى مصدر واحد، فلا إثنينية ولا تعدّدية في الأهداف، فصراطهم واحد وغايته واحدة وهو الله جلّ جلاله. وهو ما نطلبه ونرجوه في صلواتنا إذ نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢].

---

(١) الكافي ١ / ٥٣، الارشاد ٢ / ١٨٦، بحار الأنوار ٢ / ١٧٩.

(٢) سورة الحمد، الآية: ٥.

ولاية علي الصّراط المستقيم

وجاء في بعض الروايات تفسير ذلك بأمير المؤمنين عليه السّلام كما أورده الخوارزمي في المناقب بسنده عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنه قال:

أوحىٰ الله تعالىٰ إلى نبيّه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾. فقال: إلٰهي، ما الصراط المستقيم؟

قال: ولاية علي بن أبي طالب، فعليٌّ هو الصراط المستقيم.(١)

ولا يعتري أيّ مسلم شك في أن اتّباع أمير المؤمنين عليه السّلام بالمفهوم الصّحيح، يوجب السّعادة في الدنيا و النجاة والفوز في الآخرة، وما ذلك إلّا ليقينه بأن الإمام عليّاً عليه السّلام هو الصراط المستقيم بعينه.

فإذا ما خُيِّر العاقل بين سلوك طريق يوصله إلى الهدف والغاية قطعاً ويقيناً، وبين سلوك طريق آخر مشكوك في نهايته وبلوغه غايته المطلوبة، فكيف لا يختار الطريق الأول، وقد قال النبي الأعظم صلّى الله عليه وآله:

«عليّ مع الحق والحق مع عليّ لا يفترقان»(٢).

و«علي مع القرآن والقرآن مع عليّ»(٣).

---

(١) الروضة في فضائل امير المؤمنين: ١٠٢، مناقب الخوارزمي: ٦٢، شواهد التنزيل ١ / ٧٦، تفسير الثعلبي ١ / ١٢٠.

(٢) نقل هذا الحديث في المصادر السنية والشيعية منها: الخصال: ٤٩٦، الأمالي للصّدوق: ١٥٠، كفاية الأثر: ٢٠٠، الاحتجاج ١ / ٩٧، بحار الأنوار ١٠ / ٤٣٢، شرح الأخبار ٢ / ٦٠، الفصول المختاره: ٩٧ و ١٣٥، مجمع الزوائد ٧ / ٢٣٥، تاريخ بغداد ١٤ / ٣٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٤٩، ينابيع المودّة ١ / ١٧٣، المعيار والموازنة: ١١٩، شرح ابن أبي الحديد ٢ / ٢٩٧.

(٣) كذلك جاء هذا الحديث في المصادر المعتبرة للفريقين منها: امالي الشيخ الطوسي: ٤٦٠، الطرائف: ←

وقوله صلّى الله عليه وآله:

«من أطاع عليّاً فقد أطاعني ومن أطاعني فقد أطاع الله»[١].

وهل ينطق الرسول الأعظم صلىٰ الله عليه و آله نقيض ما يأمر به الله؟ فالباري يقول في محكم كتابه:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٢].

فعلىٰ هذا الأساس الرصين، أوصىٰ النبي صلّىٰ الله عليه و آله أُمته بقوله:

إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا.[٣]

فالقرآن والعترة متلازمان ولن ينفك أحدهما عن الآخر البتة، وكلام القرآن كلام العترة، وكلام العترة كلام القرآن، لذلك قال: «وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض وإني سائلكم عنهما».

١٠٣، الأربعون حديثاً: ٧٣، الصراط المستقيم ٣/١٦٣، بحار الأنوار ٢٢/٤٧٦، المستدرك على الصحيحين ٢/١٢٤، مجمع الزوائد ٩/١٣٤، المعجم الاوسط ٥/١٣٥، المعجم الصغير ١/٢٥٥، كنز العمال ١١/٦٠٣، فيض القدير ٤/٤٧٠، المناقب للخوارزمي: ١٧٧، الجامع الصغير ٢/١٧٧، سبل الهدىٰ والرشاد ١١/٢٩٧، ينابيع المودّة ١/١٢٤.

(١) راجع: معاني الأخبار: ٣٧٣، بحار الأنوار ٣٨/١٣٩، المستدرك على الصحيحين ٣/١٢١، كنز العمّال ١١/٦١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٣) نقلت مصادر العامة والخاصة هذا الحديث بألفاظ مختلفة منها: بصائر الدرجات: ٤٣٣، كمال الدين: ٢٣٦ و ٢٣٨، العمدة: ٧١، الطرائف: ١١٤ و ١١٦، كفاية الأثر: ١٣٧، وسائل الشيعة: ١٨ و ١٩، بحار الأنوار ٣٦/٣٣١، فضائل الصحابة: ١٥، مسند أحمد بن حنبل ٣/٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣/١٠٩، مجمع الزوائد ٩/١٦٣، مسند أبي يعلىٰ ٢/٢٩٧، سبل الهدىٰ والرشاد ١١/٦، السنن الكبرىٰ ٥/٤٥، البداية والنهاية ٥/٢٢٨، ينابيع المودّة ١/١٠٥ و ١١٥، كنز العمال ١/١٨٦.

ولماذا خصّص الحوض موعداً للّقاء؟

لأن الواقف عليه والمتولّي لأمره والسّاقي منه هو علي بن أبي طالب عليه السّلام، إذ قال صلّى الله عليه وآله بلا خفاء وبلا غموض وبوضوح الرسالة:

«يا علي، أنت أخي ووزيري وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وأنت صاحب حوضي، ومن أحبّك أحبّني ومن أبغضك أبغضني».(١)

هذا، ناهيك بتشبيه النبي صلّى الله عليه وآله الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بسفينة نوح عليه السّلام، لِلَفت الأذهان إلى النكات الخفيّة التي دارت عليها قصّة النبي نوح عليه السّلام، وتدعو الإنسان للتدبّر في الأسباب التي أدّت إلى افتراق ابنه عنه ليكون من الهالكين، ولم تغنه شفاعة أبيه النبي عند الله تعالىٰ لانتشاله من الورطة التي أحاطت به، فحال بينهما الماء وكان من المغرقين، وعلى أثر ذلك جاء العتاب الإلٓهي:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٢).

وبناءً على هذه القاطعيّة، لم ينج أحد من الغرق إلّا الذي سبق إلى ركوب السفينة، وخاب الآخرون إلى الهلاك، حتى ولو كان ابناً للنبيّ.

استدلال المحقّق الطّوسي

ينقل العلّامة الحليّ رحمه الله طريفة في هذا المجال عن الخواجة نصير الدين الطوسي رحمه الله، حينما سألوه عن المذهب الحق في الإسلام، فردّ الخواجة رحمه الله مستدلاًّ بقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله المتفق عليه:

---

(١) أمالي الصّدوق: ١١٦، عيون أخبار الرضا ٢ / ٢٦٤، بحار الأنوار ٣٩ / ٢١١.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

«ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية والباقي في النار».

وبقوله الآخر المتفق عليه كذلك:

«مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ ومن تخلّف عنها هلك».

فالنتيجة، أن النبي صلّى الله عليه وآله قد عيّن الفرقة الناجية والمذهب الفائز في القيامة بشكل لا لبس فيه.

فهل يمكن القول ـ والحال هذه ـ أن سلوك طريق غير أهل البيت من الصّحابة منجٍ من الهلاك، وضامن لرضا الباري تعالىٰ ودخول الجنة كما هو اتباع الإمام علي وانتهاج طريقه على حدٍّ سواء؟

ومن يجرؤ أن يجزم أنّ مذهب الشيخين أو مذهب أبي موسىٰ الأشعري أو مذهب طلحة و الزبير و عائشة ومعاوية و... كلّها مذاهب صحيحة تعطي نفس النتيجة التي يعطيها مذهب الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام، وتنجي من الهلكة وسوء العاقبة؟ إنّ مَن لم يعرف الصّراط في هذه الدنيا فلن يجوزه في الآخرة وهو من المغرقين الهالكين. وهذا ما رواه المفضل عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام.

كما وردت روايات أخرىٰ تعطي نفس النتيجة نقلتها مصادر السنّة ففي حديث عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وآله قال:

«إذا كان يوم القيامة، أمرني الله عزّوجلّ وجبرئيل فنقف على الصراط، فلا يجوز أحدٌ إلا بجواز من عليّ عليه السّلام»[1].

---

(١) بشارة المصطفى: ٣١١.

وروى الشيخ الجليل ابن البطريق عن ابن عباس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قوله: «عليّ يوم القيامة على الحوض، لايدخل الجنّة الّا من جاء بجواز من علي بن أبي طالب»(١).

وَنُورِهِ

«النور» ما يُضيء بذاته، فهم عليهم السّلام نور الإلّه جلّ جلاله الذي تجلّىٰ فبدَّد ظلمات الجهل والفتن والضلالة والاختلاف في كلّ الأزمنة والمجالات، ولكلّ العوالم والأُمم.

روىٰ أبو خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عليه السّلام عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذي أَنْزَلْنا﴾(٢).

فقال: يا أبا خالد، النور ـ واللّٰهِ ـ الأئمّة من آل محمّد عليهم السّلام إلى يوم القيامة، وهم ـ والله ـ نور الله الذي أنزل، وهم ـ والله ـ نور الله في السماوات وفي الأرض.

والله يا أبا خالد، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم ـ والله ـ ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزّوجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم.

والله ـ يا أباخالد ـ لا يحبّنا عبد ويتولانا حتىٰ يطهّر الله قلبه، ولا يطهر الله

---

(١) العمدة: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٨.

قلب عبد حتىٰ يسلّم لنا ويكون سلماً لنا، وإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر[١].

وَ بُرْهَانِهِ

قال الراغب:

«البرهان أوكد الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصّدق أبداً لا محالة».[٢]

ما أدقّه من تعريف كما هو معهود عن الراغب بدقته في فهم ألفاظ القرآن والحديث.

فتعبيره «أوكد» من أفعل التفضيل، و كذلك «الصّدق» و«أبداً» و«لا محالة» يُفهم منها أن وجود الأئمّة عليهم السّلام بكلامهم وفعلهم وحركاتهم وسكناتهم صدق محض متأبّد لا يطرأ عليه تغيير ولا يعتريه تبديل البتة.

وهو ما فاح عن سيرتهم الذاتية الشريفة، فليراجعها من أراد الاستزادة ولينظر إلى ما قاله أعداؤهم فيهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ

(١) الكافي ١ / ١٩٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٥.

المحتويات

كلمة المركز ٥

كلمة المؤلّف ٧

المدخل

معنى الزيارة لغةً وعرفاً ١١

الأئمّة أحياء ١٣

زيارة الأنبياء والأئمّة زيارة الله جلّ جلاله ١٥

شبهة واهية ١٥

ما هو الغرض من الزيارة؟ ١٧

لماذا كلّ هذا التأكيد على الزيارات؟ ١٨

معرفة الأئمّة روائياً ٢٠

مقام الصالحين ٢٢

الخلاصة ٢٣

آداب الزيارة في مدرسة أهل البيت ٢٤

أبرز الزيارات المنقولة ٢٥

الزيارة الجامعة ٢٧

دراسة حُول

الزّيارَة الجامِعَة الكبيرة

سند الزيارة الجامعة ٣٨

المشايخ الأربعة ٣٩

حكم الصدوق بصحة أخبار كتابه ٣٩

«الصحيح» في الاصطلاح ٤٠

ترضّي الصدوق على مشايخه ٤١

لا جرح للمشايخ الأربعة ٤٣

تعدّد الرواة يوجب الوثوق ٤٣

استفادة الوثاقة من الترحّم ٤٤

بعض الروايات المروية عنهم ٤٥

أبو الحسين الأسدي ٥١

محمّد بن إسماعيل البرمكي ٥٣

موسى النخعي ٥٣

إستشهاد العلماء بالزيارة الجامعة ٥٩

شروح الزيارة الجامعة ٦٣

الزيارة الجامعة غنيّة عن السند ٦٤

الزيارة الجامعة في كلمات الأكابر ٦٦

محصّل هذه الكلمات ٦٩

لا غلوٌّ ولا تقصير

ما هم الغلو؟ ٧٣
الغلو كما جاء في الروايات ٧٤
الإعتدال بين الغلو والتقصير ٧٥
كلام الشيخ المجلسي في الغلوّ ٧٨
المعرفة الحقيقية ٨٢
الخاتمة في محاور الزيارة الجامعة ٨٣

القسم الأوّل

السّلام على الأئمّة عن علمٍ ومعرفة

السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ٨٩
ما هو السّلام؟ ٩٠
يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ٩١
المقصود من «أهل البيت» ٩٢
لِماذا أهل بيت النبوّة؟ ٩٤
استقرار وظائف النبوّة في أهل البيت ٩٤
نبوّة الأنبياء السّابقين ببركة أهل البيت ٩٧
مشاركة أهل البيت في رسالة النبي الأكرم ١٠٢
نبوّة نبيّنا أوّل النبوّات ١٠٥
تقدّمه في الخلق وهو نبيّ الأنبياء ١٠٩
كون الإمام علي معه هناك ١١٤

وَ مَوْضِعَ الرِّسَالَةِ ١١٦
وَ مُخْتَلَفَ الْمَلاَئِكَةِ ١١٧
نزول الملك إلى الزهراء الطّاهرة ١١٧
نزول الملائكة إلى الأئمّة ١١٨
نزول الملائكة إلى قبور النبي والأئمّة ١١٨
نزولها في ليلة القدر ١١٩
من روايات عرض الأعمال عليهم ١٢٢
قصة نادرة ١٢٤
وَ مَهْبِطَ الْوَحْيِ ١٢٥
«الوحي» لغةً ١٢٥
نزول الملائكة بالمعارف الإلَهية ١٢٧
الأئمّة محدَّثون ١٢٧
وَ مَعْدِنَ الرَّحْمَةِ ١٢٨
«المعدن» لغة ١٢٨
الرحمة الإلَهية ١٣٠
آياتٌ في الرحمة الإلهيّة ١٣١
دور الأئمّة في الرحمة الإلهيّة ١٣٢
وَ خُزَّانَ الْعِلْمِ ١٣٢
شأن العلم في الإسلام ١٣٣
الأئمّة خزّان علم الله ١٣٤
خزّان علم الرّسول ١٣٥

خزّان علم الكتاب ١٣٦

خزّان علم الغيب ١٣٩

إمامتهم وسيرتهم ١٤٠

قبح تقدم المفضول ١٤١

وَ مُنْتَهَى الْحِلْمِ ١٤٢

الفرق بين الحلم والصبر ١٤٢

المراد من «المنتهى» ١٤٣

إشارة إلى حلم النّبي ١٤٤

إشارة إلى حلم الأئمّة ١٤٥

رواياتٌ في الحلم ١٤٦

وَ أُصُولَ الْكَرَمِ ١٤٧

«الأصل» لغة ١٤٧

«الكرم» لغة ١٤٨

وَ قَادَةَ الْأُمَمِ ١٤٩

الأُمم لغة ١٤٩

النبي والأئمّة قادة الأنبياء ١٥٠

قادة الملائكة إلى العبادة ١٥١

هم القادة في الآخرة إلى الجنّة ١٥٢

رجوع الحكّام إليهم في المعضلات ١٥٣

وَ أَوْلِيَاءَ النِّعَمِ ١٥٤

أقسام النعمة ١٥٤

وجود النبيّ والأئمّة نعمة ١٥٦
ولايتهم نعمة ١٥٧
كلّ النعم بواسطتهم ١٥٨
وَ عَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ ١٦٠
«العنصر» و«البرّ» لغةً ١٦٠
وجود الأئمّة والأبرار من حقيقة واحدة ١٦١
النبيّ الأكرم والإمام علي من نورٍ واحد في روايات العامّة ١٦٣
في رواياتنا ١٦٤
خلقة شيعتهم من طينتهم ١٦٦
الفرق بين «الشّيعي» و«المحبّ» بحسب الروايات ١٦٨
الأئمّة هم الأصل في برّ الأبرار ١٧٦
وَ دَعَائِمَ الْأَخْيَارِ ١٧٧
«الخير» مفهوماً ومصداقاً ١٧٨
على رأس كلّ خير: المعرفة والطّاعة ١٧٩
معرفة الله وطاعته بالأئمّة ١٨٠
وَ سَاسَةَ الْعِبَادِ ١٨٣
«السياسة» لغة ١٨٣
المراد من «العباد» ١٨٤
الأئمّة ساسة البشر والملائكة ١٨٧
حق السائس بالتربية والعلم ١٨٩

حق السائس بالملك ١٩٠
سياسة الأئمّة ستتجلّى في عصر الظهور ١٩٠
وَ أَرْكَانَ الْبِلاَدِ ١٩٢
«الركن» لغة ١٩٢
«البلد» لغةً ١٩٣
نكتة قرآنية ١٩٣
وهنا مسائل ١٩٤
الأئمّة أوتاد الأرض ١٩٤
هم العلّة لخلق الناس وبقائهم ١٩٥
هم الأركان في الهداية والتزكية والتعليم والمغفرة ١٩٧
أثر وجودهم للجنّ والحيوانات ١٩٩
وَ أَبْوَابَ الْإِيمَانِ ٢٠١
«الايمان» لغة ٢٠٢
روايةٌ في الإيمان ٢٠٣
«الايمان» هو «الدين» ٢٠٥
الأبعاد الثلاثة لشخصيّة الإنسان الكامل ٢٠٧
عليّ باب الدين ٢٠٨
علي باب حطة ٢٠٨
باب السلم ٢٠٩
علي باب الفقه ٢١٠
علي باب الجنّة ٢١٠

علي باب مدينة العلم ٢١١
علي باب الحكمة ٢١١
علي باب النبي ٢١١
علي باب الله ٢١٢
علي الباب المبتلى به الناس ٢١٣
وَ أُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ ٢١٣
«الأمانة» لغة ٢١٣
الغرض من جعل الأمانة ٢١٤
إضافة «الأُمناء» إلى «الرحمن» ٢١٥
ما هو الملاك لهذا الائتمان ٢١٥
إشارة إلى ما ورد في حفظ الأمانة وأدائها ٢١٧
وَ سُلاَلَةَ النَّبِيِّينَ ٢١٨
لا يتوهّم أفضلية النبيّين من الأئمّة ٢١٩
وَ صَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ ٢٢١
حديث في أنهم «الصفوة» ٢٢٢
وَ عِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٢٢
«العترة» لغةً ٢٢٢
من الأحاديث في أن النبي وآله خيرة ربّ العالمين ٢٢٤
ليس «العترة» مطلق الأقارب ٢٢٦
وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ ٢٢٨

السَّلاَمُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى ٢٣١
الهداية من الله ٢٣١
الرّسول هاد ٢٣٢
القرآن هاد ٢٣٢
أئمّة أهل البيت هداة ٢٣٢
هداية النبيّ وهداية الإمام ٢٣٣
إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ...﴾ ٢٣٦
وَ مَصَابِيحِ الدُّجَى ٢٣٧
الأئمّة مصابيح الظلمات: ظلمة العدم ٢٣٨
ظلمة الشرك ٢٣٨
ظلمة الجهل ٢٣٩
ظلمة الفتنة ٢٣٩
ظلمة الذنوب ٢٤١
وَ أَعْلاَمِ التُّقَى ٢٤٣
«العلم» لغةً ٢٤٣
«التقى» لغةً ٢٤٤
الأئمّة أعلام التقى بذواتهم وإرشاداتهم ٢٤٤
هم أعلامٌ لكافّة الناس ٢٤٥
وَ ذَوِي النُّهَى ٢٤٧
«النهى» لغةً ٢٤٧
رواياتٌ في أنهم أُولى النهى ٢٤٧

وَ أُولِي الْحِجَى ٢٤٨
وَ كَهْفِ الْوَرَى ٢٤٩
«الكهف» لغةً ٢٤٩
عموم «الورى» ٢٤٩
كهف الملائكة ٢٥٢
علم الأئمّة بلغات الحيوانات وحالاتها ٢٥٣
قبورهم أيضاً «كهف الورى» ٢٥٤
«كهف الورى» في المشكلات العلميّة ٢٥٥
وَ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ٢٥٦
الإرث في اللغة ٢٥٦
الإرث في الفقه ٢٥٧
الإرث في القرآن ٢٥٨
مواريث الأنبياء وعموم الإرث ٢٥٩
إنفاق الأنبياء والأئمّة ما يملكون في سبيل الله ٢٦٣
وَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى ٢٦٥
«المَثَل» لغةً ٢٦٥
الأئمةُ مثلُ العليّ الأعلى ٢٦٦
وَ الدَّعْوَةِ الْحُسْنَى ٢٦٨
الأئمّة «دعوة» ٢٦٩
الأئمّة «دعاة» ٢٧٠
معنى «الحسنى» ٢٧١

وَ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى ٢٧١
وجه الحاجة إلى إقامة الحجة ٢٧١
مقتضى القاعدة نصب الحجة ثم الاحتجاج به ٢٧٣
أمّا على أهل الدّنيا ٢٧٦
أمّا على أهل الأولى ٢٧٧
وأمّا على أهل الآخرة ٢٧٨
وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ ٢٧٨

السَّلَامُ عَلَى مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ ٢٨١
من عرفهم فقد عرف الله ٢٨٢
وَ مَسَاكِنِ بَرَكَةِ اللَّهِ ٢٨٥
«البركة» لغة ٢٨٥
وَ مَعَادِنِ حِكْمَةِ اللَّهِ ٢٨٧
«المعدن» لغةً ٢٨٧
«الحكمة» لغةً ٢٨٨
الحقائق المحكمة عند الأئمّة ٢٨٩
الحكمة من الله ٢٩٠
الحكمة في الروايات ٢٩١
وَ حَفَظَةِ سِرِّ اللَّهِ ٢٩٢
ما ستره الله عن العباد محفوظٌ عند الأئمّة ٢٩٢
أسرّوا ببعضها لآحادٍ من أصحابهم ٢٩٤

وَ حَمَلَةِ كِتَابِ اللَّهِ ٢٩٦
«الحمل» لغةً ٢٩٦
المراد من «كتاب الله» ٢٩٧
حقائق القرآن عند الأئمّة ٢٩٨
وَ أَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ ٣٠٠
«الوصيّ» لغةً وشرعاً ٣٠٠
الوصاية عن النبي هي الإمامة من بعده ٣٠١
الإمامة لا تنال الظالمين ٣٠٥
الأئمّة أوصياء الرّسول ٣٠٦
الوصيّ لقب أمير المؤمنين عليه السّلام ٣١٠
حديث الثقلين وصيّة النبيّ ٣١١
التصريح بالوصيّة في حديث الدّار ٣١٣
من أحاديث الوصيّة ٣١٥
وَ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ٣١٦
«الذريّة» لغةً ٣١٦
الأئمّة أولاد رسول الله وذريّته ٣١٨
الإمام الكاظم وهارون ٣٢٠
إباء النواصب عن قبول الحقيقة ٣٢٢
قضيّة الحجّاج مع يحيىٰ بن يعمر ٣٢٣
إضافة «الذريّة» إلى «رسول الله» ٣٢٥
وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ ٣٢٥

السَّلاَمُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ ٣٢٩
الأئمّة هم الدعاة إلى الله ٣٣٠
من قضايا الأئمّة في سبيل الدعوة إلى الله ٣٣١
أساليب الأئمّة في دعوة الناس ٣٣٦
كتاب الحجّاج إلى علماء عصره في القضاء والقدر ٣٣٧
وَ الْأَدِلاَّءِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ ٣٣٨
«الدليل» لغةً ٣٣٨
آياتٌ في «مرضات الله» ٣٣٩
مبيت أمير المؤمنين ابتغاء مرضات الله ٣٤١
الفرق بين «الداعي» و«الهادي» و«الدليل» ٣٤٤
الأئمّة أدلاء في كلّ الأحوال ٣٤٤
وَ الْمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ٣٤٦
«الإستقرار» لغةً ٣٤٦
ما المقصود «بأمر الله»؟ ٣٤٧
وَ التَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ ٣٤٩
«التمام» لغةً ٣٤٩
«المحبّة» لغة ٣٤٩
محبّة الأئمّة لله غير معلَّلة ٣٥٠
يشترط تصديق المحبوب ٣٥١
حديث الرّاية وحبّ الله عليّاً ٣٥٢
السرّ في إضافة «المحبة» إلى لفظ «الجلالة» ٣٥٥

وَ الْمُخْلِصِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ ٣٥٥
الإخلاص في العبادة ٣٥٦
الإخلاص في التوحيد ٣٥٧
وَ الْمُظْهِرِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَ نَهْيِهِ ٣٥٨
طرق إظهارهم أحكام الله ٣٥٨
طرق أخذهم الأحكام ٣٦٠
تفويض الأحكام إلى النبي والأئمّة عليهم السّلام ٣٦٢
من كلمات أعلام الطّائفة ٣٦٨
وَ عِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ الَّذِينَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ٣٧٢
«العباد» لغةً ٣٧٢
١ ـ عصمة الأئمّة عليهم السّلام ٣٧٤
٢ ـ علم الأئمّة عليهم السّلام ٣٧٥
٣ ـ عمل الأئمّة وسلوكهم الإلَهي ٣٧٥
٤ ـ شفاعة الأئمّة عليهم السّلام ٣٧٦
وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ ٣٧٨

السَّلاَمُ عَلَى الْأَئِمَّةِ الدُّعَاةِ ٣٨١
وَ الْقَادَةِ الْهُدَاةِ ٣٨٢
المحتاج إلى الهادي لا يكون هادياً ٣٨٣
وَ السَّادَةِ الْوُلاَةِ ٣٨٤
إشارةٌ إلى الولاية التشريعيّة ٣٨٤

وَ الذَّادَةِ الْحُمَاةِ............ ٣٨٦
حفظ الدين وأهله............ ٣٨٧
وَ أَهْلِ الذِّكْرِ............ ٣٨٨
«الذكر» إمّا القرآن وإمّا النّبيّ والأئمّة أهله............ ٣٨٩
ولعلّه مطلق «الذكر»............ ٣٩١
وَ أُولِي الْأَمْرِ............ ٣٩٢
«أولوا الأمر» في القرآن الأئمّة المعصومون............ ٣٩٣
وَ بَقِيَّةِ اللَّهِ............ ٣٩٥
الأئمّة بقية الله في الأمّة............ ٣٩٥
الأئمّة خيرٌ للأُمّة............ ٣٩٦
الإمامة باقية في عقب الحسين عليه السّلام............ ٣٩٧
وَ خِيَرَتِهِ............ ٣٩٩
النبي وأهل بيته خيرة خلق الله............ ٣٩٩
وَ حِزْبِهِ............ ٣٩٩
حزب الله في القرآن............ ٣٩٩
حزب الله في الرّوايات............ ٤٠١
وَ عَيْبَةِ عِلْمِهِ............ ٤٠٣
وَ حُجَّتِهِ............ ٤٠٤
بعث الرّسول ونصب الإمام شرط صحّة المؤاخذة............ ٤٠٤
الإمام المهدي حجّة الله............ ٤٠٦

وَ صِرَاطِهِ ٤٠٨
موجز الكلام على حديث أصحابي كالنجوم ٤٠٩
ولاية علي الصّراط المستقيم ٤١١
استدلال المحقّق الطّوسي ٤١٣
وَ نُورِهِ ٤١٥
وَ بُرْهَانِهِ ٤١٦
وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ ٤١٦
المحتويات ٤١٧